الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية

العلامة الشيخ مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي –الجزائري– بوزريعة

قسم اللّغة العربية وآدابها

القرية في شعرية الرواية الجزائرية

بين الواقع والمتخيل

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تخصص: نقد وبلاغة

إعداد الطالب: بلقاسم بلحارت

إشراف أ. د/ أحمد حيدوش

لجنة المناقشة:

–أد/بوطارن.محمد الهادي	رئيسا
– أد/حيدوش احمد	مشرفا ومقررا
– أد/عمر عاشور	عضوا مناقشا
– أد/قدور عمران	عضوا مناقشا
– د/مزوني زهرة.	عضوا مناقشا
–د/بختة هواشرية.	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2022/2021

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية

العلامة الشيخ مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي –الجزائري– بوزريعة

قسم اللّغة العربية وآدابها

القرية في شعرية الرواية الجزائرية

بين الواقع والمتخيل

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تخصص: نقد وبلاغة

إعداد الطالب: بلقاسم بلحارت

إشراف أ. د/ أحمد حيدوش

لجنة المناقشة:

–أد/بوطارن.محمد الهادي	رئيسا
– أد/حيدوش احمد	مشرفا ومقررا
– أد/عمر عاشور	عضوا مناقشا
– أد/قدور عمران	عضوا مناقشا
– د/مزوني زهرة.	عضوا مناقشا
–د/بختة هواشرية.	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2022/2021

إهـــداء

أهدي هذا البحث المتواضع إلى كل طالب علم لا يعرف التوقف أو التردد أو التأجيل في طلب المعرفة والارتقاء بمستواه مهما كانت ظروفه أو تقدمت به السنون.

إلى أسرتي التي تحملت معي عبء البحث وعبء التخلي عنهم في كثير من الأحيان.

إلى طلبة الآداب واللغات أينما كانوا علّهم يستفيدون من البحث كما أستفيد من آرائهم وانتقاداتهم.

كلمة شكر

أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدم لي يد العون لإنجاز هذا البحث بدءا من الأستاذ القدير "أحمد حيدوش" المؤطر والموجه على الدوام بملاحظاته وآرائه وانتقاداته.

إلى الفريق التربوي والإداري بالمدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة– حيث أنتمي.

وإلى الطاقم الإداري والتربوي بجامعة البويرة أيضا، دون أن أستثني شكري للمساعدة التي تلقيتها من جامعة المدية وبرج بوعريريج والمسيلة، فإلى مؤطريها كل الثناء.

وإلى الزملاء والأصدقاء الذين شجعوني معنويا لاستكمال البحث، ومنهم الأستاذ القدير "بوتغماس بلقاسم" العضو السابق بالمجلس الشعبي الوطني عن ولاية البويرة.

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين وصحابته أجمعين.

لقد ارتبط الإنسان على مر الأزمنة بالأمكنة، فمنذ ساعة ميلاده إلى ساعة مماته فهو يعيش ويتعايش في أكثر من مكان وفي أكثر من زمن، ويمكن لنا القول كذلك أنه حتى وقبل أن يلج هذا الإنسان إلى العالم الخارجي، كان له مكان ولو كينونة بيولوجية باعتبار بطن الأم هو المكان الأول قُبيل الظهور إلى الأمكنة المفتوحة، ومنه تجذّرت سمات الشخصيه التي تلازمه لاحقا في تطور ونماء. « فالمكان ليس بيئة عاش فيها الإنسان فحسب، بل هو عنصرٌ ساعد في بناء شخصيته وطبعها بأطر تشكلاته وحدود معطياته، التي قد تجعل الشخصيات تختلف فيما بينها لا لأسباب سيكولوجية فقط بل لأسباب مكانية أيضا لذلك نعي أهمية المكان في الواقع العياني »[1]. فالملاحظ هنا أن المكان يتجاوز ذلك الحيز الضيق الذي يستغله الفرد أو الجماعة، بل أكثر من ذلك فهو فضاء لتكوين الشخصية الإنسانية عبر مراحل زمنية متعاقبة مما يمنح لهذا أو ذاك كثيرا من التباين والتمايز، وحتى بعض أوجه التشابه أحيانا إما على المستوى العائلي والأسري أو على المستوى الإنساني عامة.

ولا شك أن السؤال عن المكان أو الأمكنة، أو البحث عنها ظل يؤرق الوجود الإنساني بل وسائر الكائنات الأخرى. فما هذه الحروب والثورات والنزاعات والاعتداءات بين الأفراد والجماعات، إلا بحث عن التوسع والامتداد أو لاسترجاع مكان مغتصب أو حب للتملك أو للطمع وتوسيع الفضاءات الاقتصادية. فبات من المشقة بمكان أن نتصور كائنا حيا يعيش في فراغ وبدون مكان يشغله، ويمارس فيه أنشطته وسائر حياته. فما بالك إن كان هذا الكائن إنسانا؟ لكن ورغم هذه الأهمية التي يتربع عليها المكان في حياة البشر أو في حياة سائر المخلوقات فهو لم ينل حظا واسعا في مختلف البحوث والدراسات سيما على مستوى الأعمال الأدبية، إلّا في وقت متأخر وفي النزر القليل من الدراسات المعاصرة. فاستعصى هذا الموضوع أن يتحول

(1) جعفر الشيخ عبوش، السرد ونبوءة المكان، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، 2014، ص 9.

إلى مجال بحث ثري من شأنه أن يثير اهتمام النقاد والدارسين، بل ويغري فيهم نكهة البحث، فبقي موضوع المكان من المحطات العابرة والثانوية، وهذا في اعتقادنا الشخصي على الأقل وحسب ما نتوفر عليه من معلومات، ولا شك أنّ الإنسان ينزع إلى بيئته بالفطرة والسليقة، ولهذا فإنّ للمكان جاذبية رهيبة في حياة الفرد، فمهما ابتعد عنه يظل فؤاده بجواره وفي داخله أيضا، لهذا كان للهجرة والاغتراب عن البيت هاجس ظل يقلق الإنسان على مرّ التاريخ، فليس من السهولة بمكان أن يتحمل الفرد مهما علا شأنه عبء النأي عن المكان الذي ولد فيه ونشأ وقضى طفولته وشبابه «حين نحلم بالبيت الذي ولدنا فيه، وبينما نحن في أعماق الاسترخاء القصوى ننخرط في ذلك الدفء الأصلي هذا هو المناخ الذي يعيش الإنسان المحمي في داخله»[1]، ومن البيت يكبر المكان بل تتعدد الأمكنة حتى تصل إلى الوطن والقرية التي هي محل بحثنا جزء كبير منه، فهي المكان الأصل لا جدال في ذلك.

وأعتقد أن اختيار القرية كموضوع لتحضير شهادة الدكتوراه صعب جدا، وبتعبير آخر فهو موضوع تأسيسي في الدراسات الجامعية سيما في الجزائر والعالم العربي لقلة أو انعدام أساليب التوثيق الميداني المتواصل، لذلك فإن موضوع القرية والقرى يتطلب كثيرا من التريث والمثابرة لجمع أكبر ما يمكن جمعه من المعلومات المتناثرة في الكتب التاريخية وفي كتب علم الاجتماع البشري. وبقدر ما نحصل عليه من معلومات، لكن هذا كله لا يعدم وجود بعض الأعمال الجادة والثمينة، وفي هذا السياق كان لابد أن نعترف هنا بالفيلسوف والناقد الفرنسي «غاستون باشلار» الذي أسس لهذا الموضوع حين استطاع أن يحاور المكان بكل تجلياته ويستنطق جمالياته انطلاقا من البيت بأجزائه وأشيائه ومؤثثاته، ثم لاشك أنه تبعه آخرون وعلى قلة عددهم أو قلة بحوثهم في هذا المجال. « البيت هو ركننا في العالم... كوننا الأول، كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى وإذا طالعنا بألفة فسيبدو أبأس بيت جميلا... وكل الأمكنة المأهولة

(1) غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط6، للمؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 2006، ص 38.

حقا تحمل جوهر فكرة البيت »[1]. هكذا رأى الناقد الفرنسي حقيقة البيت فظل يكتب عنه.

أسباب اختيار الموضوع:

في حقيقة الأمر، لا يمكنني أن أحصي أسباب إختياري لهذا الموضوع جميعها بل سأكتفي بذكر بعضها والتركيز على الأهم منها، ومن نافلة القول فإن اختياري لهذا الموضوع بالضبط وهو: «**شعريّة القرية في الرواية الجزائرية بين الواقع والمتخيل**» يرجع في الأصل إلى اقتناعي اللاّمحدود بأهمية المكان في حياة الأفراد والمجتمعات الإنسانية وحتى لسائر الموجودات والمخلوقات، دون أن يعي الكثير منّا قيمة المكان وأهميته، إمّا عن غير قصد أو حتى عن قصد، علما أن كل كائن في هذا الوجود يشغل مكانا خاصا به أو يتقاسمه مع الآخر أو يشغل عدة أمكنة تبعا لنشاطاته ونموه وتطوره الجسدي والعقلي، وتبعا لأماله العريضة وطموحاته اللامتناهية ولمدى تحمله لآلامه وأقراحه. كما أن القرية على وجه الخصوص كمكان محوري في حياتنا، لم تنل حظا كبيرا من الدراسة والبحث، إن لم نقل ظلت مهمشة في كثير من الأعمال الأدبية والنقدية رغم ما حوتها من أحداث ومآسي وصراعات عبر مختلف المراحل التاريخية لمسيرة الإنسان، رغم حضور الانسان فيها منذ فجر التاريخ.

وأعترف كذلك من باب الأمانة العلمية، بذلك التشجيع الذي لقيته من الأستاذ المشرف "أحمد حيدوش" الذي رغّبني في تقصي جماليات القرية عبر ما تناوله بعض الروائيين الجزائريين في مختلف أعمالهم الأدبية، فالأكيد أن هذا المكان الأصيل تبعا لهذه الأعمال ظل يختزن كثيرا من أسرار الوجود الإنساني التي أبت أن تبوح بنفسها إلا للأوفياء لها وللباحثين عن كنوزها واستنطاق مكنوناتها.

إن موضوع القرية لا يزال موضوعا خاما دون شك، وهذه قناعة شخصية لازمتني ولا يزال المكان بكلّ فضاءاته وعناصره وأشيائه، فكان حريّا بنا أن نلتفت إلى هذا الفضاء، بل إلى هذه الأرض الطيبة والعزيزة لدى كل فرد من الجزائريين فلقد كانت

(1) غاستون باشلار، جماليات المكان، مرجع سابق، ص 36.

القرية في تاريخهم الطويل المرير، مهدا لانطلاق ثورتهم المظفرة، ضد جبروت المستعمر الفرنسي الغاشم، فحق لهذا المكان الذي شهد إحدى أكبر الثورات المعاصرة أن يشمخ في العلياء، ووجب علينا أن نصغي إليه ونتأمل كلّ ما فيه، فلعلّه بصمته ذاك قد يبوح لنا بأشياء وأشياء نحن نجهلها أو نعجز عن استنطاقها، ألم تكن المرتفعات والجبال والسفوح والقمم الجزائرية معاقل للثورة العارمة؟ وتربة خصبة لنضج الأفكار الثورية وشحذ همم الأمم للنضال والمقاومة والرفض.

ومن الأسباب الأخرى التي حفزتني أيضا لمحاولة إلقاء القبض على هذا المكان كوني أحد أبناء القرية أصلا، ففي جنباتها ورحابها أمضينا الطفولة وبعض الشباب ويكفي أنها كانت انطلاقاتنا الأولى لمسارنا الدراسي، في ظروف صعبة جدا، طبعتها قلة الإمكانات أو حتى انعدامها أحيانا، فكان الجوع والعراء يلفان المكان، إنها صورة قاتمة، ظلت دوما في مخيالنا وذاكرتنا. ورغم تلك المعاناة انتابني الحنين للرجوع إلى تلك القرية، ولم يثنن عن ذلك كثير من الأحداث المأساوية التي عشناها يومذاك كسائر سكان القرى والأرياف، أبرزها على الإطلاق وفاة الوالدة تغمدها الله برحمته الواسعة، بعد مرض أقعدها الفراش، من جراء الشقاء والحيف والمعاناة فمن إفلاح الأرض إلى الإحتطاب وغير ذلك، شأنها شأن نساء القرى، فكان التحدي كبيرا والصبر قويا والتعلق بالمكان قناعة إلى أن ذهب من ذهب وارتحل من ارتحل، لكن المكان بقي على الدوام منتصرا بكبريائه شامخا في عليائه يجمع بين الوحشة والرهبة والمتعة والجمال، وجمع أيضا بين بعض من مظاهر الثروة وكثيرا من محفزات الثورة.

ولا أدَّعي على الإطلاق بأنني سأفي هذا المكان حقه من الدراسة والبحث لأن محمولاته وشيئياته وأشيائه وجمالياته أكبر من أن تسعها دراسة أو حتى دراسات، غير أنني سأحاول جاهدا وبتوفيق من الله تعالى، أن أتقصى مظاهر القرية في بعض الروايات الجزائرية المكتوبة إبان الثورة خاصة وبعدها أيضا، لنقرّب إلى القارئ نظرة هؤلاء الروائيين حيال هذا المكان وكيف استطاع هؤلاء أن يستنطقوا أبعاده السياسية والاجتماعية والتاريخية والنفسية، ولعلهم في ذلك الزخم السردي والوصفي يقربون إلينا

بعض جماليات القرية وهي التي غابت أو غُيّبت عن أذهان كثير من القراء الذين توجس أغلبهم من هذا المكان فجنحوا إلى المدن أو المناطق الحضارية.

ومن جانب آخر، يعتريني بعض الطموح في هذه الدراسة المتواضعة للقرية أن تكون لاحقا بمثابة دعوة الباحثين للغوص في هذا الموضوع، وبذلك يمكن لنا جميعا أن نصحح نظرة الكثيرين منا إزاء هذا المكان الذي احتضننا زمنا ولا يزال، إذ غالبا ما انطبع في أذهاننا أن القرية كانت دوما وعلى مرّ التاريخ الإنساني رمزا للحيف والقهر والفقر والجوع والجهل، وغُضّ الطرف في كثير من الأحيان عن قيمها وأخلاق أهلها، من شجاعة ورجولة ووفاء وصبر وتحدّ، إضافة إلى كون المكان مصدر رزق لأغلب الأسر الجزائرية، سيما في الفترات العويصة من تاريخنا المجيد أثناء الحروب العالمية وأثناء الثورة المظفرة.

ومن هذه الرؤى والقناعات والاعتبارات كلّها، سنحاول في هذه الدراسة أن نتقفى أثر حضور القرية كواقع أو بمعية الخيال، وذلك في بعض الروايات الجزائرية.

إشكالية البحث:قلة حضور القرية في الاعمال الأدبية الجزائرية كمكان فني يتجاوز المكان الجغرافي.

فعليه كان عنوان بحثنا: **شعريّة القرية في الرواية الجزائرية بين الواقع والمتخيل:**

وسنسعى بكل ما أوتينا من جهد لبلوغ بعض الأهداف من خلال بحثنا هذا ولعلّ أهمها:

– استنطاق مدى حضور هذا المكان (القرية) في بعض الأعمال الروائية الجزائرية بشكل عام.

– الوقوف عند حضور القرية في هذه الأعمال قبل الاستقلال.

– الاطلاع على حضور القرية من خلال هذه الأعمال بعد الاستقلال.

– الاطلاع على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والنفسي للجزائريين في هذه الأماكن.

– تحريض القارئ أينما وجد لملامسة مكنونات القرية باستمرار كمرجعية له وأصالة وهوية وتاريخ وكينونة.

– دعوة الجميع سلطة كانت أم شعبا إلى الاهتمام بقرانا وأريافنا، حتى نزيل عنها صفة نقاط الظل وما ذلك بعزيز.

– دعوة الباحثين والدارسين والنقاد للغوص في جماليات هذا المكان بالبحث والتحليل والاستكشاف.

– ربط الإنسان دومًا بمكانه الأول رغم ما يحققه من علم ومكان وجاه وسلطة.

وللوصول إلى تحقيق هذه الأهداف أو حتى بعض منها، ارتأينا العمل في هذا البحث وفق هذه الخطة.

مقدمة.

مدخل: مفاهيم نظرية.

أولا: حقيقة المكان في حياة البشرية.

ثانيا: القرية في منظور القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف.

ثالثا: القرية في منظور الرواية الجزائرية عامة.

رابعا: مفهوم مصطلح الشعرية.

الفصل الأول: القرية وأبعادها في الرواية الجزائرية قبل الاستقلال.

– الأنموذج الأول: القرية في رواية «الأرض والدم» "لمولود فرعون".
– الأنموذج الثاني: القرية في رواية «ابن الفقير» "لمولود فرعون".
– الأنموذج الثالث: القرية في رواية «يوميات بلاد القبائل» "لمولود فرعون".
– الأنموذج الرابع: القرية في رواية «الحريق» "لمحمد ديب".

الفصل الثاني: القرية وأبعادها في الرواية الجزائرية بعد الاستقلال

– الأنموذج الأول: القرية في رواية «ريح الجنوب» "لعبد الحميد بن هدوقة".
– الأنموذج الثاني: القرية في رواية «على جبال الظهرة» "لمحمد ساري".

– الأنموذج الثالث: القرية في رواية «أتصمت العصافير» "لمحفوظ خليف".

الفصل الثالث: اللغة والأسلوب بين الحقيقة والمجاز (بعض الروايات أنموذجا).

– ملحق.

أما من حيث منهج البحث والدراسة الذي حاولنا اتباعه في بحثنا هذا فاقترحنا المنهج التاريخي بحكم ملاءمته للموضوع من حيث التركيز على المكان وعلى مدار حقبتين متتاليتين (إبان الثورة وبعدها)، « يعد المنهج التاريخي أول المناهج النقدية في العصر الحديث وذلك لأنه يرتبط بالتطور الأساسي للفكر الإنساني وانتقاله من مرحلة العصور الوسطى إلى العصر الحديث وهذا التطور الذي تمثل على وجه التحديد في بروز الوعي التاريخي، وهذا الوعي التاريخي هو الذي يمثل السمة الأساسية الفارقة بين العصر الحديث والعصور القديمة »[1]. ومن جهة أخرى رأينا أن هذا المنهج هو الأقدر على ربط الأدب بواقع الإنسان بكل أبعاده. ولاحظنا ان هذا المنهج يلامس كثيرا المنهج الاجتماعي,و كلاهما يتماشى مع تطور المجتمعات المختلفة و يتابع تحولاتها تبعا لاختلاف البيئات و الظروف و العصور.ولا شك ان المنهج الاجتماعي يعكس دور الادب في تجسيد صورة الحياة على المستوى الجماعي و هذا ما يجعل النقاد يطرحون فكرة **علم اجتماع النص الادبي**.

ولابد أن نشير إلى أنه صادفتنا عقبات جمة في هذه الدراسة، وسنكتفي بذكر الأهم منها:

– نقص المراجع التي تتناول موضوع القرية أو انعدامها في كثير من الأحيان.
– عدم استقلالية موضوع القرية في الأعمال الأدبية، عن الأجناس الأدبية الأخرى إذ غالبا ما انصهر هذا الموضوع في أدب السير والتراجم.
– تداخل الحقب الزمنية في الرواية الجزائرية أثناء تناولها لموضوع القرية.

(1) صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ص 23.

– تشابه الطرح وصفًا وسردا ونقدا في تناول الموضوع لدى معظم الروائيين الجزائريين مما أحالنا بعض الشيء على نوع من النمطية.

– تداخل الأمكنة في بعض الأعمال الروائية إما بين القرية والمدينة، أو حتى بين القرية وخارج الوطن في الغربة والمهجر.

– تعدد الأمكنة في مكان القرية، الدرب، الحقل، الجبل، الواد، السوق...

لكن ورغم هذه العقبات التي حالت ربما دون الإلمام بالموضوع كليةً، حاولنا أن نشق الطريق نحو هذه الأمكنة «القرى» رغبة في الوقوف عند كثير من خصوصياتها الجغرافية والتاريخية وانعكاساتها على نفوس الأهالي والسكان، فأفضت بهم إلى كثير من التحمل والصبر والثبات والإصرار على البقاء هاهنا، والتمسك بقراهم عن قناعة في تحدٍ منقطع النظير وفي زمن عسير، إذ كانت الجزائر في تلك الفترة تعاني من ويلات المستدمر الفرنسي الذي أحال قرانا ومداشرنا إلى خراب وبؤر للخوف والقلق ممّا ترك الانطباع أن القرية لا تزال رمزا للشقاء ولألوان الحيف والجور، تذكر الأهالي دائما بصور الاستعباد وخنق الحريات، لكن تذكرهم أيضا بتحديهم وصبرهم ورجولتهم وتراثهم وأمانة أجدادهم وأبائهم.

مدخل

مفاهيم نظرية

مدخل

مفاهيم نظرية

أولا: حقيقة المكان في الحياة البشرية.

ثانيا: القرية في منظور القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

ثالثا: القرية في منظور الرواية الجزائرية عامة.

رابعا: مفهوم مصطلح الشعرية.

أولا: حقيقة المكان في الحياة البشرية

يحتل المكان في حياة كل البشر فردا كان أم جماعة حيزا واسعا من اهتماماته وانشغالاته لأنه الركيزة الأساسية للانتماء ودليل الحضور والتواجد، فمنذ لحظة الميلاد إلى لحظة الممات يظل الإنسان أشد ارتباطا بمكان ما أو عدة أمكنة، يمارس في ثناياها أنشطته المختلفة، فتتجلى فيه سلوكاته ومختلف تصرفات حياته. وفي المكان أيضا، يعبّر هذا الإنسان عن آماله وآلامه، فيتجسد كلّ ما يحققه من انتصارات وكل ما يتعرض إليه من انكسارات « فالمكان يصنع الإنسان مثلما يشيد الإنسان بالمكان»[1]. فالأكيد أن هناك علاقة تأثير وتأثر حصلت ولاتزال تحصل بين المكان والإنسان الذي يحيا فيه بجسمه، بأحاسيسه وبكل جوارحه، فلا نبالغ إذا قلنا أن المكان يشبه كائنا حيّا، إذ يحسّ بصاحبه ويشعر به ويتلذذ حتى بوجوده في ثناياه، وذلك ما يقوي التلاحم بينهما ويعزز الجاذبية نحوه، خاصة المكان الأليف، لكن توجد بالمقابل أيضا أمكنة تقذف بالإنسان خارجها حيث يقل الشعور بالدفء والأنس في جنباتها وتضعف دواعي البقاء والثبات والنشاط في أحضانها، وعليه فإن المكان ليس مساحة جغرافية محدودة أو معالم مرسومة بل هو تجارب معايشة لما في داخله ولكل ما يحيط به وحتى للتأويلات التي تجري على أشيائه ومحتوياته، ومن جهة أخرى فإن للعواطف الإنسانية الدور الأساسي في القبول والارتماء في مكان أو أكثر من مكان « تتشخص هذه الأمكنة والمشاهد بتلك الذاكرة الرومانسية المتمثلة في الحنين إلى أماكن الألفة وأرض الوطن القائمة على ضلال الوشائج العاطفية والإنسانية التي تربط الفرد بأرضه ووطنه »[2]، إن المكان الذي نألفه ونتعود عليه، يتملكنا الحنين إليه دوما، فهو ملهم أفكارنا ومشاعرنا خاصة إذا كان في مستوى الأرض والوطن، والقرية بطبيعة الحال هي الأرض التي ينحني إليها الوطن في بذراته الأولى، ثم يكبر حتى يصير قضية شرف يجب الذود عنه والموت من أجله.

(1) جعفر الشيخ عبوش، السرد ونبوءة المكان، مرجع سابق، ص 88.

(2) الأخضر السايح، سطوة المكان وشعرية القص في رواية ذاكرة الجسد، دراسة في تقنيات السرد، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2011، ص 65.

فعليه تبقى الأمكنة المرغوب فيها تمدّك دائما بالاطمئنان وراحة البال وحبّ المكوث والبقاء فيها، ومن ثمّة تطرد منك دواعي الخوف والانزعاج، لكن هذه المؤشرات لا تكفي بأن تمنح للإنسان الراحة الجسدية والنفسية فحسب، بل تشحنه أيضا بقدرة هائلة على العطاء والإبداع، وإن كنا نؤمن أنّ لحظات الإبداع تأتي أيضا من وهج المحن والآلام، وتأتي كذلك من رحم المعاناة وخطوب الدهر ففي هذه الأجواء نشأ العديد من الأدباء والفلاسفة والعلماء والعباقرة، ولنا في الأنبياء والرسل جميعهم العبرة والقدوة، إذ كان مهدهم الأول القرية بدون منازع، فهي المدرسة التي تعلموا فيها دروس التسيير والمسؤولية والمواجهة والتحدي.

لقد تعددت مصطلحات المكان وتفرعت، فمنها الموضع، الحيّز، المحلّ، إلى مصطلح الفضاء، ويعدّ هذا الأخير في رأينا أشمل وأوسع لكونه ينزاح إلى محمولات أخرى، منها الزمان والعناصر والأشياء والكائنات التي يمكن أن تميّز مكانا عن مكان آخر، وتلك هي علامات المكان. « ومجموع هذه الأمكنة يمكن أن يطلق عليها من الوجهة المنطقية اسم الفضاء لأن الفضاء أشمل وأوسع من الدلالة الثابتة للمكان... فالفضاء هو السياق الحقيقي للأمكنة وبعبارة أخرى الأماكن هي جزر في الفضاء »[1] لكن مهما تباينت التسميات فإن المكان هو تلك المساحة واسعة كانت أم ضيقة تحتضن الإنسان، وهي بالنسبة إليه تربة خصبة لنماء شخصيته وصقل تجاربه ومواهبه، وهي الوعاء الزمني لذكرياته الماضية والحاضرة، وفيها يمارس رؤاه الاستشرافية نحو غده بكل ما يحمله هذا المكان لصاحبه من أفراح وأقراح ولحظات الانبهار والإعجاب والتوجّس كذلك، « من هنا يتضح مدى التصاق المكان بالفرد، فكأنهما لا ينفصلان عن بعضهما البعض وذلك من خلال اعتبار المكان امتدادا للجسد »[2]، سيما المكان الأليف بأركانه وزواياه وأشيائه وجمالياته وبوحشته أيضا، بل وبكل محتوياته إن على المستوى الداخلي أو في خارجه.

(1) الأخضر السايح، سطوة المكان وشعرية القص في رواية ذاكرة الجسد، مرجع سابق، ص 64.

(2) المرجع نفسه، ص 34.

من هنا ندرك قيمة المكان في حياة البشر فهو الأكثر جاذبية واستقطابا، فإليه يرحل الإنسان أو يرتحل أو يمكث أو ينتقل، وهو هكذا على هذه الصورة إلى آخر رمق في حياته، ولا بأس إن تعددت لديه الأمكنة تبعا لتعدد ظروف حياته وسائر أنشطته وكثرة طموحاته كذلك، غير أن هناك أمكنة خاصة تتموقع في حياة البشرية على امتداد الزمن، وظلت تلك الأمكنة تتوهج بأحداثها المميزة قد تكون تاريخية، أو دينية أو فنية جمالية أو غير ذلك، فبفضلها عرفت وترسخت في الذاكرة الجماعية، فبقيت على مرّ الزمن أمكنة متألقة ومميزة عن بقية الأمكنة، مما جعل أفئدة الناس ترحل إليها على الدوام، لترسّخ حب الفضول والإعجاب والاستكشاف بين ربوعها، ولكل واحد مآربه وطموحاته في الوصول إليها واستكشاف خباياها رغبة للبقاء فيها أو زيارتها أو حتى العبور بين أطرافها. فعليه لا يمكن لأحد أن ينكر فضل هذه الأماكن مهما اختلفت الرؤى وتشعبت المذاهب وتضاربت الآراء والمصالح الإنسانية وتصادمت الأفكار، ونذكر في هذا السياق بعض هذه الأمكنة التي تألقت على الدوام في الذاكرة الجماعية، وهذا على سبيل المثال فقط لأنها كثيرة ومتعددة لا يمكن ذكرها جميعا مهما تقفينا أثرها. ثم هناك من نعرفها وهناك ما لا نعرفها أصلا. فأرض الله واسعة لا يسعها الإنسان بعقله، بإحساسه أو بما أوتي من ذكاء ودراية وعلم، فيبقى قاصرا على استكشاف المكان والزمان.

فمن هذه الأماكن:

- **مكة المكرمة:** عندما نسمع بهذا المكان، يجول في خاطرنا ولأول وهلة طابعها الديني وعبقها الروحي ولا شك، بل وقداستها أيضا. فيكفي أنها كانت مهبط آخِرِ الرّسالات السماوية على سيد الخلق، الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن جناباتها بدأت تباشير الحق والنور تظهر معلنة لحظة البدء لإزهاق الباطل فكان الجهاد طويلا والتضحية أعظم. وفي ثناياها تجرع الرّسول محمد صلى الله عليه وسلم الويلات والمحن بمعية المؤمنين معه، وبهذا الزخم التاريخي استطاع أن يتألق هذا المكان في تاريخ البشرية قاطبة وعند المسلمين على الخصوص، وليس ببعيد عن مكة نذكر.

- **المدينة المنورة:** يثرب، والتي كانت مقصدا للهجرة النبوية، ورمزا لقيام دولة إسلامية على أسس وقواعد ونظم متينة فكانت مكانا للتلاقي، ولحوار الحضارات وقبول الآخر، وفيها بدأت الدعوة الإسلامية في النضج والترسيخ أكثر والسير بالإنسانية نحو الاستقرار والتحضر والتمدن وحينما نذكر:
- **بلاد الرافدين،** يستوقفنا صوت نهرين عظيمين إنهما دجلة والفرات، فبين حناياهما تجذرت إحدى أكبر الحضارات الإنسانية، ففيهما أيضا علا صوت العلم والأدب وسائر صنوف المعرفة على مدار الزمن، وإذا أبحرنا بعد هذا إلى:
- **اليونان،** وجدنا هذا المكان يعبق بالتفكير الفلسفي دون منازع، ففي هذه الرحاب تزاحمت واحتدمت أفكار الفلاسفة وأهل الحكمة ومثيري الإشكاليات المعقدة، فكان للعقل حضور قويّ في تلك البلاد، فمن رحم هذا المكان انفجرت الرؤى المنطقية والفكر الحجاجي، إزاء الوجود والطبيعة والإنسان والأشياء، بل وحتى لما وراء الطبيعة. وحين نطلق العنان بعد ذلك لبعض من رغباتنا في الفضول والاستكشاف نصل إلى مكان آخر إنه:
- **هوليود بأمريكا،** هنا يكبر الصخب وتتعالى الأصوات، وتهيج الأخيلة بالفن السينمائي فتلتقي لحظات السحر والغرابة والدهشة والانبهار فتتوقف الأنفاس أمام الأفلام المرعبة حينا والمضحكة حينا آخر أو الجامعة للحظات التوجس والخوف والمتعة، لكن المؤكد أنّ الخيال يفعل فعلته هاهنا، فمن ثمة يكبر الإلهام ويكبر سحر المكان.

من هنا ندرك أن لكل مكان من هاته الأمكنة أو حتى لغيرها، خصوصياتها ومحمولاتها وشيئياتها، أزمنتها، أشخاصها، أحداثها، ألوانها، لحظات أنسها ولحظات الوحشة فيها أيضا، والنتيجة التي يمكننا الوصول إليها أنه لا يمكن أن نتصور مكانا جذّابا، ممتعا، رائعا، وعظيما من دون الغوص في مخزوناته ومحتوياته وأسراره بما فيها من متع وعيوب أيضا، وكذلك الأشخاص الذين يملؤونه، اعتقادا مِنا أن كل هذه المؤثثات بوسعها أن تخرج المكان من أبعاده الجغرافية المميتة إلى أبعاد أخرى

وتأويلات مكثفة، مما يعزز التواجد المكاني في النفس الإنسانية، « إن تلاحم المكان والزمان والحدث الإنسانيّ يعمّق الرؤية الحقيقية لجمالية المكان »[1].

كما نستنتج أيضا أن هناك تناغما كبيرا بين مكان ما وما حوله من أشياء، حتى الصغيرة منها، قد تكون في داخله أو في جوانبه أو فيما يحيط به، وخاصة ما بينه وبين الأشخاص المقيمين فيه أو العابرين أو الزائرين أو المتحدث إليهم، فهذه المحتويات جميعها تصبح محلّ جذب واستقطاب للآخرين، أو هي بمثابة الدعوة لزيارة هذه الأمكنة وإعادة اكتشاف أسرارها من جديد، أو ربما يحدث العكس، فقد تكبر الرغبة في النفور منها والترحال عنها لما تشكله من الخوف والتردد وقلة الاقتناع في المكوث بينها، فالناس طبائع والأمكنة أشكال وأصناف وظروف ومسافات تقاس بالقرب أو البعد، وللناس وللأمكنة أيضا مآرب وأهداف وحاجات تزخر بها، فمن ثمة يتوق الناس لزيارتها ولتحقيق غاياتهم المختلفة أو ملامسة جمالياتها ولو فضوليا، ونذكر أيضا وعلى سبيل الأمثلة دائما:

- **القبلة:** فهي عند المسلمين مكان محدّد ومعيّن، يمثل لهم إحدى المرجعيات الدينية التي تؤسس لقيام الصلاة، بينما لا يعيرها غيرهم أي اهتمام « إن القبلة عند المسلمين بؤرة محورية لدى المسلم في صلواته الخمس، فهي حاضرة في كل الأمكنة منها وإليها تعود كل الفضاءات الحاملة للمقدس الديني بحكم وجودها على رأس سلّم القيم »[2] فالمكان يكتسي أهمية عند مجموعة معينة تبعا لقناعاتها الدينية والروحية أو لغيرها، وقد لا تتساوى أو تتشابه هذه القناعات عند سائر الناس فكلٌّ بطباعه وحاجاته واستعداداته النفسية خاصة.

(1) صالح ولعة، المكان ودلالته في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010، ص 196.

(2) عبد الرحيم مؤذن، الرحلة في الأدب المغربي، النص، النوع، السياق، إفريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص67.

ثانيا: القرية في منظور القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

إن المتصفح لآيات القرآن الكريم، ستصادفه لا محالة لفظة «القرية» بين ثناياها فلقد ترددت هذه الكلمة في أكثر من موقف، إذ تجاوز ورودها في ما يربو عن ست وعشرين سورة قرآنية، وذلك مقارنة بلفظة المدينة. إن المتمعن في دلالات هذه اللفظة وهي القرية، يدرك أنها كلما ذكرت إلا وارتبطت بحادثة أو واقعة أو مناسبة أو فعل هام حدث في تاريخ البشرية، فالأكيد أنه لم يرد ذكرها اعتباطيا، ولو أن معظمها ينبئ عن تعنت أهلها فيما يبدونه من كفر وجهل وظلم وخروجهم عن جادة الصواب، حتى مع الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى لتنوير البشرية ورفع حجب الظلم والطغيان، وتوجيه الخلق إلى الصراط المستقيم. وانطلاقا من هذا الجحود والنكران من جهة ورفعا لشؤون الأنبياء والرسل الذين جاؤوا لإرشاد الناس وترغيبهم في الإيمان بالله الواحد والمشي على طريق الهدى والصواب والرشاد وإنقاذ البشرية من الضياع والتيه والانحراف. سنورد لاحقا مجموعة من الشواهد القرآنية ورد فيها ذكر القرية مفردة كانت أو جمعا، وجاءت الآيات في هذا السياق تحمل تهديدا ووعيدا للمكان أو لأهله.

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ الكهف: 59.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ يس: 13.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل:112.

والقرية هنا هي مكة، كانت تعيش على التجارة شتاءا إلى اليمن وما بعد اليمن وصيفا إلى الشام وما بعده، لكنها كفرت بمحمد ولم تؤمن به رسولا بل حاربته وقررت قتله لولا التدخل الإلهي الذي أمره بالهجرة إلى يثرب ليعود بعد ثمان سنوات لفتح مكة والانتصار على المكان وأهله.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ هود: 117.

مثل قرية (نينوى) في شمال العراق والتي آمنت بنبيها يونس فلم يعاقبها الله لأنه عادل لا يظلم أحدا.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ الحجر: 4.

أي أنّ الله لا يحاسب ويعاقب قرية إلاّ بعد أن يرسل الرسل إليها ويقيم الحجة عليهم وهنا إشارة لقريش في مكة وتهديد لهم بتذكيرهم بمصير القرى في الماضي من نوح إلى عيسى.

فالملاحظ هنا أن هلاك القرى الذي ابتغاه الله تعالى ليس غاية في حدّ ذاته بقدر ما هو وسيلة لإصلاح أهلها وتنبيههم وتحذيرهم، أو لتقديمهم كدليل للأقوام الأخرى حتى لا يحصل لهم ما حصل لهؤلاء، فمن ثمة تترسخ الفكرة وتحضر العبرة.

ولقد وجدنا أن هناك تداخلا كثيرا حصل بين لفظة القرية ولفظة المدينة وكأنهما يتقاسمان نفس المعاني والدلالات، كما تداخلت لفظة القرية أيضا مع لفظة البلد، البلدة أو ذكرت بعض العلامات الجغرافية توحي بالقرية كالأرض، الجبل، الكهف، النهر الربوة، وسنورد أمثلة لذلك: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ المَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُون﴾ الحجر: 67. وهي قرية النبي لوط ومع تطورها الاجتماعي والديموغرافي أشار إليها القرآن بإسم المدينة.

– ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ إبراهيم: 35.

– ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58) ﴾ الأعراف: 57–58.

– ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ الكهف: 77.

– ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ الكهف: 82.

– ﴿وَآَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ المؤمنون: 50.

-﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ النمل: 48، والمدينة هنا هي مدينة قوم النبي صالح وهم ثمود.

-والرهط: تسعة من جبابرة ثمود، رئيسهم هو الذي عقر ناقة النبي صالح.

-﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ ﴾ النمل: 91، البلدة هنا هي مكة وهي كلمة مرادفة لاسم القرية والمأمور هو الرسول صلى الله عليه وسلم.

-﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ القصص: 18، والمقصود النبي موسى والمدينة تعنى قرية فرعون مصر، بلغت من التطور والعمران ما جعل الله سبحانه وتعالى يأتي باسم المدينة وليس القرية.

-﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ القصص: 20، واستعملت كلمة المدينة كذلك بدل القرية.

-﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ القصص: 22، أي النبي موسى اتجه نحو القرية وذكرها الله باسمها وهي مدين.

إن الآيات الكريمة جاءت في سياق واحد، وفيهما ذكرت لفظتا «القرية» و«المدينة» فدلّت على التجمع والبقاء ومختلف أضرب الحياة، لكن ورغم تلاقي المكانين في تمظهرات متشابهة، فإن مخيال الثقافة الشعبية يجنح دائما إلى مفهوم ثابت عن القرية، فهي على الدوام مجموعة بيوت متلاصقة بعضها ببعض متجاورة، معظم سقوفها تراب وخشب وقصب، دروبها ضيّقة، تميزها أوحال وأتربة وغبار وأحجار تملأ الأزقة والحارات لتكبر محنة المرور، وشقاء العبور بين هذه البيوتات، فمن هذه المشاهد ظلت القرية على مرّ الزمان رمزا لحياة الشقاء والمعاناة، بل وحتى رمزا للتخلف والانكماش، وبالمقابل ظلت القرية أيضا فضاء سجلت فيه خصال إنسانية رائعة عبر التاريخ من مروءة وكرم وحلم وتعاون وصبر على المحن، كما كانت أيضا مصدر رزق للأهالي ومصدر الراحة النفسية، وباعثا على الإلهام بمناظرها وعمرانها وتجمعاتها.

ومن هذا المنطلق نجد القرآن قد خصّص للقرية حضورا مميزا كما ذكرنا سابقا، وهذه شواهد أخرى نضيفها إلى ما سبق ذكره حول حضور القرية في آيات القرآن الكريم:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ البقرة: 259 « والمقصود بالقرية في الآية: بيت المقدس لما تعرضت للتخريب »[1].

﴿يقولون ربنا أخرجنا من هذه الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ النساء: 75، والمقصود هنا بالقرية مكة المكرمة قبل الفتح.

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فنفعها إيمانها﴾ يونس: 98، والمقصود بالقرية في هذه الآية قرية يونس عليه السلام.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ النحل: 112، والمقصود بها مكة المكرمة حينما أنعم الله عليها بالرسول صلى الله عليه وسلم غير أن قومه كفروا به فعذبهم الله بالقحط والجوع سنين.

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ الكهف: 77، وقيل هي أنطاكية.

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آَخَرِينَ﴾ الأنبياء: 11، وهي هنا قرية باليمن.

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ الحج: 45، والمراد هنا قصر بناه شداد بن عاد بن آدم.

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ الفرقان: 40، وهي قرية لوط عليه السلام.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ سبأ: 18، وهي قرى متواصلة بين اليمن والشام.

(1) شوقي أبو خليل، أطلس القرآن، أماكن، أقوام، أعلام، ط12، دار الفكر، دمشق، 2011، ص 211.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ يس: 13، وأصحاب القرية هم أهل أنطاكية وهي موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الخيرات.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ الزخرف: 31، والقريتان هنا مكة والطائف.

﴿وكأين من قرية هي أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ محمد: 13، والمقصود بالقرية في هذه الآية هي مكة.

ولقد كانت مكة المكرمة من الأماكن المنفردة في ثنايا القرآن الكريم نظرا لخصوصياتها الروحية وما عرفته من أحداث رسخت في الذاكرة الإنسانية، ففي رحابها عرف المؤمنون على قلتهم اضطهادا من طرف الكفار، بمعية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ورغم ذلك ما انثنت لهم عزيمة، وفي المقابل ظل هذا المكان منطلقا لأنوار الإيمان وصوتا يلبي الحقيقة الإلهية بكثير من المواجهة والصبر والتحدي وقناعة روحية لا نظير لها.

ومما نلاحظه انطلاقا من هذه الآيات أن لفظة القرية تراوحت بين المفرد والمثنى والجمع، وارتبط جلها بأعمال وسلوكيات أهلها النزّاعة إلى الشرّ والهدم والكفر والإلحاد، وكأن الله تعالى يشير إلى أن كل الأمكنة نظيفة، طاهرة في أصلها، غير أن سكانها أو بعضهم هم الذين يحيلونها إلى بؤر الفساد والخراب والظلم والجور. فهذه الآيات في غالبها وردت لتوبخ هؤلاء وتتوعدهم على سلوكاتهم وتصرفاتهم، فالأمكنة التي منحها الله تعالى لعباده تبقى منزهة فوق هذه التصرفات والسلوكيات.

ونشير أيضا إلى أن لفظة القرية تحتجب عن الذكر في عديد المواقف لتحل محلها ألفاظ تدل عليها وهي علامات المكان وفي هذا السياق سنحاول أيضا أن نورد بعض الشواهد القرآنية على ذلك:

-﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ البقرة: 249.
-﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ هود: 43.
-﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ إبراهيم: 37.

-﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ طه: 12.
-﴿وآويناهما إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ المؤمنون: 50.
-﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ القصص: 30.
-﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ القصص: 23.
-﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾سبأ: 15.
ولفظة سبأ اسم قرية أو مدينة في اليمن.

فالملاحظ هنا أن هذه العلامات الجغرافية كالوادي أو الجبل أو الربوة، إنما هي تضاريس تحوي القرى أو هي بدورها تحتضن القرى، فالغالب أن القرية تتموقع فوق الجبال أو في سفوحها أو بين جنباتها وفي مختلف التضاريس كالأودية والهضبات.

وقد تُذكر علامات أخرى تدل على القرية ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) ﴾ التين: من 1-3.

- **فالتين والزيتون:** يقصد بهما بلاد الشام عامة وبيت المقدس خصوصا،
- **وطور سنين:** إشارة إلى جبل في سيناء،
- **والبلد الأمين:** إنما المقصود به مكة المكرمة.

إن هذه العلامات المكانية المذكورة في ثنايا القرآن الكريم، ما هي إلا معطيات ربانية منحها الله تعالى للبشر، قصد إدراك الأمكنة وتمييز بعضها عن بعض، إضافة إلى كونها أماكن للاسترزاق منها ولقضاء مآرب أخرى لا تعدّ ولا تحصى، ولا بأس إن سعى الإنسان لإحداث تغييرات وتعديلات على المكان الذي يقيم فيه، بحثا عن إرضاء حاجاته اللامتناهية وإشباعا لفضوله وتجسيدا لطموحه وآفاقه المتوسطة المدى أو البعيدة.

فمن هنا ندرك أيضا أن أصناف الأمكنة كثيرة، « فكان من الواجب التفريق بين المكان التاريخي الطبيعي الذي لم تتدخل يد البشر فيه أبدا كالجبال والوديان، والمكان غير الطبيعي (الاصطناعي) الممتدة إليه يد البشر من معابد وقصور وقلاع وحصون

مشيدة وقد كان تركيز الروائيين على نحو عام على الأمكنة غير الطبيعية لأنها تراثهم وتاريخهم وما يدل على وجودهم وإعلاء شأنهم بين الأمم »[1].

نستنتج مما سبق أن القرآن الكريم أوحى للإنسان أن يثمّن المكان، والمكان الديني من الأمكنة التي تكون رابطة روحية بين العبد وربه «.. ففيه يدعو ربه ويناجيه ويتضرع إليه فكانت الأمكنة الدينية محلا للسكون والطمأنينة»[2]، ففي هذا المكان يقيم الإنسان أو يرحل عنه أو يرحل إليه، فهو مصدر رزقه وعيشه ومرجعية هويته وحضارته، وقد يكون المكان أيضا فضاء لعبادة الله وشكره على نعمه، فكان أحرى بالإنسان أن يعيره أهمية قصوى واهتماما بالغا، فالمكان هو الانتماء، البقاء، الوجود الحياة بكامل أوجهها، ومن ثمة يمكن لنا أن نجزم أنّ المكان الأكثر حضورا والتصاقا بحياة البشر من حيث تجربة الإنسان بمكان ما وإدراكه لما فيه، يختلف حتما عن خبرته ووعيه وإدراكه لآلية الزمن، لأن إدراك المكان يكون حسيا، بالملامسة والمعايشة والاحتكاك، بينما يبقى إدراك الزمان نظريا في الغالب، قد لا نحس به في كثير من الأحيان حينما ننهمك في عمل ما، ينسينا الزمان، لكنه لا ينسينا المكان، فمن هنا يتجلى لنا أنّ درجات الإدراك لدى الإنسان تلعب دورا في تحديد الأمكنة وتعيين مستوى قبولها أو رفضها أو معانقتها أو النفور منها، وهكذا فإذا كان للمكان تواجد جغرافي فإن له حضورا نفسيا وعقليا وروحيا قبل التواجد الجسدي، إذ تهفو أفئدة الناس إلى الأمكنة التي تحتضن آلامهم وتقلل من آلامهم في سكون وطمأنينة في جو بسيط وعفوي حيث راحة البال واطمئنان النفس وقبول الآخر في رحمة ومودة.

ومن جهة أخرى فإن الحديث النبوي الشريف لا يخلو عن ذكر لفظة القرية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أفي أن قرصتك نملة فأهلكت أمة من الأمم تسبح »[3].

(1) جعفر الشيخ عبوش، السرد ونبوءة المكان، مرجع سابق، ص 60.

(2) المرجع نفسه، ص 68.

(3) أخرجه الإمام مسلم في كتاب السلام، رقم الحديث 2241، باب النهي عن قتل النمل 1709/14.

فنلاحظ أن القرية ذكرت في الحديث وعرفت بكثرة النمل، وأوحى الله لنبيه ومنه لعباده إلى الاحتراز من قتل النمل، فبه عمرت القرية.

وفي حديث آخر: « أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية قال: هل لك عليه نعمة تربّها عليه قال: لا غير أني أحببته في الله تعالى قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه »[1].

ولقد كانت لمكة المكرمة مكانة مميزة في قلب الرسّول صلى الله عليه وسلم فمنها انطلق وإليها عاد، وفيها اصطفاه رب العالمين ليكون رحمة للعالمين، كما أن للمدينة وقعها الخاص في نفسه كذلك فهي التي احتضنته في أعزّ المحن، وفتحت له ذراعيها لنشر الإسلام. « مهما اتسمت دائرة المحسوس من الفضاءات تأتي دائرة المعنى القدسي لتفجر نواتها وتلقحها بتمثلات دينية »[2]، فلكل من هذين المكانين عبقه ونسائمه وتاريخه أيضا الحافل بالأحداث.

ثالثا: القرية في منظور الرواية الجزائرية عامة

إن القرية كمكان، مُصطلح كثُر حضوره بين ثنايا الأعمال الروائية عند معظم الروائيين الجزائريين إن لم نقل كلّهم، ونكاد أن نجزم أن جميع هؤلاء والذين كتبوا باللغة الفرنسية خاصة تبعا للظروف السياسية آنذاك، قد أجمعوا على كون هذا المكان هو فضاؤهم المفضل لسرد وقائع وأحداث أعمالهم الروائية أثناء الثورة الجزائرية على وجه التحديد أو بعدها أيضا، ولقد كان السّكان الأقدمون يعيشون حياة البدو والرحل في بلاد شاسعة ولهذا سميت الجزائر أنذاك «نُوميديا» أي بلاد الرحل، وهو مأخوذ من الكلمة اللاتينية (Nomode)، ومن جهة أخرى فإن كل المدن المعروفة تقريبا كانت في الأصل قرى مع إختلاف تسارع تطورها. وفي هذه القرى ظهرت مجتمعات موحدة منضبطة عموما مقتنعة بتوزيع الحقوق والواجبات على الأفراد من قبل كبار القرية وشيوخها

(1) أخرجه مسلم في كتاب السلام، رقم الحديث: 2567.

(2) عبد النبي ذاكر، بلاغة المحو في رحلة ابن بطوطة، ط1، مطبعة أنفو-برينت، المغرب، 2013، ص 54.

وليس هناك مجال للتمرد لأن نظام القرية ينطلق حتى من خلال الممرات الضيقة للجميع، أو من خلال المنبع الوحيد للقرية، وإذا حدث تمرد استثنائي لفرد ما على ذلك النظام، فيعرّض نفسه لعقوبات، كأن يطرد من القرية أو يعزل ويهمش أو يدفع غرامة أو إضافة إلى تأنيب الضمير لاحقا والخوف من الجانب الروحي الذي يسري في القرية.

فكان هذا المكان أي القرية المادة الخام (للروائيين الجزائريين) من حيث الأحداث والوقائع والشخصيات لتقريب الواقع أو نقله تبعا لما عاشوا فيه أو تعايشوا معه، وفي هذه الرحاب حاول الروائيون ترجمة آلامهم وآمالهم وهمومهم الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والسياسية، بل ولكل أفراد مجتمعهم على اختلاف توجهاتهم، إنّ المتتبع لهذه الأعمال المختلفة تقابله القرية في كل منعرج سردي حتى بدت بمثابة وطن بأكمله يئن تحت وطأة الظروف القاهرة، سيما أثناء الاحتلال الفرنسي الذي أساء إلى هذا المكان بكلّ ما أوتي من شراسة وعنفوان، وكأن به ينتقم من رجولة ومروءة أهله المتشبثين والمتعلقين بقراهم في قمم الجبال أو سفوحها والرافضين لسياسة الهيمنة والاضطهاد والاستغلال، ومن خلال هذه الروايات أيضا أدركنا أنّ من هذه التضاريس الوعرة، الموحشة ومن هذه الانكسارات الجغرافية المذهلة، انطلقت الثورة الجزائرية المظفرة، فكان للقرية شرف الإعلان عن البدايات الأولى لكسر دابر الظلم والاضطهاد وكل أشكال القهر، فمن هذه القرى والمداشر المتناثرة فوق الجبال كأنها بها نجوم ترصع سماء الوطن بأكمله، كان المخاض الثوري وكان الوعي عند الناس البسطاء الذين اقتنعوا بأن للحرية ثمنا غاليا لابدّ أن يدفع، وهي من أسمى ما تطمح إليه البشرية في مسيرتها التاريخية، وأردف الروائيون يقولون إنّ من هذه القناعة الرّاسخة أيضا هبّ سكان القرى يذودون عن حيضهم وشرفهم، فمن هذه الأمكنة استلهم الروائي الجزائري حب الكتابة والتأليف، فاقترب إلى هذه الأماكن محاولا تصويرها أحسن تصوير، ومن هنا أيضا حاول أن يظهر مدى إصرار الأهالي على التشبث بهذه الأمكنة رغم ما يحيط بها من ظروف قاسية سواء الطبيعية منها أو البشرية، فتحولت هذه الصورة المجتمعية إلى مصدر إلهام للروائيين الذين اقتنعوا أنّ هذه القرى هي بالنسبة لأهاليها

الملاذُ والأنس، وهي أكثر من هذا وذاك قدرهم المحتوم، واقتنع هؤلاء الرابضون في هذه القرى أن الموت في جنبات هذه الأمكنة لذيذ والدفن فيها ألذ، « تتحول القرية ملاذًا يفرّ إليه الناس، يسترجعون فيها أمنهم واطمئنانهم ويحققون السكينة والاستقرار المفقودين في المدينة »[1]، فمن هذه الأمنيات تتراءى القرية المكان الأكثر احتضانا لحياة القروي، وفيها أيضا تحتضن طموحاته في الأمن خاصة، « لقد مثلت القرية إلى وقت قريب رمز الأمن ورمز الأم الحانية على أبنائها »[2]، وقد يتجاوز هذا الطموح أهل القرى إلى غيرهم، إذ كان الكثير من أهل المدن يهرعون إلى هذه المرتفعات بحثا عن هدوء البال وراحة النفس والخلود إلى لحظات التأمل والدهشة والانبهار والتأمل فيما وهبه الله لهذه الأمكنة من مناظر جغرافية رائعة تفيض جمالا، وربّما كانت لهم فيها أيضا مآرب أخرى ظل مسكوتا عنها فقط، بالرغم ما فيها من خشونة الطبيعة وقساوة العيش، فتمثّل لهم برد القرية لا يشبه برد المدينة ودفؤها أيضا لا يضاهيه دفء المدينة، وربما كان هذا الانعزال والتفرّد وقلة الوسائل أو غيابها مثارًا أو إثارة لزيارة المكان والتوق إليه هروبا من ضجيج الحضر وزيف الحياة وضيق أفق الرؤية، وربما كان ذلك سببا لتغيير نظرة الكثيرين حيال هذا المكان طالما شوهته معتقدات الكثير من الناس، إذ كانوا يرون القرية عنوان مشقة وعناء وتخلف لا غير، يمارس فيه الموت ببطء، في ظل انعدام الوسائل والإمكانات المادية خصوصا. « فالقرية في المدونة هي مكان شبه منغلق معزول، يفتقر لأبسط المرافق، لذا يكون إيقاع الحياة فيها سكونيا نمطيا متكرّرا »[3]، فعليه كانت القرية عند العديد من الناس أو تمثلت لهم مساحة منغلقة، مخيفة، غير مألوفة ولا مستأنسة، هكذا سار هذا الاعتقاد فأضحى يتجسد لأول وهلة وأنت تطأ قدماك هاته القمم والمرتفعات والهضبات والسفوح. لكنه سرعان ما يغريك المكان وتبدأ لحظات الإنبهار والإعجاب لتتحول إلى ألفة ورغبة في الاستكشاف، فحينذاك يصعب الفراق والارتحال، ومن ثمة تُنسج بين الإنسان والقرية

(1) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2010، ص 53.

(2) المرجع نفسه، ص 52.

(3) المرجع نفسه، ص 49.

حكاية عشق، يصعب التوغّل في أسرارها وفك طلاسمها، فعليه يستسلم القارئ لحب المكان أمام هذا التواطؤ الحاصل بينه وبين الإنسان.

ورغم ما يشوب القرى والمداشر من مشقة وضنك العيش، لكونها رمزًا للمعاناة والاضطهاد بقيت هذه الأماكن تتوهج في نفوس الأهالي فما بدلوا عنها بديلا. « ورغم البؤس الذي يعيشه المكان فلقد شكل ملاذا للشخصيات تفرّ إليه من عنف المدينة وقهرها »[1].

إن لكل قروي أو لكل مجموعة من السكان، قصة أو تجربة أو حادثة عاشها وعايشها في هذا المكان، فظلّ يحتفظ بها، وفي الغالب، فإن معظمها وقائع درامية حزينة، وهذا ما عثرنا عليه في ثنايا بعض الأعمال الروائية الجزائرية التي تتبعنا أثر القرية فيها، فالثورة حدث كبير، وذكرياتها مؤلمة فالجزائريون شهدوا إبّان ثورتهم المجيدة آلاما ومحنا، يصعب على الذهن البشري تصوّرها على الإطلاق، فمنها التقتيل والتشريد وحرق البيوت ونهب الأرزاق وانتهاك الحرم أحيانا، « تدفع يوميات المأساة كبار القرية إلى استرجاع أيام الاستعمار عندما كان يداهم القرى ويغتصب نساءها ويقتل رجالها »[2]. لكنه بالمقابل استطاعت القرية أن تصقل التجربة الإنسانية وتشحن نفوس الأهالي بالفكر التحرري وتنبههم إلى الاستمرار في التحدي والمواجهة والمقاومة، تلك هي نداءات الرجولة التي ظلوا يعتدون بها، مهما شقت الحياة عليهم. « يصير المكان كيانا اجتماعيا يمثل خلاصة تجارب الإنسان ومجتمعه، لذا لم يبق في نظر الدارسين مجرد رقعة جغرافية فارغة، بل يمتلئ بالخبرة الإنسانية »[3].

ومن خلال هذه الأعمال الأدبية أيضا، نلمس قدرة المكان على كسر حدوده الضيّقة، فيقفز من مجرد بقعة صغيرة محدودة إلى حياة تتجدد باستمرار وتتغير في كل لحظة، فترتفع فيها هامات الإنسان حينا وتنحني في أحايين أخرى في بساطة وعفوية وفي كثير من السذاجة أيضا تبعا للظروف المحيطة والوقائع المفروضة في كثير من

(1) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، مرجع سابق، ص 52.

(2) المرجع نفسه، ص 54.

(3) المرجع نفسه، ص 24.

الأحيان، غير أن الشيء الملفت للانتباه في الرواية الجزائرية المكتوبة خاصة أثناء الثورة، ذلك التفاني لسكان القرى في خدمة أرضهم دون ملل أو كلل، يدفعهم إلى ذلك حبهم الشديد للحقول والأشجار والنبات والماشية، ولكل شيئيات القرية. « ما زالت أمّي تستطيع أن تعتني بعنزة، لم ينقصها الحليب أبدا »[1].

«... نُسقط شجرة بلوط أو شجرة دردار، نقطعها نفلقها، نقطعها، أتسمعون المنشار الذي يصر وكتلة الحطب التي ترسل صداها في الجنبات؟ وفي المساء تمرّ الحمير محملة بالجذوع الندية كالخبز الطري حمراء ساطعة كقطع لحم جميلة، شيء يمتع النظر »[2]. فبهذا الانسجام والتفاعل بالأرض يترجم القرويّون سرّ بقائهم في هذه التضاريس الوعرة وهم لا يعيرون الاهتمام إلى بعض الإشكالات الحاصلة أو العقبات التي تعتري حياتهم كالطبقية مثلا. « لا ينكر أحد وجود الفوارق الطبقية التي قد تكون كبيرة أحيانا بين سكّان الريف، وجود فقراء لا يملكون شيئا وأغنياء يملكون كل شيء»[3].

إن معظم سكان القرى يحاولون باستمرار تجاوز هذه الإختلالات الاجتماعية وهم مقتنعون أن سنّة الله في الكون جعلت للأمكنة فروقا فهي لا تتساوى بالضرورة فيما بينها من حيث كثير من الجوانب كالغنى والفقر والعلم، والجهل، والثروة أيضا، وإلى غير ذلك من ظروف الإقامة والعيش، وإن بدا في الأصل تشابه كبير في أوضاع الأمكنة الريفية على وجه الخصوص وتشابه في الظروف المعيشية للأهالي، لا سيما في هذه الحقبة التاريخية العسيرة، حيث حاول الاستعمار الفرنسي طمس وجود الإنسان الجزائري وإبادة مكانه أيضا.

إن القرويّ ومن خلال هذه الأعمال الروائية، يقضي يومياته بين الحقول وبمعيّة مواشيه بنفس راضية وقناعة لا توصف، تعلّق لا مثيل له بالأرض، فهو يخدمها بجدّ

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، تر: عبد الزاق عبيد، دار تلانتيقيت للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص08.

(2) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، تر: عبد الرزاق عبيد، دار تلانتقيت للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص ص97-98.

(3) مصطفى فاسي، دراسات في الرواية الجزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص 76.

إلى درجة لا يمكن فيها مغادرتها أو حتى الابتعاد عنها. فهي الأصل وهي الهويّة، والرجولة، هي حياته إجمالا، فقلّما ينأى عنها أو يغادرها إلا لمناسبات جدّ محدودة تمليها بعض الأفراح أو الأقراح، ثم سرعان ما يعود إلى قريته حيث الدفء والحنين والسكينة، بجوار بيته المتواضع ودوابه ومواشيه وأشيائه، وفي القرية تتشكل المشاعر البشرية والتي تظهر بين شباب القرية والتي تتجسد في وسط القرية أو ممراتها الضيقة أو عند المنابع التي تزورها نساء القرية صباح مساء لجلب الماء، أو على ضفتي النهر لغسل الملابس أو تصفية الحبوب المخزنة في البيت قبل ارسالها إلى المطحنة أو إلى الرحى الحجرية اليدوية في داخل البيوت أو الرحى المشتغلة بالماء في المرحلة الثانية من تطور مجتمع القرى.

وفي مختلف الأعمال الروائية الجزائرية نقرأ الطابع العمراني للقرى، إذ تقابلك وأنت ترتاد هذه الأماكن، قرى بأكملها بنيت من القصب المطلي بالتراب الأبيض من الداخل والخارج، وتغطى سقوفها بجذوع الجريد المقطوع من النخيل، وهناك بالمقابل قرى بُنيت بالأحجار، منها ما هو أبيض ويسمى في الجزائر «**بُوخْرشة**»، (وهو بيت يبنى بالحجارة والطين). ومنها ما هو مختلف الألوان من أسود إلى بني إلى أزرق ويسمى القاسح، وكانت في بداياتها تغطى بالحلفاء المائل لتسهيل مرور المطر إلى الأرض، ويسمى بالأمازيغية «**أذْلَسْ**» (نبات ينبت في الجبال طويل الورق). وعندما تعرَّف الناس على رمال الوديان صنعوا منها القرمود، وفي هذه البيوت المتجاورة في القرية الواحدة يجمع السكان غلاّتهم ويخزنونها داخل مطامر تحت الأرض، أو في الجدران وينامون مع دوابهم، لمنع اللصوص من الهجوم عليها في الليالي المظلمة.

وفي ثنايا هذه الأعمال الروائية التي تمّ اختيارنا لها، وجدنا أن مؤلفيها أشاروا وذكروا أن لكلّ قرية أمكنتها المميزة لها عن قرية أخرى، أو على مستوى القرية نفسها كالمقهى الذي يتواجد على حافة الطريق عموما، يرتاده القرويون بين لحظة وأخرى خاصة في آخر اليوم، للتنفيس عن أتعاب وأعباء النهار، فيستحيل المكان إلى محطة للّقاء والأنس وتبادل الأحاديث والأخبار، ومن ثمة نسيان مشقة الأرض والرعي. «فكانت سحابة يومه تنقضي كغيره من الفلاحين في تلك القرية بين العمل في الأرض

وقتل الوقت في مقهى القرية في لعب الورق »[1]. فالمقهى من هذا المنظور فضاء للاستراحة ولإسقاط الأخبار عن البلاد والعباد، أضف إلى ذلك ما يتوفر عليه من ألعاب الورق وغيرها، فإليها تهفو أفئدة الرجال للعب والمرح بالعناد فيما بينهم ورغبة الفوز ونشوة غضب الآخر، فبهذه النشاطات المتعددة تنقضي يوميات القرويين في قراهم، يميزها دون ريب حب المكان والتعلق به، ففيه يرسمون آمالهم المتواضعة ويتقاسمون آلامهم الموجعة في صبر وأناة ورضاء بالقضاء والقدر، وبما توفر لديهم من وسائل وإمكانات. ومهما صعب المكان وشقت المعيشة فإن القرويين يملكون من القدرة ما يجعلهم يطوعون ويروضون هذه التضاريس، فينزعون عنها صفة الرفض والطرد ليحيلوها إلى صفة الانجذاب والاستقطاب. « إنّ المكان حقيقة معاشة يؤثر في البشر القدر الذي يؤثرون فيه، هناك أماكن جذابة تساعد على الاستقرار وأماكن طاردة تلفظنا، فالإنسان لا يحتاج فقط إلى مساحة فيزيقية جغرافية يعيش فيها، لكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره تتأصل فيه هويته »[2]. فمن هذا التجذر والتأصيل يبقى الإنسان مشدودا إلى مكانه الأول فيحنّ إليه ويحمله في قلبه أنّى رحل وارتحل.

لقد لمس الروائي الجزائري، تلك العلاقة الوطيدة القائمة بين القرويين وبين أمكنتهم المتمثلة في الأرياف والمداشر والقرى، ولمس أيضا إصرارهم على نيل أرزاقهم بجهد وكدّ، ففي ذلك هناؤهم وراحة بالهم، وحين تشتد عليهم الوطأة، يفكرون في الهجرة والاغتراب، غير أن قلوبهم تظل مشدودة إلى تلك الجبال والتضاريس الوعرة، فيعودون إليها وقد تحسنت بعض ظروفهم المادية، ففي شوق وحنين يلجون قراهم. « تشخص هذه الأمكنة والمشاهد بتلك الذاكرة الرومانسية الممثلة في الحنين إلى أماكن الألفة وأرض الوطن القائم على ضلال الوشائج العاطفية والإنسانية التي تربط الفرد بأرضه ووطنه »[3]. وفي سياق هذا الطرح نجد معظم الروائيين يركزون الحديث خاصة على فئة المغتربين والمهاجرين أثناء رجوعهم إلى الوطن، إلى قراهم وهم في الأصل قرويّون

(1) أحمد منور، قراءات في القصة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 67.

(2) صالح ولعة، المكان ودلالته في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف، مرجع سابق، ص 71.

(3) الأخضر السايح، سطوة المكان وشعرية القص في رواية ذاكرة الجسد، مرجع سابق، ص 65.

خرجوا ذات يوم فهاهم يعودون، في كثير من اللهفة والحنين فرارا من زخم المدن وزحمة النّاس وتداخل المآرب والمصالح والنزوع إلى التفكير المادي المحض، فإذ بهم يلهثون إلى أحضان الدفء العائلي يتذكرون أيام طفولتهم وشبابهم، رغم علمهم أن ظروف القرية هي التي أجبرتهم على الهجرة إلى ما وراء البحار « ينبغي أن نعترف من الآن بأن القرية بشعة جدّا أكيد أنّنا نتخيّلها جاثمة فوق هضبة... نصعد ونصعد ونتعرّج بجنون فوق الأخاديد والهوّات »[1]. هذه صورة القرى في أذهان أبنائها بعد مدة من الهجر وبعد الرجوع إليها. ورغم هذه المتناقضات في الرؤى، تبقى ساعة رجوع المغترب إلى قريته لحظة الشوق والحنين لأهله وذويه الذين ينتظرونه هم بدورهم بكثير من اللهفة والشغف، وكأن الأهالي يتذكرون أيضا أن أبناءهم ما خرجوا من هذا المكان إلا لتحسين ظروف معيشتهم، وهم كذلك في الغربة تتقاذفهم ظروف مزرية.

من هنا يدرك القارئ لهذه الأعمال الروائية تلك العلاقة الوطيدة بين القروي وقريته، فكلاهما اقتنع بضرورة وجود الآخر، لأن المكان من غير أهله الحقيقيين بالخصوص، يبقى مكانا موحشا غريبا، متوجّسا منه ومن جماليات المكان التي حاول الروائيون ترصدها في هذه الأمكنة، تلك الحركة الدّؤوبة للسكان القرويين، فأينما جُلت ببصرك في هذه القرى يستوقفك فرد أو جماعة تُثير فيك لذة التأمل في حراكهم الدائم وعملهم المستمر بما في ذلك أصواتهم وصيحاتهم وحتى غناؤهم، وتظلّ «تجماعت» مكانا عاما يوحي بالتأطير الجيّد لسكان القرية، فهي العبق والجمال والاطمئنان لهذه التركيبة التي تجعلك تحس بهيبة القانون العرفي الذي ينصاع إليه السكان، وفي ثناياه ينضبطون ومع ممثليه يستنصحون بعضهم ببعض. فمن هذا المنظور الروائي تتحول القرية إلى مكان آمن بدل أن تكون بقعة ظلامية منزوية يبكيها الروائي أو يرثي لحالها شأنه شأن الشعراء القدامى الباكين على الأطلال، بل جعل القرية تنحى منحى الوجود الإنساني الجدير أن يوقع على الهويّة الجزائرية ويؤرخ لمسيرة طويلة بما فيها من أفراح ومآسي عاشها الجزائريون في المدن والقرى والمداشر، وجعل المكان ينبض بالحياة وليس مكانا للموت والغناء. « وهو ما جعلها ترتقي إلى مستوى الرمز لتدلّ على

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص ص 3-4.

الوطن تكون له سطوة على أفراده ليهيمن عليهم تجعل عزلته وبعده عن المدينة يصنع سلطته الخاصة »[1]، بهذه الصورة تكبر القرية في عيون أهلها ويشتد التعلق ويكبر الاعتزاز. «إذا نحن إزاء قرية هي الوطن تعري واقع المكان من خلال كشف أفعال الشخصيات وهم يزاولون حركتهم اليومية المصحوبة بالعنف المتصاعد... لذا تحضر القرية من خلال الشخصيات »[2]، فبالرغم ممّا أحدثه المستعمر الفرنسي من تخريب ودمار في القرى الجزائرية ومحاولته محو المكان كلية، أبى السّكان والأهالي النأي عن قراهم، ما عدا قلة منهم وأملهم أن تتغير بل تتحسن الأوضاع فيها لاحقا، وهذه أمنية الأهالي والسكان « بهذا الفعل الوحشي تنخرط القرية في دوامة العنف، القتل دائما الصورة الوحيدة فلا يعرف أهلها سوى الخوف »[3]، فهذا التوجس ظل يسكن الأهالي. إن هذه الصورة القاتمة عن القرية في جلّ الرواية الجزائرية، نجدها تتكرّر أثناء الاحتلال الفرنسي، لكن رغم ذلك، يحاول بعض الروائيين إنقاذ قُرّائهم من تلك النظرة السوداوية نحو المكان، فيظهرون أن هذه الأماكن المنبطحة في سفوح الجبال أو المعلقة في قممها، كانت أيضا مهدا لميلاد الأفكار التحررية « من هنا اتخذت القرية في النص الروائي صورا ثلاثا، عبرت الأولى عن الحياة الاجتماعية لساكنيها الواقعين تحت القهر يفتقرون لأبسط الحاجات، وعبرت الثانية عما تعرض له هذا المكان من عنف وحشي تمثل في القتل والاغتصاب ارتبط بصورة في زمن الاحتلال، ورمزت الثالثة للوطن وما شهده من أحداث، ويمكن إضافة صورة رابعة والتي لم تحتل مساحة كبيرة... هي صورة المكان الملاذ الذي يهرب إليه المرء لحظة الخوف »[4]، علما أن الخوف لم يكن أبدا عائقا أمام استمرار حياة القرويين. وبهذه الصور المتعددة وفق هؤلاء الروائيون الجزائريون في تقريب واقع القرية في أعمالهم الروائية، والذي بقي يشد فضول الساكنة، فمن خلال تلك الطبيعة المفتوحة تجلت للقرويين أمكنة عديدة ذات شأن في قراهم، فلم يعد تعيقه حواجز أو موانع أو بناءات ضخمة أو عالية تمنعه من

(1) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، دراسة سوسيولوجية في الرواية الجزائرية المعاصرة، مرجع سابق، ص 56.

(2) المرجع نفسه، ص 56.

(3) المرجع نفسه، ص 54.

(4) المرجع نفسه، ص ص 57-58.

النظر إليها، أو تعيقه من الولوج إلى أمكنة شتى داخل قريته. « إن عنصر الطبيعة الذي يحرص عليه الروائي هو نتيجة علاقة أولى مباشرة وحب من ناحية ونتيجة رغبة في خلق توازن أمام هذا الطوفان من السلع والسلوك »[1]، فأنت تتجول في القرية ترى كل شيء فليس هناك أمر محجوبا عن النظر، فالدروب والأزقة والحارات وبعض المرافق على تواضعها كلها أمكنة هامة في حياة الأهالي ألفها وألفته، يتعايشون منها ويتخاصمون عليها أحيانا، كما يتقاسمون المنفعة منها، فالطبيعة للجميع والأرض تسع الجميع وإن قسمت إلى أملاك خاصة.

إنّ هذه الطبيعة الخلابة التي تزخر بها القرى ظلت دائما تخترق أفق المبدع وتصل عينيه وأذنيه، فتجده يخصها بالحديث طالما تفتح أذرعها للقرويين، فيها وبين جنبائها يقضون جلّ وقتهم. فكل شيء هاهنا طبيعي دون موانع أو حواجز كما أسلفنا فحتى الأمراض هاهنا طبيعية مألوفة عند السكان، فهي آلام عابرة سرعان ما تنهزم أمام كبرياء المكان، فلا يعيرها المريض أهمية، فتزول باستصغار شأنها، فبهذا النمط يتعامل القرويون مع ظروفهم الصحية، ولا يعتبرون تلك القروح والأوجاع الظرفية مثارا للآهات والتأوهات وللضعف والعجز، وحين يصرّ الألم تجدهم يستنطقون الطبيعة للتداوي منها فتحل محل الطبيب الذي عزّ الوصول إليه في هذا الظرف الصعب ماديا ومعنويا. فالقرويون دأبوا على حل أزماتهم بأنفسهم معتمدين على تجاربهم الخاصة ومعارفهم البسيطة والمتواضعة الناجعة، فتناقلوها من جيل إلى جيل في تواصل دائم عَزّ أن نجده في غير هذه الأماكن.

في النهاية بقيت القرية في الرواية الجزائرية تتميز بكونها مكانا يسع الجميع في فضاء رحب تزينه صيحات الفلاحين وأصوات مواشيهم، فهي البيت الأول الذي يترسخ في الذاكرة الفردية والجماعية « حينما نحلم بالبيت الذي ولدنا فيه، وبينما نحن في أعماق الاسترخاء القصوى ننخرط في ذلك الدفء الأصلي، هذا هو المناخ الذي يعيش الإنسان المحمي في داخله... الأماكن التي عانينا فيها من الوحدة تظل راسخة في

(1) صالح ولعة، المكان ودلالاته في رواية مدن الملح لعبد الرحمان منيف، مرجع سابق، ص 172.

داخلنا »[1]، من هنا ندرك أيضا أن المكان أو بالأحرى القرية، رغم انعزالها وجغرافيتها الوعرة فإنها تطرد الذاتية والأنانية والفردية، فيتسع صدرها لجميع الآمال والآلام الإنسانية ولها من الجاذبية ما يجعلنا نجنح إليها باستمرار وفي نفوسنا إحساس بالدفء والأنس لا يمكن ترجمته بالكلمات، يعيش فيها الفرد والجماعة في حميمية قلما توجد في أماكن أخرى، وهم مقتنعون أنّ سعادة الآخر تتجلى في وجود الآخر بكل محمولاته وأشيائه.

وقبل الخاتمة نشير إلى أن لكل قرية من قرى هذه المداشر والجبال اسما يميزها عن غيرها وبه تعرف. ويعتبر سكان القرية تلك التسمية مفخرة لهم، فتجدهم يتباهون بأسماء قراهم وبقوة الانتماء إليها، وكثيرا ما تحمل هذه الأسماء دلالات تاريخية أو دينية أو اجتماعية ضاربة في الموروث القديم، أو ربّما ارتبطت بمفاهيم الثورة والكفاح.

وسنحاول بعد هذه الإطلالة على القرية في الرواية الجزائرية أن نعرض بعض النماذج الحية لروايات جزائرية محضة، ألّفها أصحابها وتناولوا هذا المكان وظروف معيشة أهله وسكانه خلال الثورة الجزائرية وبعدها بقليل.

وللعلم فإن هذه النماذج التي اخترناها كجانب تطبيقي لبحثنا هذا، عرضناها بحكم الحضور المكثف للقرية في متونها، إلى جانب وفرة هذه الروايات والشهرة التي تربعت عليها في الأدب الجزائري.

رابعا: مفهوم مصطلح الشعرية

لا شك أن مفهوم الشعرية تشظى في مختلف الدراسات الأدبية والنقدية في أدبنا المعاصر، وفي قناعتنا الخاصة فإن لهذا المصطلح دلالة على الجمالية أيضا ممّاجعلها تعتني اعتناء جادا بعمق النصوص الأدبية بل الأعمال الإبداعية بصفة عامة، غير أنها أولت أهمية خاصة لآليات اللغة التي كتبت بها تلك النصوص وأنماط التعبير من إخبار وحكي وسرد ووصف وحوار، وكلّها جسور للبوح والتواصل مع القارئ أو مع الذات بغض النظر عن المحتوى أو المضمون الذي يكشف عنه النص

(1) غاستون باشلار، جماليات المكان، مرجع سابق، ص ص 38-40.

الأدبي أو يبطنه. فمن هذا المنطلق انبرى نقاد الشعرية الأدبية إلى نقد اللغة أو طرائق الإبداع التي دوّنت بها مضامين القصيدة أو النصوص الأدبية في أسلوبها وبلاغتها بما في ذلك التخيل والتصوير والحقيقة والمجاز والصور البلاغية التي يستعين بها المبدع، فتصبح اللغة هي موضوع الشعرية « تشكل اللغة عنصرا هاما في الأعمال اللسانية فلا نتصور حياة عادية أو أدبية بدون لغة »[1]. هذه اللغة التي تتخذها الشعرية أداة في تمييز النص الأدبي عن بقية النصوص بحثا عن أدبية النص، أي ما الذي يجعل هذا النص أو ذاك نصا أدبيا مشوقا فيه ملامح الإبداع والابتكار؟

وقد لا تهمّ الأفكار الواردة فيه، لأن في نظر هذا التوجه فإن اللغة الجميلة هي الأقدر على تحقيق مضامين رائعة، وبالأحرى فإن المضمون الراقي يبقى تحت سلطة ذاك الأسلوب الجميل الأخّاذ بصوره المدهشة ومجازاته البعيدة، فهذه الرحلات الشعرية الجميلة هي التي تأسر ذهن القارئ وتثير انتباهه وتشده إلى العمل الأدبي، لهذا نجد المؤلف يبذل قصارى جهده ليترك بصماته على لغة النص التي تبحث عن الجمالية التي ينشدها علم السّرد. « نجد الشعرية تنطلق من داخل النص، من سطوره ومفرداته فهي قراءة داخلية للأعمال الأدبية ولهذا لا يمكن أن نحصر مهمة الشعرية بالأعمال والنصوص الأدبية جميعا.. بل بكل شيء في هذا الوجود، فللطبيعة شعرية خاصة وللقول شعرية متميزة وللكتابة شعرية متفردة »[2]. فهكذا تتنوع الشعرية لتشمل مواطن الجمال أنّى وجدت، حتى في القدرة على توظيف علامات الوقوف والخط معا، والمهم أنّ المبدع يترفع عن نقل الواقع نقلا جافا كما هو إنما يأخذ المادة، فيزيد أو ينقص فيها، موظفا خياله في تخيير ما يراه لائقا لعمله الأدبي، ونعتقد أن هذا ملمح من ملامح الصدق في التعبير ونقل التجربة الشعورية. فانطلاقا من الوظائف اللغوية المتعددة في النصوص الأدبية فإن الشعرية تظل تترصّد جملة من الآليات، نذكر منها على وجه الخصوص ولو كما نعرفها وحسب رأينا أيضا:

(1) عبد القادر أبو شريفة حسين لافي قزق، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ط4، دار الفكر ناشرون وموزعون، الأردن، 2008، ص 121.

(2) بشارف حفيظة، شعرية النص عند المتنبي، السّيفية الأخيرة أنموذجا، دار الحمراء، الجزائر، 2004، ص 21.

- البحث في أدبية النص.

- إيلاء الأهمية للجوانب البلاغية من حيث الألسنية والتراكيب النحوية والصرفية.

- تجاوز المضامين النصية وظروف الكتابة وحتى حياة المؤلف، فمن ثمة تترصد الشعرية كيف قال وليس ماذا قال، وإن كان هذا الأخير يكتسي أهمية أيضا في إعداد النص، بل هو أحد مؤثثاته. ولا شك أن رواد الألسنية أمثال "جيرار جنيت" و"رولان بارت" و"تودورف"، هم من نادوا بشكلية النص وواجهته انطلاقا طبعا من داخل النص فلقد ظل هؤلاء يحفلون باللغة واللسان، بل ذهبوا إلى أمور أخرى مثل التكرار، الانزياح الغموض، الصور، الإيقاع، الخيال، التضمين وكلها من أوجه الشعرية.

فمن خلال هذه الأدوات التعبيرية تتجلى معاني النص، فلهذا ظلت الجمالية الأدبية أو الشعرية تتخطى المصاعب في دراساتها النقدية، كونها تقتضي من مؤلف النص أن يحذَق أسرار الكلام ويتمكن من معرفة اللغة وتشعباتها، بما في ذلك فهم المحذوف أو الغائب من خلال الحاضر، وكذلك القدرة على التأويل والتحليل واستقراء خبايا المضمون من خلال التراكيب اللغوية بدلالاتها ومدلولاتها، إنّه الوعي اللغوي الذي كان لابد من الناقد أن يتسلح به وهو يغربل النصوص الشعرية والأعمال النثرية، بل تجده ينقّح كتاباته على الدوام، فلا نهاية لنص ما.

- **الشعرية في الرواية:** للشعرية أصداؤها وتأثيراتها وملامحها على الأعمال الروائية يتجلى ذلك في السرد الروائي خصوصا، إذ تهتم الشعرية بكل المقتطفات اللغوية التي تكتب بها الروائية، إذ تتراءى لنا في سرد الأحداث وفي تقديم الشخصيات وفي الكتابة عن المكان والزمان والظروف المحيطة بهما، إلى غاية العقدة والحل في رواية معينة. إن صاحب الرواية يولي أهمية قصوى للّغة، فتراه مهموما في اختيار مفرداته ومصطلحاته وتراكيبه، قناعة منه أن اللغة ليست أداة تواصل بينه وبين القارئ فحسب، وهذه مهمة تقليدية لاشك، بل هي طموح جمالي، على ضوئه يبرز نجاح المؤلف في عمله، وعلى ضوء اللغة الانسيابية تتجلى مضامين الرواية وتقترب الشخصيات وكذا الفضاءات المكانية والزمانية، خاصة وأنّ الروائي نخاله أكثر تحررا من الشاعر في

الكتابة والتأليف واختيار الأنساق اللغوية، فهو معفى إلى حدّ بعيد من مشقة الأوزان والبحور الشعرية والقوافي ومن قيود العروض عموما.

إن الرّوائي وهو يحاول أن يوفق بين لذّة التأليف وروح الانتصار على جذب القارئ يظل دوما في معركة لا تنتهي في انتقاء الألفاظ والعبارات ليسكبها في مواضعها اللائقة في اتساق وانسجام وحبكة وترابط وتكامل في بناء فنّي جذّاب، وتجده أيضا يتموج للإختفاء في التّصريح، فيحدث فراغات وانحرافات وانزياحات، وكأن به يطلب من القارئ أن يشاركه في عمله، فيثير اهتمامه ويحرك فضوله، داعيا منه أن ينشط في تخيل وضعية ما أو تصوير حدث معين، لم يذكر صراحة، وهذا كله من أهداف الشعرية في الأعمال الروائية، فلا شك أنّها تشحن القارئ بالرغبة في استئناف القراءة وتتبع مسار الرواية، فتنشأ إذ ذاك حميمية بين النص والقارئ، في لغة تربعت على مستوى اللغة في نسيج محكم وعلاقات منطقية فنيا وليس بمفهوم المنطق الفلسفي أو العلمي.

« وما البناء الفني للرواية إلاّ بناء تلك العناصر والعلاقات المتداخلة فيما بينها بوساطة السّرد بأساليبه ووسائله من وصف وحوار »[1]. فمن هذا المفهوم نلاحظ أن الشعرية، تواكب على الإطلاق تلك العلاقات اللغوية فيما بينها وبين المضمون، وفي كيفية تسيير الأطقم اللغوية من جانب المؤلف. ولقد أشار "أرسطو" في كتابه فن الشعر إلى أنّ الشعرية هي القدرة على التصرف في أساليب الكلام وهي عدول عن المألوف، إنها شعرية الفعل والحركة. فلاشك أنّ اللغة المجازية هي إحدى الأثافي في الشعرية، للخروج عن اللغة الضيقة أو اللغة التي تصف الظواهر وصفا جغرافيا يقيد من حرية المؤلف ويحدّ من أفق الانتظار عند القارئ.

وإذا عدنا إلى المكان في العمل الروائي باعتبار بحثنا يدرس شعرية القرية، فنقول إنّه بقدر ما يغيّب هذا المكان حسيا أمام ذهن وعيني القارئ، بقدر ما يكون العمل راقيا، جميلا، إذ تتولى اللغة في هذه الحالة مهمة تأطير هذا الفضاء وتقريبه، فاللغة

(1) عبد الله ابراهيم، المتخيل السردي، مقاربات نقدية في التناص، والرؤى والدلالة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص 115.

الشعرية تتوخى جوانب الوصف والتصوير والسرد توظيف الرموز ذات الإيحاء والتخيل بحثا عن المكان أو الأمكنة الفنية، فكلما تسمو اللغة إلى مستويات عالية تكبر لحظات الانبهار لدى القارئ بجمالية المكان الذي لم يعايشه في الواقع ولم يسبق له أن رآه. فبهكذا لغة تستحضر الأمكنة النائية، فتتراءى أمام القارئ ماثلة أمامه. وفي ثنايا اللغة الشعرية تكتسب الأمكنة القداسة أو الدناسة، الوحشة أو الأنس، بعد أن تخلت عنها جغرافيتها. فلا غرابة أن يتشوق القارئ إلى معرفة المكان عبر هذه الرحلة اللغوية، حبا وفضولا ورغبة في تقصّى المكنونات، « لأن النص مفتوح دائما على تأويلات وإيحاءات تتجاوز القصد الواحد بغض النظر عن قصد المؤلف فالشعرية لا تتحقق إبداعا أو قراءة أو دراسة إلا على أطراف النص وفي ظلال النص النثري بالمعنى بعيدا عن جاهزية التفسير الكلاسيكي ذلك أن الشعرية هي قراءة خارج قراءة »[1]. إنّ شعرية المكان لا تنحصر في موقعه أو نوعه أو في إحداثياته المختلفة أو حتى في اسمه، بل تتجلى في كيفية عرضه وتقديمه أمام القارئ، في عرض جذّاب ومشوق. فعلى صاحب الرواية هنا أن يطوّع اللغة ويحسن توظيفها فنيا دون تكلف ودون مبالغة، ولعلنا سنسوق شاهدا عن ذلك اقتطفناه من إحدى الروايات المدروسة في هذا البحث «كانت قريتنا شديدة الحساسية ولعلني أصدر هنا حكما قاسيا عليها.. فهي تستقبل العائدين إليها ببرودة وبلا اكتراث مما يثير حيرتهم أحيانا ... وأكاد أسمع همسها الخافت يتسلل إلى أذن كل عائد منهم، مشوبا بالسخرية اللاذعة »[2]. بهذه الشعرية الرائعة يصف مولود فرعون هذا المكان (القرية) وكأنّ به غاضب على بعض أهله الذين تركوه وهاجروا إلى فرنسا طلبا لتحسين أوضاعهم المادية، فأبدى المكان امتعاضه من هؤلاء الذين نأوا عنه، وهو لم يصدق ذلك بل رأى في تصرفهم خيانة. وفي وصف مكان آخر في القرية وهو (المنهل) يقول فيه مؤلف نفس الرواية "يوميات بلاد القبائل" مولود فرعون « إلى المنهل الصافي تتجه بناتنا للنزهة وكلهن سعادة.. ليس للبنات ثاجماعث مثل الرجال ولذلك فإن المنهل يحل محلها.. إن المنبع يشكل

(1) عبد القادر عميش، شعرية الخطاب السردي، سردية الخبر، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص6.
(2) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص ص 8-9.

جزءا من حياتنا شأنه شأن المقهى وتاجماعث والحقل.. لم تكن لتستقيم لنا الحياة بدونه»[1]. هكذا فعلت شاعرية الروائي في نقل صور هذا المكان فهو متنفس الأهالي سيما، النساء، فإليه يلذن للتعبير عن مكنوناتهن ويسافرن بأحلامهن ويتبادلن طموحاتهن. فالملاحظ أن المؤلف لم يصف المكان وصفا جغرافيا بل وصفه من الباطن. وعن مكان آخر أردف المؤلف قائلا: «ثاجمعث مكان مخصص للرجال. إنها ملك عام لا حيازة فيه لأحد.. لقد بقيت صورة ثجماعث القديمة عالقة بذهني.. كانت ساحة الشرف التي يؤثرها لمين والربوي وهما الشخصيتان الجديرتان بالأهمية لدينا...»[2]، فبهذه الرؤية يتحول المكان الموصوف لغويا إلى رمز للشرف والرجولة. سيما في هذه الآونة الحرجة من تاريخ بلادنا فلم يتعمد المؤلف كذلك إلى وصف المكان بموقعه الجغرافي، فجاء الوصف رائعا مؤثرا.

وفي رواية أخرى لنفس المؤلف وهي "ابن الفقير"، نجد كذلك وصفا رائعا لبعض الأمكنة، تعدى وصفها الوصف الجغرافي بل أحيل ذلك إلى الشعرية التي استطاعت أن تؤطر الأمكنة بلغة ساحرة جذابة ببساطتها وعفويتها.

ففي وصف مساجد القرية قال الكاتب: « من الداخل أرضيتها مُسمّتة وحيطانها مبيضة بالجير، إنه فراغ حزين من شدة البساطة »[3]. هكذا ورد وصف المكان بلغة مجازية، شاعرية بعيدة عن وصفه وصفا محدودا، حتى بدا مرتفعا للخوف والقلق بل للحزن أيضا رغم الروحانية التي تعبق في رحاب المساجد.

ومثل هذه الجمالية نجدها أيضا في رواية أخرى، وهي على "جبال الظهرة" لمحمد ساري، حيث ارتأى فيها وصف بعض الأمكنة بلغة راقية انزياحية فيها الخيال والتأويل، ممّا يجعل القارئ يتوق لملامسة هذه الأماكن التي برعت اللغة في تقريبها إليه. ومن الشواهد على ذلك، وصفه للدروب المؤدية إلى القرية «... أي طريق آثار

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 111.

(2) المصدر نفسه، ص ص 17، 20.

(3) مولود فرعون، ابن الفقير، ترجمة سيد أحمد طرابلس، دار صالح تلاتيقيت للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 16.

ودروب ضيقه، صنعتها الماعز والحيوانات البرية...، تلتف حول الجبل عدة مرات... حفظت الوكيلة الدروب الملتوية مع مرور الزمن واستأنست بها »[1]، إنه تشخيص رهيب لهذه الدروب التي أضحت محل أنس للقرويين فلقد ألفوها وألفتهم حتى غدت جزءا من حياتهم رغم قساوة جغرافيتها، إلا أنها منفذ هام لقضاء حاجاتهم والولوج إلى مختلف أمكنتهم من حقول ومراعي وأملاك...، وسنلاحظ أن هذه اللغة الشعرية لم تنحصر في وصف الأمكنة فقط بل تجاوزت إلى وصف الشخصيات وصفا أخّاذا حتى وكأنها تتراءى أمامك شاخصة أبصارها، ولعل هذا المستوى المتألق من السرد، يرجع إلى قدرة الروائيين الجزائريين بصفة عامة على توظيف اللغة توظيفا فنيا. وربما أوردنا بعض المشاهد أيضا عن وصف الشخصيات في بعض الروايات التي كانت محل الدّراسة في بحثنا باعتبارها جزءا أساسيا في شخصية المكان.

« إن تلك العجوز التي تلتقون بها مرتدية جبة دون أكمام وفوطة باهتة الألوان من شدة الغسيل هي صورة الشقاء، يداها في شكل زاويتين، واهنة العظام وتاركة أديمها يتهدب.. قد تفلق كليتيها من ثقل الحمل وقد تضمّ شفتيها لتصبحا أخدودا مستطيلا يضاف إلى الأخاديد العمودية في الوجه الشاحب من ثقل السنين »[2].

وعن الراعية في هذا المكان يقول الروائي: « الراعية تحب معزتها كثيرا... وكل الراعيات يحببن معزهن... تمرّ الأوقات بين التلكؤ والتسلية والنط ولا شيء يستعجل للعودة إنّ المعزة لا تضايقنا في المسكن كثيرا »[3]، فما أروع بساطة القرويين وهدوء بالهم وشساعة صدورهم.

وفي رواية "الحريق" لـ"محمد ديب" حيث وصف لنا المؤلف أطفال القرية قائلا: «أطفال أشبه بالجراد من شدة ما يبدون نحافا متوترين... وكانوا يقون أرجلهم بواسطة خفاف من جلد الغنم تشد بأسلاك من الحلفاء... كانوا يتميزون بجدية متعنتة، وتوازن

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص16.

(2) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 100.

(3) المصدر نفسه، ص 102.

يعتبر من خصوصيات الفلاحين »[1]، هكذا برع المؤلف وغيره في وصف هذه الشخصيات وصفا شعريا ركزوا فيه على الغوص في طموحاتهم المكبوتة ورجولتهم التي قفزوا إليها قبل الوقت، إلى جانب وعيهم الكبير بمستقبل وطنهم وتعلقهم بأرضهم. والأكيد أن الوصف التقليدي للمكان أو للشخصية لم يعد حاضرا في هذه الأعمال الروائية ممّا أحال الرتابة والملل جانبا لدى القرّاء بصفة عامة، أو هكذا نحسبهم على الأقل في نظرنا. وبهذه اللغة الجميلة العفوية والتلقائية والبسيطة تتقلص بؤر الرفض لمكان ما أو لشخصية معينة، ولا بأس إن عاد القارئ إلى طفولته وإن ذكّرته بمآسيه وظروفها وبقساوة المكان وضنك العيش. إن اللغة في يد الروائي بمثابة الألوان في يد الرسّام، يبدع بها ما شاء ويلهب مشاعر الآخر كيفما أراد، فهي الأقدر على جعل المكان فضاء جميلا يحلو لنا الرجوع إليه، وقد مللنا من تمجيده جغرافيا.

ولا شك أنّ الشعرية أو الجمالية تقتضي انتخاب الألفاظ الجذابة، المؤثرة، الوظيفية أيضا « وفي قراءتنا هذه لابد أن نقرأ الصمت الذي تتفجر به الكلمات »[2] وللقارئ دور في تأطير هذه الجمالية، فيكون طرفا فعالا في إحياء النص، برغبته في القراءة وتركيزه وانفعاله أيضا، « إنها قراءة تلغي القراءة الأحادية التي نادى بها الخطاب النقدي التقليدي، هكذا تتأسس شعرية القراءة عند أدونيس لتؤسس لنص شعري جديد ذي طبيعة حداثية، وما النص الشعري إلا طاقة ابتكار حر بلا نهاية »[3]، ثم لابد أن يتقبل القارئ ظاهرة الغموض التي تكتنف بعض المقاطع، فذلك أداة فنية يلجأ إليها الكاتب لاستفزاز الطرف الآخر ودفعه لممارسة فعل القراءة وليس القراءة فحسب.

« ولعلّ الغموض من أخص خصائص الحداثة الشعرية وليس الغموض بمستغرب مادامت الرؤية الشعرية غريبة وموغلة وراء معطيات الإدراك »[4]، إن عملية

(1) محمد ديب، الحريق: تر: أحمد بن محمد بكلي، دار سيديا، الجزائر، مطبعة الفنون الجميلة، 2012، ص 12.

(2) بشير تاوريرث، آليات الشعرية الحداثية عند أدونيس دراسة في المنطلقات والأصول والمفاهيم، ط1، عالم الكتب، مصر، 2009، ص 18.

(3) المرجع نفسه، ص 33.

(4) الطاهر بن حسين بومزبر، أصول الشعر العربية، نظرية، حازم القرطاجني في تأصيل الخطاب الشعري، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص 201.

التلقي تتطلب جهدا لدى المتلقي، حتى صارت اليوم موضوعا هاما، بحث فيه كثير من النقاد والألسنين والبلاغيين.

« وقد تطورت هذه الفكرة (التلقي) في الوقت الراهن حتى صارت نظرية لها أسسها »[1]، فعليه يبقى القارئ أو المتلقي بالمصطلح الحداثي طرفا فعالا في مؤثثات النص، « إذا كان المتلقي جزءا من الخطاب فالرسالة خطاب من كاتب إلى قارئ »[2] فهكذا تبدو الجمالية مضمونا وأسلوبا ولغة على الأخص، وفي درجة الشعرية « تشكل شبكة مكونة من مجموعة تحالفات تربط درجة الإيقاع بدرجة النحوية والانحراف كما تصل مستوى الكثافة في النص بدرجة تشتته وتماسكه، بحيث تكون ذلك جهاز مفاهيمي»[3]. من هنا نستنتج أيضا، أنّ القراءة عمل جاد وليس سياحة نصية، فالقارئ يتحمل مسؤولية الفهم والتأويل والتحليل وتفعيل مضامين المقروء، كلّ وطاقته وطموحه وغاياته.

(1) حسن حنفي، من النص إلى الواقع محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، ج1، تكوين النص، دار المدارس الإسلامية، لبنان، 2005، ص 13.

(2) المرجع نفسه، ص 13.

(3) صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر مصر، 1998، ص 9.

الفصل الأوّل

القرية وأبعادها في الرواية الجزائرية

قبل الاستقلال

الفصل الأول

القرية وأبعادها في الرواية الجزائرية قبل الاستقلال

الأنموذج الأول: القرية في رواية «الأرض والدم» لمولود فرعون.

الأنموذج الثاني: القرية في رواية «ابن الفقير» لمولود فرعون.

الأنموذج الثالث: القرية في رواية «يوميات بلاد القبائل» لمولود فرعون.

الأنموذج الرابع: القرية في رواية «الحريق» لمحمد ديب.

الأنموذج الأول: القرية في رواية «الأرض والدم» لـ "مولود فرعون"

ألفيت وأنا بصدد البحث عن تواجد القرية في مختلف الأعمال الروائية الجزائرية أن هذه الرواية: «الأرض والدم»، لمؤلفها "مولود فرعون" قد تناولت هذا المكان ألا وهو– القرية– بكثافة، إذ يكفي أن هناك الأرض ممّا يستدعي حضور القرية آليا. ولا شكّ أن كل أرض تحتضن أمكنة لا محالة، وتكون القرية هاهنا أكثر حظا في الحديث عنها وعن أهلها وعن سائر الحياة فيها. ولا بأس إن وجدنا الروائي "مولود فرعون" يتموج في توظيف المصطلح عن المكان، فمن الدشرة حينا إلى زاوية صغيرة حينا آخر وغير ذلك. ورغم ذلك فإنه من الأكيد أن القرية أو القرى ومهما تعددت تسمياتها واختلفت الرؤى نحوها فإنها انطلاقا من هذه الرواية، تتموقع في بلاد القبائل على قمم الجبال وتارة في سفوحها وبين الهضبات والوديان، تتراءى للزائر وكأنها نجوم ترصع السماء في عز الليل خاصة وقد قال عنها المطرب الشهير "أيت منقلات": «ثمورثيو ذِزورار أفذورار اشُدَّنْ بْلاَ إمُورار سِقنوان...» أي قرى بلادي كأنها عقود على صدر الجبال ارتبطت بلا حبال إلى السماء. (المقطع من إحدى روائعه الفنية).

فهذه القرى يتجلى جمالها في تواضعها وبساطتها، ولا يهمّ افتقارها إلى المرافق العمومية أو الإمكانات المادية. « إنها قرية بها مدرسة صغيرة وعدد من المنازل بطابق واحد... أكيد أننا نتخيلها جاثمة فوق هضبة كالطاقية البيضاء وتحدوها دائرة من الخضرة تتلوى الطريق على مضض قبل أن تصل إليها، تنطلق هذه الطريق من المدينة وتقتضي ساعتين كاملتين من الزمن لقطعها إن كانت السيارة متينة »[1] فالقرية تبعا لما ذكر لا تعدو أن تكون تجمعا صغيرا، يضم منازل قليلة، بطابعها العمراني المميز تنأى عن المدينة بمسافات طويلة عمومًا. وفي أحسن الأحوال تتواجد بها شبه مدرسة، والمسجد أيضا وهذا المرفق الأخير لا جدال فيه عند أهالي المنطقة خصوصا، فيظل تشبثهم بالدين واحترام مبادئه، سلوكا مقدسا قبل أن يكون ظاهرة فطرية تأصلت في النفوس منذ الأزل. « ومسجد أبيض اللون يلوح من بعيد »[2]، ففي

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 3.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

هذه القرية أو في غيرها مساجد على تواضعها، يحرص القرويون على إقامتها بإمكانياتهم المحدودة أو المنعدمة أحيانا، وهذه المعالم إنما تعبير صادق عن ترسيخ البعد الديني والروحي لساكنة القرى، ولقد كان هذا الرباط الروحي عاملا من عوامل الحفاظ على الهوية الوطنية للشعب الجزائري في مسيرته النضالية وفي مختلف المراحل التاريخية، سيما أثناء الثورة التحريرية المظفرة، حيث كان هذا التشبث بالدين الإسلامي سلاحا في نفوس الجزائريين الذين أصروا على تعميق الجوانب الروحية في كل شبر من التراب الوطني بين مختلف الشرائح الاجتماعية، فعلى عفوية الأهالي وبساطتهم وسذاجتهم كان لهم كثير من الإخلاص والوفاء لتقاليدهم وعاداتهم، كما كان الحرص على التمسك بدينهم أقوى من كل رباط، يستحيل التهاون فيه على الإطلاق وهذا ما كان يثير حفيظة المستعمر ويزيد من حيرتهم، فمن ثمّة تكبر رغبتهم في الانتقام والثأر لاحقا حيث تتوفر بعض الإمكانات وتشحن النفوس أكثر.

إنّ هذه الحياة المعيشية البسيطة التي طبعت سكان القرية لم تكن إلا لتستهوي قلوب بعض الأوروبيين أيضا، فكانت القرية مهوى أفئدتهم فأسرت كثيرا من الفرنسيين والفرنسيات، بل أغرتهم على الإقامة بين أحضانها فرارا من جحيم المدنية. « كيف نتصور أن فرنسية من باريس يمكنها أن تعيش حبيسة قرية إغيل نزمان »[1]، مع العلم أن هذا المكان كان على امتداد الزمن، صعب الولوج إليه أو الإقامة فيه، فالدروب إليه وعرة متوحشة، سيما عند الذين لم يألفوها، فقد يهلك الإنسان بين جنباتها دون أن يصل إلى غايته، فهذه المسالك تتلوى بين الصعود والانحدار، محاطة بالنباتات الشوكية والأحراش وأغصان الأشجار، حتى أنها تختفي أحيانا ولا يظهر لها أثر من كثرة الأعشاب، فعلى المار أن يغير المسلك كلّ مرة رغم أنه في الدرب ولا حيلة له في ذلك إلا النط والقفز ليعود من جديد إلى الدرب المرسوم والذي سرعان ما يكشف عن نفسه قبل أن يختفي مرة أخرى بين الأشواك والشجيرات والأحجار والأتربة. ثم إن الطبيعة الجغرافية خشنة بين الانكسار والانحدار والارتفاع، ورغم ذلك كلّه، لم يخلُ المكان من أهله، فلجأ إليه الناس الذين أخذوا تسمية «القرويّون» فأقاموا فيه عن حتمية قاهرة

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 3.

واضطرار، لكن عن قناعة وحبّ أيضا، إذ نسجوا في أطرافه وثناياه أروع القصص والحكايا وعاشوا زمنا ممتعا ينبض بالحيوية والنشاط لكنه محفوف بقساوة لا توصف ومشقة يصعب على اللسان ذكرها، كما يصعب على الذاكرة استرجاعها فهي من الماضي القاتم.

« ينبغي أن نعترف من الآن بأن القرية بشعة جدا »[1]، غير أن القرويين ألفوا هذه الدروب والمسالك وتأقلموا معها تماما، وربما استلذوا منعرجاتها وانكساراتها، فما وجدوا في ذلك حرجا، فالقرية كلها تقريبا عبارة عن ممرات ومعابر ومسالك تؤدي إلى حارات البيوت أو الحقول أو غيرها، الأمر الذي أدّى إلى أسباب الشحناء والبغضاء في كثير من الأحيان، فكأن لكل عائلة دروبها ولا يمكن لعائلة أخرى استخدامها أو الانتفاع منها، فقد تحصل كثير من التجاوزات فمن ثمة الخصام وإن أعقبته أجواء الصلح لاحقا.

وفي هذه الرواية يستوقفنا الكاتب عند الأهمية القصوى التي تكتسيها هذه الدروب في القرى القبائلية وفي هذه الجبال، وكيف يحرص الأهالي على رسمها وتعيينها فمداخلها ومخارجها لابدّ أن يأخذوها في الحسبان، فيكفي القول أن هناك من الدروب ما تؤدي إلى الديار فقط أو إلى الحقول أو إلى المراعي، وهناك بالمقابل دروب عامة يتقاسمها القرويون في غدوهم ورواحهم بحكم خصوصياتها، كأن تؤدي إلى مرافق مشتركة كالمسجد والمدرسة والمرفق الصحي إن وُجد أو المقبرة، لكنها في العموم سواء كانت خاصة أو عامة فهي ممرات مهترئة ضيقة المسلك، لكنها وظيفية، ثم إنّ البدوي في قرارة نفسه لا يحب الدروب الواضحة، ففي المشقة تظهر رجولته وشجاعته وصبره وتحديه، وعلى ذلك النهج سار أجداده وآباؤه، فكيف له أن يحيد عن ذلك؟ أو يغير المسالك التي سلكها الأولون، « تتسم منطقة القبائل بين قراها ومداشرها وحقولها بصعوبة مسالكها وإلتوائها، هذا إضافة إلى كونها تتصاعد كالسلالم التي تعلو كل منها

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 3.

الأخرى، فتتعالى وكأنها لا متناهية »[1]. هذا وجه من أوجه المشقة التي تلازم السكان في هذه الممرات « نسير أول الأمر عبر نهج مرصوص بالحجارة... إمّا وسط الغبار أو وسط الأوحال، نصعد ونصعد ونتعرّج بجنون فوق الأخاديد والهُوّات...، بعد أن نتجاوز المنعرجات الخطيرة والجسور الضيقة نكون قد وصلنا »[2]، ففي هذه المشقة يستلذ القروي هاته الدروب فهكذا تعوّد وألِف وما وجد في ذلك حرجا، وما اعتبر ذلك عائقا في حياته اليومية. وأنت تقرأ الرواية يستوقفك منظر هذه المسالك، فهي إحدى شواهد الشقاء صيفا وشتاء، أوحال تمنعك من السير وغبار يتطاير من تحت أقدام الماشية وهي تعبر ذاهبة آيبة من وإلى المراعي والحقول. والقرويّ زائرا أو مقيما لا يكاد يصدق أن رجليه وصلتا إلى القرية وقد أنهكه الصعود تارة والهبوط تارة أخرى وربما يتوقف في منتصف الدرب أحيانا ليستعيد أنفاسه وعلى ظهره أو في يديه أثقال وأحمال، وهو عائد من المدينة القريبة من قريته، أو شبه المدينة متسوقا، أو زائرا للطبيب، أو لقضاء حوائجه الأخرى، والتي يتعذر تلبيتها في قريته هذه القرية التي يظل أفقها الحضاري منعدما تماما.

« هكذا يكون الدخول حدثا صاخبا ونصرا باهرا إلى قرية إغيل نزمان »[3]. من خلال هذا الشاهد يتراءى للقارئ أنّ الوصول إلى مثل هذه القرية يمثل حدثا كبيرا في حدّ ذاته حتى سمّاه الكاتب أو اعتبره نصرا، ممّا ينبئ بصعوبة المكان وقساوة التضاريس، وكذا مشقة العبور في تلك الدروب والمسالك الملتوية بين الأشجار المختلفة والأحراش والنباتات والأحجار والحقول ولا يُسمع فيها إلا لأصوات الحيوانات والحشرات تملأ الآفاق، وهي بدورها ربما منحت الطبيعة ولسكان حيوية المكان ونبض الحياة رغم ما يرافقه من توجس وخوف وقلق وانغلاق للأفق.

(1) نسيمة العداوي، "الدروب الصاعدة"، مجلة معارف، العدد 15، السنة 8، جامعة البويرة، 2014، ص ص 31، 37.

(2) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص ص 3-4.

(3) المصدر نفسه، ص 4.

ورغم ذلك فللقرية سحرها أيضا، وأسرار تتجاذبها الوحشة وجمال المناظر، وهذه الثنائيات أدركها سكانها، ونالت أيضا من إعجاب الفرنسيين الذين حاولوا في هذه الفترة محو وقهر المكان وإذلال أهله رغبة في الاستحواذ عليه، وفي هذا السياق يستوقفنا صاحب هذه الرواية عند إعجاب إحدى الفتيات الفرنسيات وهي تنزل زائرة إلى هذه القرية. « نزلت الباريسية في ظهيرة يوم ربيعي جاعلة كل القرية في هرج ومرج... فتوقظ فضول الناس وتحرك خمود القرية، أما الأطفال فأول ما قاموا به هو الهرولة نحو التاكسي الغريب والإحاطة به »[1]، ولا شكّ أن هذه الزائرة قد أعجبها المكان وأهله أيضا، فما كان لها إلا الإحساس بالنشوة في هذا الديكور الطبيعي الذي تفننت قدرة الله في صنعه، كل شيء فيه يسحر الألباب، ولا ترى إلا السكان متناثرين في ربوعه بمعية مواشيهم ودوابهم ولوازم عملهم التقليدية، يتبادلون التحايا بينهم والنداءات أيضا، فتظل أصواتهم تملأ هذه الرحاب وتؤشر على الجمال أيضا، هذا الجمال الذي أبهر هذه الفرنسية الزائرة فراحت تبادل أطفال القرية الابتسامات العريضة، وهم يهللون لها في براءة وسذاجة، لكن لو عرف هؤلاء أن هذه المرأة تنحدر من بلد الظلم والطغيان آنذاك لكان ردّ فعلهم مغايرا تجاهها ولاشك في ذلك، فحتّى الصغار هنا يدركون معنى الشرف ومعنى الانتماء وقيمة المكان ولو إدراكا طفوليا، إنها إرهاصات الوعي عند هؤلاء، ستكبر يوما لا محالة، سيرا على خطوات أجدادهم وآبائهم، فنسمات حب الانتماء تسري في عروقهم.

لقد انبهرت هذه الزوجة الفرنسية وهي تدخل القرية أول مرة من هذه التضاريس الوعرة وعلى جنباتها أكواخ وأحجار وأخشاب وفضلات البهائم، وبالمقابل أبهرتها أيضا عادات وتقاليد هؤلاء السكان والتي تبقى مفخرة القرية ورسالة إنسانية رائعة كلها حب وإخاء وتعاون. فحتى طريقة تقبيل النساء للرجال لها جمالها وسرها في كنف التقدير والاحترام، وفي كثير من العفوية أيضا، إذ غالبا ما يحني الرجل رأسه أمام المرأة لتقبيله أو يجتمع تقبيل اليد والرأس في تناوب وتناغم من طرف المُقبِّل والمُقَبّل. « ولا يمنحن لعامر إلا قبلات اليد المعهود في تصنّع وتحفّظ ظاهرين تخطى الرجل عتبة

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 4.

منزله البائس ووضع حقيبة كبيرة على حافة السندرة... الجميع سيأتي للسلام عليه هكذا هي التقاليد »[1]، والكاتب في هذا المقطع في صدد سرد قصة "عامر" أحد أبطال هذه الرواية، وهو عائد من فرنسا لقضاء بعض عطلته في قريته مع أهله وذويه مرفوقا بزوجته الفرنسية الأصل، والتي تزوج بها وهو في ديار الغربة، وقد دخل بها القرية خجولا من أمره، لأنه أدرى بعادات وتقاليد وطقوس أهله وسكان القرية جميعا لكنه أبى أن يُظهر ذلك لزوجته مخافة إحراجها، أو الإساءة إليها، هكذا ورغم عزة المكان وكبرياء نفوس سكّانه، فإنه لا يزال وفيّا لكل أبنائه بما فيهم المغتربون عنه فمهما ظلوا أو تاهت بهم السبل أو أغراهم الزمن، فإن القرية تبدي لهم التسامح والعفو فتتجاوز زلاتهم فتفتح لهم صدرها، إنها العلاقة الأزلية بين الإنسان والمكان « حينما يعود القبائلي إلى جبله بعد غياب طويل يبدو له الوقت الذي قضاه بعيدا عنه كالحلم حلم قد يكون ممتعا أو قبيحا ولكن الحقيقة لا يعثر عليها إلا في بيته وداخل قريته»[2]. فهكذا يسمو المكان على زلات الإنسان خاصة ذويه وأهله، ويعفو عن أخطائهم.

إنّ كل شيء في هذه القرية وإلى أبعد حدّ ممكن يثير الفضول، لاسيما لأبنائه العائدين من ديار الغربة، ففي لحظات الانبهار تبدو لهم أشياء القرية جميلة أخّاذة بعدما كانوا ينظرون إليها بازدراء وبعض الرفض، فحتى الحيوانات الأليفة التي تحوم بين جنبات المنازل وتتقاسم مع الأهالي هذه الفضاءات الزمانية والمكانية، تثير أيضا اهتمام العائلات، وتشكل بدورها لوحات جمالية بأشكالها المختلفة وأصواتها ومشيها وفي طريقة أكلها أو نومها، أو في لحظات مداعبتها وإن أبدت بعض العنف أحيانا لكنه عنف لطيف، تتقاسمه فيما بينها غريزيا. ولقد تعود القرويون رؤية تلك السلوكات فنالت إعجابهم بل أضحوا يترصدونها بحثا عن المتعة والمزاح وفي مرات عديدة يستفزونها من أجل ذلك « وبحركة آلية داعب الحيوان الجميل بيده الكثة النظيفة وفكر مباشرة في الخدمات التي يمكن أن تقدمها لهم: الحليب، الجدي، السماد للحديقة

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 7.

(2) المصدر نفسه، ص 9.

مازالت أمي تستطيع أن تعتني بعنزة لم ينقصها الحليب أبدا »[1]، هكذا أبدى أحد أبطال الرواية ألا وهو "عامر" اعترافه وحبه لهذه البهائم التي نالت من إعجابه فسحرته، واستلطف الجلوس بجوارها خارج البيت أو في داخله. إن لهذه المواشي سرّا كبيرا، ظلّ يربطها بأهلها من القرويين، فبفضلها استمسك هؤلاء بأراضيهم وبفضلها أيضا أصرّوا على معانقة هذه المرتفعات الجبلية، وبفضل عدد منها قهروا المكان وبها ومنها كان الرزق وكان قضاء الحوائج وكان تطويع الأرض، فبفضل هذا التناغم الحاصل بينهم وبينها استطاع الأهالي أن يخففوا من قساوة المكان فما كان عليهم إلا الرضا بقدرهم، فتشبثوا بهذه المرتفعات والسفوح والمنعرجات والتلال والهضبات والوديان بمعية مواشيهم ودوابهم وأشيائهم. وفي ثنايا هذه الرواية يعرج الكاتب إلى بعض من مكونات القرية في هذه الجبال. « تتكون القرية من مجموعة منازل، والمنازل تتشكل من ركام أحجار وتراب وخشب، لا نكاد نصدّق أن يكون الرجل البنّاء قد تدخل فعلا في تشييدها، كما لا يمكن أن تكون أيضا قد انبثقت بمفردها كالمعجزة من تحت هذه الأرض القاحلة تماما مثلما هي معروضة لسكانها »[2]، فكأن بالكاتب يقول إن الطبيعة هاهنا هي الصانعة لكل شيء أو على الأقل تغري الإنسان إلى الفن والإبداع على صدر صفحاتها وأديم أرضها، فأقام بيوتا رائعة تصمد لويلات الزمن بإمكانات بسيطة جدّا رغم تواضعها وبساطة مكوناتها وأثاثها « تتصف مساكن الفقراء والمهمشين بوضاعة الأثاث وبساطته وقدمه »[3]، لكن هذا لا يشكل حرجا لهؤلاء ولا يثبط من عزائمهم ولا يقلق حياتهم.

إنّ مسكن القروي لوحده يؤصل لهوية الفرد والجماعة، فبناؤه وعلى تواضعه يجب أن يتمم بإتقان وجدّ، حتى يصمد ذلك البناء لويلات الطبيعة في هذه المرتفعات المفتوحة على الطبيعة ففي الشتاء تكون منازل القرويين مكسوة ومغطاة بالثلوج شهورا لذلك يعمد أصحابها إلى تسقيفها بمادة القرمود والذي بدوره يسمح بانزلاق الثلج، فلا

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 8.

(2) المصدر نفسه، ص 9.

(3) شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، الخطاب الأدبي الجديد في الجزائر وهم الواقع وعنف المتخيل، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2013، ص 60.

يتراكم الماء على السقوف مخافة أن تحدث الشقوق ويتسرّب الماء إلى حجرات الدار ممّا يؤدي إلى إحداث الصدع أو هدم أجزائه أحيانا، واحتياطا لهذا كله، يسهر صاحب البيت على مراجعة وتفقد حال سقوف المنازل من حين لآخر، إما ترقيعا أو ترميما أو تجديدا، فالطبيعة قاسية والبناءات الهشة قد يطالها السقوط بين الفينة والأخرى. ومعلوم أن الرجل القرويّ بل وحتى المرأة القروية دائما يحتاطان ويحذران من هذه التوقعات غير المرغوبة، فالقروي دائما عينه مصوّبة نحو الحصول على الرزق وعين أخرى على وضعية مأواه وحتى مأوى حيواناته، فلا يغمض له جفن حتى يتأكد من سلامة البيت وسلامة مرابض الدواب.

ولاشكّ أنّ المرأة في هذه المرتفعات والسفوح الجبلية تظلّ دوما تتصرف كالرجل تماما في الأمور الجادة، فهي دائما على الأهبة والاستعداد لأي طارئ، فالأنوثة لن تكون عائقا لردع قساوة الطبيعة وانتزاع لقمة العيش، فهي جنبا إلى جنب الرجل في تحدّ كبير، وقناعة لا توصف غير أن لكل واحد حدوده وضوابطه، ولو أن للرجل القروي صفة الاعتداد بالنفس، والتباهي برجولته، لكن يظل الرجل والمرأة كلاهما يسهر على مراجعة شيئيات المكان، حين يطالها الكسر أو التلف ممّا يمنح للمرافق وللأشياء وللمكوّنات عمرا آخر، فلا مجال للتسيب أو اللامبالاة، أو التردد أو التأجيل، فعلى أنقاض البيوت القديمة مثلا تقام بناءات أخرى بهندسة أفضل متانة، مع الحفاظ على هوية القرى بالإبقاء على خصوصيات البيت القديم أو محاولة بعثها وتجسيدها في البيت الجديد ولو نسبيا. بهذه الصورة تجد القروي على الدوام في سعي متواصل خارج البيت أو في داخله أو في جوانبه وحوافه، ملاحظا، مستكشفا، متتبعا، ناقدا ومصلحا وربما استلذ هذا الحراك والنشاط المتواصلين شأنه شأن غالبية السكان. إنّ ذلك ديدنهم كما أنه سلوك معتاد في يومياتهم، فلا تطمئن نفوسهم حتى يتأكدوا من سلامة بناءاتهم ومخابئ مواشيهم أيضا، بما في ذلك مستودعات أشيائهم مثل «**أعشيو**» وهو مكان يوضع فيه أكل الدواب ولوازم القروي والحطب أيضا قد يجاور البيت أو يبعد عنه بقليل، يكون سقفه من صفائح حيدية مهترئة ولا حرج في ذلك.

« إن أقدم بيوت إغيل نزمان التي يظهر أنها تحمل ثقل القرون بقرميدها المسوّد وأوصالها الملاطية المفككة وسقوفها القرميدية المعوجة التي توشك على الانهيار، لم تأو في أغلبها إلّا الجدّ ومع ذلك يستلزم إعادة بنائها، إن العائلات التي يطرح عليها مشكل إعادة البناء يصبح لها هدفا محددا في الحياة، وبما أنّ كل عائلة مضطرة إلى إعادة البناء فإن مظهر القرية يستمر في التغير شيئا فشيئا »[1]، لذلك تبدو القرية على طوال العام ورشة مفتوحة، ثم إنّ توسعة المنازل صارت مطلبا اجتماعيا، ليس خوفا من الطبيعة فحسب، بل لتزايد تعداد الأسرة أيضا وامتدادها وتفرّع عدد من أفرادها أضف إلى ذلك رغبة ربّ الأسرة في امتلاكه لبيت خاص له أو لأحد أبنائه المتزوّجين بالخصوص، تفاديا للخصومات والصدامات اليومية بين أفراد الأسرة، وكأنّ الشعور بالاستقلالية كاد أن يكون غاية اجتماعية ورؤية استشرافية أملتها ظروف الأسرة وحفاظا على اللحمة العائلية أيضا، ورغم هذه الاستقلالية التي ينشدها بعضهم ولو في قرارة أنفسهم فإن التآلف والتآزر والتلاحم ظلت دائما من صفات هذه الأسر القروية وإن تباعد بعض أفرادها جغرافيا أو مهنيا.

وكثيرا ما يتباهى القرويون بمنازلهم، فيتحول ذلك إلى حديث الناس في «**ثاجماعت**» فكل واحد يستعرض ما قام به من تحسين أو ترميم أو تجديد في داره فبين التنافس والتباهي والفضول والمزاح يحلو حديث الكبار، وربّما استمتع الصغار أيضا بذلك الحديث، حتى وكأن هؤلاء المتحدثين يبدون مختصين في علم العمران، فلا تسمع وقد استهواك حديثهم إلا رأيا ورأيا معاكسا في طرائق البناء أو في المواد المستعملة، وفي المكان المختار والزمن المستغرق والأشخاص الذين مدّوا يد العون أو ساهموا في العون المادي أو المعنوي، وفي هذا الحديث الشيق، توجه دعوات الشكر والامتنان والعرفان للأشخاص الذين شاركوا في ما يصطلح عليه بـ «تويزي» أي التويزة، وهي تشبه أو تماثل العمل الطوعي للسكان فيما بينهم، سيما في إنجاز المهام الكبرى، كتسقيف البيوت أو وضع الحجر الأساس لمشروع بناء أو شق طريق وغير ذلك، ففي هكذا إنجازات يتم الاستعانة بيد عاملة كثيرة، وهو سلوك دأب عليه القرويون

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 10.

منذ الأزل، ففي «**ثاجماعت**»، يستذكر الحاضرون تلك اللحظات بإيجابياتها وهفواتها فيمتزج الجدّ والمزاح، فحتى الساكت عن الكلام في «**ثاجماعت**» يحسّ به المتكلّمون وكأن لسكوته معنى أو رسالة أو فكرة وصلت للجميع أو كادت أن تصل، مقتنعا أن هذه اللقاءات تصلح للكلام الكثير أيضا، بما فيه المزاح والطرافة والعناد بين الحاضرين، ليفترق الجميع على آذان صلاة العشاء والتوجّه نحو المسجد أو ما يشبهه كقاعة متواضعة هيّئت لهذا الغرض بإمكانات بسيطة، فيؤدي المصلون منهم الصلاة عن غريزة وفطرة وقلوب عامرة بالإيمان، حتى وإن لم يحسن بعضهم حتى قراءة سورة الفاتحة كاملة، وهم يقولون مزاحا: إن الله غفور رحيم، ونفس الشيء يحدث عند العجائز في أحضان البيوت، حيث يصلين عن نية خالصة، فأغلبهنّ لا يستطيع قراءة سورة أو حتى آية قراءة صحيحة، علما أنّ الأمية ضربت أطنابها في هذه الفترة من تاريخ الجزائر، مست مختلف الشرائح الاجتماعية سيما النساء.

ويشير مؤلف هذه الرواية إلى أن القرويين وبعد استكمال صلاة العشاء يعود كل واحد منهم إلى داره ليجتمع مع أفراد أسرته على صحن كبير من الطين مملوء بالكسكسي، فهو الطبق المفضّل والأكثر حضورا في القرى الجبلية، طبق مشحون كذلك بالأصالة والتاريخ، يزيد للساكنة الفخر والعزة بالمكان. « ومثل هذا التصوّر كان يبعد عن الإنسان القبائلي حالة القلق والخوف من شرّ وبطش أخيه الإنسان »[1]. وقد طُهي على نار حطب، فاللحظة ممتعة، مؤنسة فيها راحة البال والضمير، حتى قيل أن الأمراض في هذه القرى نادرا ما تفتك بالأهالي، إذ أن الطبيعة القروية بالمرصاد وهي كفيلة بعلاج الأوجاع والآلام وقد استأنس بها السكان منذ غابر الأزمان، فهي الأنيس والرفيق والطبيب، إضافة إلى كونها مصدر الرزق.

إنّ المحطات الممتعة التي تخفيها هذه الأرض الطيبة في القرى كثيرة، ولا ندّعي أننا أوفينا المكان حقّه، فما ذكرناه قد لا يسعه القلم وما لم نذكره عجز عنه القلم أصلا. وهذه الخفايا والأسرار كانت على الدوام باعثا لتعلق القرويين بقراهم، فللقرية

(1) نصيرة ريلي، "أنطولوجيا الأمثال الشعبية القبائلية"، مجلة معارف، العدد 15، كلية الآداب واللغات، جامعة أكلي محند أولحاج- البويرة، 2014، ص 202.

خصوصياتها، فهي الأرض وما الأرض إلا هذه القرية، وما القرية إلا الشعور بالانتماء، ومن ثمة تكون القرية ليست فضاء للعيش فحسب، بل للإبداع أيضا ولبعض الهوس والجنون والرومانسية، فتتشظى الجماليات بكل تداعياتها وحينها يتحرر الخيال من ربقة الواقع حين يعانق الإنسان القروي أرضه عن حب وصدق وتشبث بكل ما فيها.

« في وقت ليس بالبعيد كنت سأبيع قطعة من قلبي، ولا يُمسّ شبر من أرضي لا تذكري تمازيغت بالشر »[1]. بهذا التعلق والوفاء، تسمو قيمة الأرض على هامات الرجال، إذ يعتبرونها أيضا مظهرا من مظاهر رجولتهم، وخدمتها أمانة وواجب والتنازل عن بعض الأرض ليس إلا مظهرا يوحي بهشاشة الأسرة اجتماعيا ودينيا ومظهرا أيضا من مظاهر التفكك العائلي، وحينذاك تحدث إساءة إلى المكان والتراث وإلى أمانة الأجداد خاصة وفي مقدمتها الأرض أو تلك البقع الجميلة التي تحويها مثل "تمازيغت".

« ومع هذا ها هي «**تمازيغت**» المفضلة لدينا تفلت من بين أيدينا، بؤبؤ عيني إنها القطعة التي اعتنينا بها أكثر من غيرها ويشتهيها الجميع، ألم نكن نحبها أكثر من غيرها »[2]، بهكذا إحساس يتحسر ويتأسف أحدهم حينما يهمّ ببيع قطعة من أرضه ويكبر هذا الجرح عند المغتربين، فحين يتذكرون مثل هذا التصرف تنزف قلوبهم دما لأن كل شيء في القرية يذكّرهم بطفولتهم وشبابهم، من أزقة ودروب وتضاريس وحقول وأكواخ، ففيها كان الرعي والحرث والحصاد والدّرس، وكان البرد والحرّ وكان أيضا الحبّ والكره والحسد والغيرة، وكلها أو بعضها في عداد المسكوت عنه. « والقبائلي في قريته رجل واقعي بالضرورة أضحى يحب ويكره، يقلّد ويغار، يؤمن ويتصرف حسب توجيهات محددة خاصة بعائلته وقروبته، ويعرف هذه التوجيهات بالحدس كأنها تواصلت إليه بالوراثة وذلك بسبب تجذرها في أعماق ذاته »[3]، فمن خلال هذه السلوكات والمواقف ولحظات الحنين، تكبر العواطف تجاه بعضهم البعض سيما في

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 21.

(2) المصدر نفسه، ص 20.

(3) المصدر نفسه، ص ص 14-15.

ساعات الخطوب والمحن والأرزاء وفي هذه الآونة تتراجع الضغائن والأحقاد فاسحة المجال للمحبة والأخوة ولو إلى حين، ثم إنّ القرية في مكوناتها أصلا، ما هي إلا عائلات تشابكت علاقاتها حتى وكأنها شجرة جذورها واحدة وأغصانها متعددة. فبهذه الصورة الخيالية الرائعة استنطق الروائي "مولود فرعون" حضور القرية في نفوس أهلها فهي تتجاوز مكان السكن لتصبح أيضا مدرسة الحياة، يتعلم السكان فيها دروسا في الصبر والتحدي والمؤازرة وتحمل أصناف المشاق والأذى وغالبا ما تواجهه هذه الصعوبات الحياتية في مسلك تفاهمي يتبادل فيه الأهالي الأفكار والمشاعر والرؤى والنظرات الاستشرافية المشتركة، بعيدا عن الكره والحسد أو الغيرة وما شابه ذلك.

ومن جانب آخر يبيّن لنا الكاتب أن القرية أيضا ليست بقعة منعزلة بل تظل دائما في أمس الحاجة إلى المدينة، إذ أن لكل قرية أو مجموعة من القرى حلقة تواصل مع مدينة ما، وغالبا ما تكون هذه المدينة مقرّا للبلدية، وتبعد عن القرى المتجاورة بمسافات متباينة، ومن هذه الحواضر المهيأة نسبيا يقتني القرويون بعض حاجياتهم المادية والتي يُنظر إليها كمواد شبه كمالية، ومنها أيضا يقضون حاجاتهم ثم لهم فيها مآرب أخرى، غير أنّ المتفق عليه فإنّ الحاجات البسيطة قد تكفلت بها القرية أصلا وتبقى المدينة أو بالأحرى سوقها الذي يجلب القرويّ منه ما تعجز القرية عن توفيره كخبز المدينة والقهوة والسكر والصابون وما ماثل ذلك، وكذا بعض المشتهيات التي تغري النساء قبل الأطفال، فالكلّ ينتظر تسوق الرجال بشغف وعليه تظل الأسرة في القرية وهي تنتظر سوق المدينة الأسبوعي بكثير من الشوق والفضول، سيما الأطفال فمن هذا السوق يُجلب كل شيء من حلويات وألبسة ومأكولات ذات لمسة حضارية وغير ذلك، وهذه قناعة راسخة عند الساكنة، ويقينا سيكون هذا اليوم بالنسبة لنساء القرية فرصة سانحة لهنّ للخروج والتنقل، لكن ليس إلى الحقول والمراعي هذه المرة إنما للتزاور فيما بينهن واللقاءات الحميمية لهنّ، وهي فرص عزيزة في قاموس المرأة القروية تظل تترصّدها على مدار الأسبوع، في ظل التواجد اليومي للرجل القروي في بيته، في أرضه، في قريته، إذ يعرف عنه أنّه قلّما يغادرها إلا للضرورة القصوى حتى لا يقال عنه أنه مهمل، مُقصّر، في خدمة شؤونه وشؤون أسرته، فالقرويون شديدو

التعلق بقراهم، بأهاليهم وأقاربهم وحتى بجيرانهم ومعارفهم الساكنين في القرى المجاورة لهم، ثمّ يعزّ عليهم كذلك ترك مواشيهم رابضة في مخابئها دون إخراجها إلى المراعي والحقول، فذلك يحزّ في نفوسهم بل يعتبرون ذلك تفريطا في حق هذا الأنيس الرفيق الأليف، والذي تعوَّد أن يسرح في الحقول والمراعي وفي الطبيعة الرحبة ويتحرر من قيود المرابض والمستودعات والتي لا يألفها إلا ليلا أو في بعض أيام الشتاء المثلجة.

وعن فرصة تسوق الرّجال ونزولهم إلى المدينة يقول الكاتب مترجما هذه السانحة بالنسبة للمرأة التي لم تكن لحظات غياب الزوج ضائعة بالنسبة لها مثلها مثل الرجل «وتبقى السّبالة العمومية هي مكان الاجتماعات الأكثر إثارة هنا وهي المأوى الفعلي للفتيات »[1]. فهذا المكان هو الأكثر ترددا إليه، وكونه أيضا مكانا مشروعا لهنّ.

فيلاحظ القارئ أن جلب الماء من عيون القرية، هي الفرصة الأكثر حضورا بالنسبة لنساء القرية، سيما الفتيات منهن، وفي هذه الفضاءات، يلتقين ويمرحن ويتبادلن الأفكار والرؤى والعواطف النبيلة « لذلك لا يتحرجن في إطلاق العنان لحرية الكلام والمزح الجريئة وكذا الغناء وأحيانا يهجن هيجانا حقيقيا »[2]، فالأكيد أن حرية المرأة في هذه المرتفعات محدودة جدا كمحدودية خروجها إلى غير الحقول والمراعي «والعين فضاء نسوي تعالج فيه أمور كثيرة تستأثر بإهتمام المرأة »[3]، ونستنتج أن خروجها من غير الحقول إنما يتمّ إلى السّبالة في أغلب الأحيان كما أشرنا سابقا. «إنّ السّبالة العمومية تحظى بمكانة خاصة في قلب الفتاة القبائلية ومع ذلك ينبغي الاعتراف بأن المكان ليس حميميا بالقدر المطلوب »[4]. وغالبا ما تقول النساء ولو دعابة أنّ المرأة القروية تخرج مرتين في حياتها حين تتزوج، وحين تحمل إلى اللحد وهذا تعبير عن خنق حريتها، سيما في هذه المجتمعات المحافظة، وفي هذا الظرف التاريخي المليء بالتوتر والقلق والحيرة والاضطهاد من طرف المستعمر الفرنسي، ومن

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 27.

(2) المصدر نفسه، ص 27.

(3) شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة...، مرجع سابق، ص ص 39، 40.

(4) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق ، ص 27.

طرف كثير من الأزواج والرجال عموما. فهكذا تعيش المرأة هنا، فكأنها مشروع ممنوع له أن يكتمل، فهي على امتداد النهار تظل منهمكة في أشغال البيت أو خارجه بين الحقول وأشجار التين والزيتون ومختلف المراعي، فالكل منشغل بأرضه أو بأشغاله المتعددة علما أن المهام موزّعة آليا، فلا يحق للرجل أو المرأة أن يحتج على ما أسند إليه من تلك المهام، فطبيعة الحياة في القرية أوحت لأهلها هذا التناغم المتعارف عليه فلا يجوز للواحد أن يختار الشغل الذي يقوم به، ماعدا ربّ الأسرة وكبيرهم فهو الآمر والناهي، لكنه من جهة أخرى قد يكون أول من يبادر إلى مختلف الأشغال والأعمال فيتحمل الأعباء الكثيرة بحكم مسؤولياته، وتبقى مهام المرأة معروفة « وطحن القمح أو الشعير تقوم به الكنّة دوما أو البنت البكر ويتم ذلك بعد العودة من الحقل وتناول فطور الصباح ففي هذا الوقت يكون الرجال خارج البيت ويتاح للنساء قسط من الحرية »[1] فالملاحظ هنا أن هاتين المرأتين تتقاسمان نفس الأشغال بحكم تقاربهما في السن عموما، وتقاربهما أيضا من حيث التموقع الأسري والاجتماعي، ومن المؤكد أن هذه الأشغال المنزلية تضاف إلى خدمة الحقول التي تساهم فيها المرأة القروية بكلّ جدارة في حضور يومي وبدون منازع دون أن تتحاشى الصعاب والمشقة مهما كلفها الأمر وكل ذلك من أجل بيتها وأولادها وزوجها ولمعيشتها، سواء حضر الرجل أو تغيب أو أقام أو هاجر، فالحياة مستمرة دائما في عينيها.

إنّ لحظات غياب الزوج من البيت تعدّ لحظات هامة ولا تعدّ ضائعة بالنسبة للمرأة القروية ففي هذه الأثناء تحسّ نفسها بوجودين عام وخاص، وفي مثل هذه الأوقات العامرة التي تتلهف إليها، تحاول المرأة أن تنهي أشغالها المنزلية لتبرمج زيارة إلى إحدى قريباتها أو جاراتها. « عليها أن تزور جارة لها لتهنئتها على مولود جديد أو تذهب لمواساة تلك التي هاجر زوجها إلى فرنسا أو لرؤية عمل نساجة أو تنقّب هنا وهناك باحثة عن خبر جديد، أو تطيل المكوث في الأماكن المسلية أو تعزّي عائلة فقدت أحد أفرادها »[2]. إنّ خروج المرأة ليس بالضرورة للمتعة بل أيضا لأداء واجبات

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 27.

(2) المصدر نفسه، ص ص 26-27.

اجتماعية، ظلت تترصدها في يومياتها المليئة بالأعباء، وهذا دليل واضح على متانة العلاقات الاجتماعية التي تميز القرويين فيما بينهم وحتى مع غيرهم في القرى المجاورة.

وفي هذا المقام يستوقفنا الروائي أيضا على دقة المناسبات التي تخرج فيها المرأة القروية خلافا للخروج إلى الحقول كما أشرنا سالفا، فهي مناسبات حسّاسة تصنف في خانة الواجبات الأخلاقية والدينية. وفي هذا الزخم لا بأس إن تحررت من الأشغال التي تكون قد أنهتها في وقتها، كإعداد الطعام وتحضيره، فالرجال والأطفال لا يصبرون ولا يعرفون الانتظار أمام نداءات بطونهم، فالمرأة القروية احتاطت لذلك وحسمت أمرها وتحاول بقدر الإمكان أن تنجو من ملاحظات وانتقادات أفراد الأسرة خاصة تلك التي تصدر من الزوج، إذ تعتبرها نقيصة في شخصيتها وعجزا في أداء مهامها، فالمرأة القروية تكره الضعف والهوان والعجز لتبدو دائما مؤهلة وقوية وجديرة بمكانتها في مكان لا يعترف بالكسالى والضعفاء النائمين، وكأنها أدركت منذ زمن طويل معنى «البقاء للأقوى». هذه بعض من ملامح القرية وأشيائها في هذه الرواية، ولا نقول أننا أحطنا بالمكان إحاطة كاملة، ولهذا سنصوّب إلى أنموذج آخر تنقيبا عن حضور القرية أيضا.

الأنموذج الثاني: القرية في رواية «ابن الفقير» لـ "مولود فرعون".

حينما يتوغل القارئ في قراءة حيثيات هذه الرواية، يصادفه حضور المكان بكثافة وعلى الأخص (القرية) لهذا فضلنا أن نتخذها أنموذجا صادقا لبحثنا هذا أيضا، وللعلم لقد أغرتنا القرية في هذا العمل الروائي وهي تحتضن ابن الفقير وتحتضن أمثاله في هذا المكان الشرس جغرافيا، وألفينا أنّ العيش في هذه المرتفعات والسفوح والهضبات والانكسارات وبين ثنايا الأحراش والوديان، ليس من السهولة بمكان، فعليه يبقى التحدي صعبا، كما يبقى الحصول على الرزق أمرا عزيز المنال أيضا، والمقياس هنا أنّ رجولة الرجل تقاس بمقدار عمله وتفانيه وسعيه الدؤوب وبمقدار تحمله وصبره للأوزار والمحن وبمقدار تكيفه مع كل الأمكنة وسائر الظروف المحيطة بها، سواء الطبيعية منها أو البشرية، فلا حيلة هنا إلاّ المقاومة والتشبث والثبات والإصرار على البقاء.

ولهذا فإن المكان مثل القرية يرفض العاجز والضعيف والكسول والمتقاعس والجبان، فكانت القرية على الدوام تفتح ذراعيها لذوي الجدّ والكدّ، الساعين، المغامرين المحبين للعمل باستمرار مهما كانت الظروف. ثم إنّ الرجولة كما أسلفنا ميزة قوية في هذه القرى إذ يتباهى بها الأهالي في ظل نشاط اجتماعي عملي يسجل يوميا في هذه المرتفعات أو السفوح، فلا اتكال على الآخر وكل فرد مطالب أن يشمر عن سواعد الجدّ والعمل لاستئصال رزقه مهما كلّفه الأمر، لكن ورغم هذه الفردانية في العمل الدؤوب فإن القرويين يتميزون بالتآزر والتعاون فيما بينهم، سيما في الصعاب والمحن التي تعصف بالمكان بسبب تعنت الطبيعة وقساوتها، أو تعنت الإنسان تجاه أخيه الإنسان، فكثيرة هي تلك الصور الاجتماعية التي تجسد تلك اللحمة بين الأهالي، وتعكس مشهدا حميما على تجاوز الضغائن والشحناء، ولعلّ في تجاور البيوت فيما بينها الدليل القاطع على هذه الحميمية بين أبناء القرية الواحدة.

إنّ هذه المقاربة والجوارية والدفء الإنساني، هو مبعث السكينة والطمأنينة بين سكان القرى الذين يتقاسمون صور المعاناة والقهر وصور الألم وبعض الأمل كذلك سيما وأنّ ظروف الطبيعة قاسية وشتاء القرى غير شتاء المدن، يستدعي كثيرا من الاحتياطات المادية على قلتها والمعنوية خصوصا، لهذا لا يمكن للخصومات أو

المشاحنات أن تمتد طويلا بين هؤلاء السكان، وفي مثل هذا الوقت العسير من تاريخ الجزائر، تتجلى القرية منزلا واحدا، إذ تلامس أطراف البيت أطراف البيت الآخر، ولا حرج إذا كان المدخل أو المخرج أحيانا واحدا، وعن إحدى هذه القرى التي ينحدر منها الكاتب يقول: « تمثل تيزي تجمعا سكنيا من ألفي ساكن، مساكنها ملتصقة واحدة تلو الأخرى على قمة ربوة كأنها فقرات ضخمة لوحش من وحوش ما قبل التاريخ »[1]. فالأكيد أنّ هذا الالتصاق يوحي بالتقارب والتجاور لمواجهة الصعاب ودرء المخاطر سيما الطبيعية منها، علما أن جُلّ هذه القرى تتموقع على قمم الجبال ومرتفعاتها، في تعايش سلمي كبير بين الأهالي، وإن شابته بعض الخلافات الظرفية، والأكيد أن هذا التموقع، يوحي برغبة السكان القرويين في التحرر والانعتاق من قيود المكان والزمان، فالتموقع على القمم يوحي عند هؤلاء بالرغبة في الانطلاق، ويُوحي أيضا بالسيطرة على الوضع في اعتزاز وشموخ وأفئدتهم معلّقة دائما بحب الانتصار ورفض الخضوع والخنوع، ففي مثل هذه الظروف يفضل القرويون الأماكن العلياء لمباغتة العدو ويتجنبون الأسفل والمنحدر من المكان ما أسعفهم ذلك، فكأن بهم نسور تقيم أعشاشها في قمم الأشجار ولسان الحال يردد:

« سأعيش رغم الداء والأعــداء ..... كالنســـر فوق القمّة الشَمّاء

أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا ..... بالسّحب والأمطار والأنواء »[2]

فمن هذه القناعات، ارتأى القرويون التمركز في الأعالي كلما سنحت الفرصة ليتمكنوا من رصد تحركات المستعمر الفرنسي في هذا الظرف التاريخي. ومن جهة أخرى كما أشرنا سالفا، يبين لنا الكاتب في ثنايا الرواية ذلك التواصل الحاصل بين المنازل في القرية الواحدة بين الدروب الضيقة والأرصفة المهترئة والأزقة المتسخة بروث البهائم، وبقايا الخضر والفواكه أو بقايا أغذية الأنعام، والمرور بين هذه المنافذ صعب للغاية، غير أن سكان القرى ألفوها وطوّعوها على مرّ الزمن وفي مختلف الفصول حتى غدت جزءا من حياتهم الاجتماعية، لكن هذه الدروب غالبا ما يكون

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 14.

(2) أبو القاسم الشابي، الديوان، دار العودة، بيروت، 1972، ص 440.

المرور عبرها فرديا، فقلّما تتّسع هذه الدّروب والأزقة لأكثر من اثنين، فما بالك بالعربات أو السيارات على ندرتها في هذا المكان، إذ يستحيل الولوج بها إلى الديار فحينذاك تجدها مركونة في الطريق الرئيسي للقرية، ليترجّل أصحابها إلى منازلهم محملين بلوازمهم وأمتعتهم ومشترياتهم، يوميا دون كلل أو تعب، فعن هذه المنافذ يقول الكاتب "مولود فرعون": « كلاهما مغبران في الصيف وفي الشتاء النهج موحل أكثر من الطريق لأنه معاشر أكثر ولنفس السبب، النهج دائما موسخ أكثر، أما الأزقة فإنها تشبهه لأنها تتفرع عنه »[1]. هذا بعض من حال الدروب في القرى والمداشر، فهي مبعث المشقة شتاءً وصيفا غير أنّ الأهالي ألفوها وطوعوها لأغراضهم، طالما أنها تخرجهم إلى مبتغاهم وتقضي حوائجهم، والأكيد أنها توصلهم أيضا إلى حقولهم ومراعيهم وأراضيهم وإلى عيون الماء كذلك سواء كانت قريبة أو بعيدة.

لكن رغم هذه الجغرافية الضيقة والتضاريس الوعرة والحياة الخشنة فإن قلوب السكان واسعة، ففي هذه القرى كل الدروب تؤدي من وإلى، لكننا نتساءل هنا عن استخدام الكاتب العديد من المصطلحات لهذه الممرات فوظّف لفظة: النهج الرئيسي طرقات منحدرة، نهج تابع لطريق، الأزقة، مع العلم أنّ المتعارف عليه في القرية أنه توجد دروب لم ترق إلى مستوى الطريق أو النهج، فعن الدرب تتفرع ممرات ثانوية تؤدي إلى مجموعة ديار، ويتشظى الممر إلى أزقة ولكل منزل تقريبا أزقة خاصة به أو لمجموعة من المنازل. « لنتخيل في مكان ما زقاقين متقابلين ينطلقان من نفس النقطة، زقاق في اليسار وزقاق في اليمين »[2]، والمهم أنها ذات منافذ ومخارج يسلكها السكان بمعية دوابهم، « ففي الطريق، الكلّ يلتقي مع فئات مختلفة ومتباينة دون تخطيط »[3]، هذا هو حال العبور أو حال خارطة الطريق في القرى. ومن الحديث عن هذه المعابر، يعرج الروائي إلى دروب أخرى لكنها تؤدي إلى مقاصد أو معالم روحية، إنها المساجد. فهذه البناءات وعلى تواضع حالها أبت إلا أن ترفع هاماتها في

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 15.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) نورة بعيو، صيغ الكرونوتوب في الرواية العربية، ط5، الأمل للبقاء والنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص66.

السماء لتُعبّر عن حضور الجانب الديني في نفوس القرويين، رغم قلة وعيهم الديني وثقافتهم. « يوجد مسجدان أيضا... من الخارج هذه المساجد تشبه المساكن المجاورة من الداخل أرضيتها مسمّتة وحيطانها مبيّضة بالجير، إنه فراغ حزين من شدة البساطة»[1]. هذا هو حال هذه البناءات في القرى والأرياف، فمن ثمّة ينتابنا شعور بأن هذه المساجد لا يرتادها الكثيرون مما يجعل الحركة فيها قليلة سيما في أيام الشتاء، حيث البرد والثلج والظلام الحالك مما يثني ويمنع الرجال عن الذهاب إليها. فكأن هذه الأماكن لا يلجها إلا الشيوخ وكبار السن، ولقد ساد اعتقاد خاطئ عند سكان القرى والأرياف لكنه ترسيخ مفاده أنّ الصلاة تؤدى عند سن الكبر، ولا تهمّ الشباب في هذا العمر. « يبدو الشيوخ الذين يتوجهون لأداء الصلاة فيها وكأنهم ينتمون إلى عصر منقرض »[2]، وهؤلاء قلّة أيضا علما أن نفوسهم تضجّ بالإيمان عن فطرة وسليقة. وهنا نقف والفضول يعترينا لمعرفة سبب أو أسباب عزوف الشباب عن ارتياد هذه المساجد لأداء فريضة الصلاة جماعة، بينما اقتصر الأمر على كبار السن، فربما كانت ظروف الثورة قد حالت دون اهتمام الشباب بهذه القلاع الروحية، وبأداء هذا الركن الهام كون معظمهم التحق بالجبال ولبّى نداء الثورة، لتحرير الوطن من مخالب الظلم والطغيان، فبقي الشيوخ يملؤون هذه الأمكنة مع قلّة ثقافتهم الدينية أو حتى انعدامها لديهم، لكنهم ظلّوا يحرسون شرف القرية وكيانها، ويمنحون للمكان هيبة ووقارا، فمن ثمة تستأنس الساكنة بهؤلاء الكبار من رجال القرية الذين ظلت القرى تعتز بحضورهم الدائم وتطمئن لمواقفهم وأفكارهم وتوجيهاتهم خاصة في هذا الظرف.

ولن نسلّم البتة بقلة الوازع الديني في هذه الأمكنة التي ظل فيها الدين الإسلامي أمرا محسوما فيه، إذ احتضنته الأهالي أبا عن جدّ، بقناعة راسخة وإيمان وحب منقطع النظير، فما من قرية من قرى هذه الجبال والمرتفعات إلا والمسجد يعلوها بكبرياء وشموخ. « يوجد مسجدان أيضا والمساجد حسب الظاهر لها أهمية»[3]. فبهذه القناعة

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 16.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وهذا الاعتقاد الراسخ استمسك القرويون بوطنهم، بدينهم، رغم قساوة المكان وشظف العيش « على الرغم من الظروف التي كانت تعيشها الجزائر داخل الأسوار حيث فرض عليها الاستعمار عزلة لم يشهدها أيّ شعب من الشعوب المستعمرة »[1]، ففي هذا الظرف الحاسم من تاريخ الجزائر، كان الدين الإسلامي أحد عوامل التحدي والمقاومة، وكان في المقابل هدفا أسمى لمحوه من طرف المستعمر الفرنسي، الذي ظلّ يصرّ على محاربة كل ما هو هوية وانتماء، فبقي هذا الرباط الروحي انطلاقا من هنا يجمع الأهالي ويوحد كلمتهم ويعزز أهدافهم في التحرر من مخالب القهر والطغيان فاستمسك به الأهالي في هذه المرتفعات والسفوح كالدرع الواقي لهم.

وفي وصف وعرض حال القرية دائما خصّص الكاتب جانبًا منه للعمران والبناءات، فيستوقفنا عند عملية التوسيع أو التجديد الذين يطالان المنازل ها هنا فالسكان الميسورو الحال كالمغتربين والمهاجرين، يظل شغلهم الشاغل، جمع الأموال في ديار الغربة ليحولوها توًّا إلى أهاليهم في القرى لصرفها وتوظيفها خاصة في البناء والترميم. وهذه من أولى أولويات السكان المقيمين منهم والمهاجرين في نظرة استشرافية تشمل أجيالا وأجيالا، فالبناء عند سكان القرى كاد أن يكون أمرا مقدسا ولو على حساب الأكل والمعاش يفكر فيه الأجداد والآباء لأولادهم وأحفادهم. فلا يفرطون في ذلك شيئا.

« بعض المساكن الجديدة بُنيت حديثا بفضل المال الوارد من فرنسا هذه المساكن تبنى واجهاتها المتبرجة وقرمودها الشديد الحمرة بين البؤس العام »[2]، ويقصد الكاتب بهذا المال تلك الحوالات التي يسهر المغتربون على إرسالها إلى عائلاتهم كل شهر وهم يدركون حال ذويهم الذين تركوهم بين مخالب الفقر وقساوة التضاريس، فهم في أمس الحاجة إلى المال، فبفضله تشيد المنازل أو يرمم بعضها أو تحدث فيها توسيعات مراعاة لتعدد أفراد الأسرة، وناهيك عن سد الحاجات الاجتماعية المختلفة، غير أن مشاريع البناء على تواضعها تبقى من أولويات السكان، لكن تلك البناءات التي تتجدد

(1) عبد الله الركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983، ص15.
(2) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 16.

وتتعصرن من حين لآخر، تبدو وكأنها شوّهت بساطة القرية وتواضع حالها، وما ألف السكان ذلك الطابع الجديد، فكأن الحداثة العمرانية أحدثت الغرابة عند الساكنة. « غير أننا نحسّ أن هذه الفخفخة غريبة في مثل هذا الإطار، على كل حال نحن لسنا فخورين بها، من بعيد تشكل هذه المساكن الفخمة بقعًا بيضاء لا تنسجم مع المجموع الأغبر إننا نسخر من الغرور »[1]، إنّ سكان القرى يبدون وكأنهم تواطؤوا مع بيوتهم القديمة وظلوا يتعاملون مع الجديد بحذر وحيطة، ورغم ذلك لا حرج طالما أنّ البيوت تتشابه كلها وتكّون ديكورا مماثلا، يمنح للقرية خصوصياتها، وما تجاور البيوت بعضها وإن اختلف طرازها ببعض إلا دليل على الروح الجماعية لأهل القرى ودليل على المستوى المادي المتقارب أيضا، فكل هذا جعل صورة القرية واحدة، يتشابه أولها بآخرها ووسطها بحوافيه، حتى الدروب والأزقة والحارات تتشابه فتملأ المكان من جهتها طالما أنها مفتوحة على كل الاتجاهات.

إن سعادة أهل القرى تتجلى كذلك في كون ظروفهم الاجتماعية متشابهة، حتى في داخل منازلهم، وهذا الشعور يوحي أيضا بذوبان الطبقية إلى حدّ بعيد، فالكل سواسية، ما دامت ظروف القرية واحدة والعدو الذي ظل ينهش المكان واحدا، غير أنّ كل تجديد عمراني مبالغ فيه يمكنه أن يأخذ طابع التميّز عن الآخرين، ممّا يخلق اختلالا على مستوى النسيج الاجتماعي، ويهز أيضا تلك اللحمة بين السكان، ممّا يُؤدي إلى حدوث الشرخ والتفكك، فتنمو الفردانية وتكبر الغيرة بين سكان القرية الواحدة الذين تعودوا على ذاك الانسجام فيما بينهم وهذا لا يتوافق أبدا مع النمط المعيشي في هذا المكان، فالجميع تعوّد على طراز بنائي موحّد تقريبا، وذلك أراحهم كثيرا طالما أنّ المنازل تتشابه فلا داعي لإدخال الغرابة عليها وتشويه تلك البساطة الجميلة لطراز القرية وعمرانها ومبانيها.

فكأنه لابدّ من الوقت الكافي حتى تتهيأ النفوس للتحرر من قناعات الماضي وربما تتكافأ أيضا الفرص المادية مع مرور الوقت لأغلبية السكان لتجديد مساكنهم لكن هذا لا يمنع هؤلاء من إجراء ترميمات وتوسيعات ولو ظرفية لمساكنهم القديمة كلّما

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص ص 16-17.

اقتضت الحاجة. « نوجد في ضيق مثلما يوجد طيور في عشهم المستدير المظلم غير أننا نحسّ بحرارة لطيفة داخلية وسريّة وهادئة أنّ الحيطان التي تحتك تبدو وكأنها تلاطفك والأشياء تبتسم لك في ظلمة »[1]، إن ضيق المكان لا يعني ضيق النفوس فالقرويون وإن ضاقت بهم السبل تبقى قلوبهم تسع الجميع. ما عدا هؤلاء الغرباء الذين جاؤوا لاستغلال واستنزاف ثروات البلد، ألا وهم المستدمرون الذين شوّهوا منظر القرى فكان التخريب وكان الحرق وكان الترحيل والتهجير ونفي الأهالي من قراهم التي نشأوا فيها وتربوا بين أحضانها وعشقوا جمالها واستلطفوا قساوة العيش فيها. ولذلك هبّ القرويون جماعيا لصدّ هذا العدوان الذي اقتحم قراهم، فأعلنوها ثورة عارمة ونضالا مستميتا، والدليل على تلك الانتفاضات منظر هذه المقابر الكثيرة التي تقابلك في كل القرى، تشهد على عدد هام من شهداء الواجب الذين ماتوا من أجل أرضهم، ووطنهم وشرفهم وتحولت هذه المربعات التي تحوي رفات هؤلاء إلى مصدر فخر وعزة لدى الساكنة وغيرهم، ورجوعا إلى عملية البناء فمعلوم أنه غالبا ما تُبنى المنازل الجديدة ذات الطراز الحداثي نسبيا على جنبات القرية بمحاذاة الطريق في صورة انفرادية. ويرى القرويون عموما أن أصحاب هذه البناءات لهم القدرة على حماية أنفسهم بأنفسهم وكأن بعض الغرور بالتميز والتعالي انتابهم، فخرجوا عن الطاعة. « إننا نسخر من الغرور، ربما لأننا كلّنا إمّا أقارب أو أصهار، أسلافنا حسب ما يبدو قد جمعتهم الضرورة، إنهم تألموا كثيرا من العزلة، لهذا قدّروا قيمة العيش موحّدين إنها سعادة أن يكون لك جيران يساعدونك.. يقرضونك يغيثونك مشفقين ومستعّدين أن يقاسموك مصيرك »[2]، فعلى هذه القناعات تربى أهل القرى، فلقد ألفوا العيش بجوار بعضهم البعض، وأكثر من ذلك فإنّ نظام «ثاجماعت» جعلهم يتقاسمون الآلام والآمال، ثم إن ظروف حياتهم المعيشية متشابهة، ممّا يخفف من معاناتهم وقساوة عيشهم، ويقوّي فيهم روح المقاومة ضد المستعمر ومقاومة جبروت الطبيعة الجبلية الموحشة، وظروف الحياة القاسية، علما أنهم تعوّدوا عليها، فكانت ثجماعت هي الدليل فبقي هذا النظام

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 56.

(2) المصدر نفسه، ص 17.

بمثابة دستور القرية، يجسّد صور التضامن بين السكان ويوحي بفكر تنويري، ففي هذا الهيكل النظامي ألا وهو «ثجماعت» تتبلور الرؤى المستقبلية وتنضج النظرة الاستشرافية، ومن خلال هذا المنبر الاجتماعي تتقارب الأفكار وفي هذا الإجماع العرفي المركب بالاتفاق والعفوية والحوار، يناقش كثير من شؤون القرية، وتتقوى اللحمة بين السكان مما يمنح لها الاحترام والتقدير فيما بينهم يتجاوز ذلك وحتى عند سكان سائر القرى المجاورة، وبذلك تتقوى مناعتها ويعلو شأنها فتكون للقرية هيبتها محليا وخارجيا.

ومن هذا المنطلق كان النأي عن الجماعة أمرا غير مستساغ خاصة في مثل هذه الحقبة التاريخية الحرجة من تاريخ الجزائر، فالعيش الانفرادي أو الانزواء في مكان بعيد عن القرية يبقى أمرا غير مقبول عرفيا، فالطبيعة بالمرصاد وظروف الثورة حتمت على الأهالي التآزر فيما بينهم والتعاضد والتلاحم وجمع الكلمة، ولمّ الصفوف ونسيان الضغائن والأحقاد، بل بالعكس فالسكان مطالبون وإن لم نقل فهم مجبرون في هذه الآونة على العيش الجماعي، رغم بعض المشاحنات العابرة أو الصراعات الظرفية التي تحدث فيما بينهم بين الفينة والأخرى، ولأسباب تافهة على العموم، لكنها سرعان ما تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي. « إننا نخشى العزلة مثل الموت غير أنّه توجد دائما شجارات وصراعات عابرة متبوعة بمصالحات في مناسبة عرس أو مأساة، إننا جيران للعيش في الجنة لا للعيش في الخصومة »[1]، هذا حال القرويين، وهذه قناعتهم وهذا إحساسهم الدائم، ولا يهمّ إن لفّهم الفقر والعوز، أو بدت بيوتهم أكواخا أو كهوفا بجوار مواشيهم ودوابهم وأشياء قراهم، فالأهم أن هذه المساكن رغم تواضعها تقاوم تعنت الطبيعة ممّا يخفف عنهم هاجس الخوف. « كل المساكن مبنية من حجر الشيست، يشدّ بعضها بعضا بالطين، أما السقف فإنه من القرميد الأجوف الموضوع على فراش من القصب والأرضية .. مغطاة بطبقة من الكلس المصقول اللماع يعطي انطباعا بنصافة ولياقة قروية »[2]. من هنا يتولّد لنا انطباع وهو أن كل البناءات

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 17.

(2) المصدر نفسه، ص 19.

تتماثل فيما بينها، لأن تضاريس القرية أوحت إلى الساكنة بهذا التمظهر. ويطلعنا الكاتب في نفس السياق على اهتمام القرويين، بجعل مواشيهم وحيواناتهم تحتك بهم كما أشرنا سالفا من حيث المسكن، حتى تبدو وكأنها جزء من العائلة، فما من بيت في القرية إلا وأصوات الماشية والدواب تصدح بين أرجاء المساكن وتخفف من وحشة المكان سيما شتاءً. وفي عزّ الليالي الباردة التي تكاد ألا تنقضي. إنّ هذه الجوارية بين السكان ومواشيهم يشكل لهم راحة واطمئنان البال، وغالبا ما يكون ذلك المأوى داخل منزل العائلة فيما يشبه اصطبلا صغيرا في ركن البيت أو بجواره. « يوجد في كل غرفة من الغرف الكبيرة ناحية سفلى مبلّطة تستعمل اسطبلا وزريبة ومحطبة، يفصلها عن الجزء العلوي ركائز ثابتة تحتمل حجرة، وهذه الحجرة تشتمل على «**إيكوفان**» المئونة، أقصات الزيت وخزائن العائلة، الجزء العلوي يكون المسكن .. الكانون يوجد في مكان ما قرب الحائط الذي يواجه الاسطبل »[1]. وفي مجال مؤثثات البيت القروي يبين لنا صاحب الرواية حرص الأهالي على تخزين غذائهم ومؤنهم بإحكام ويخصص لذلك ما يسمى «**إكوفان**» وهي صناديق حائطية مصنوعة من الطين، يحفظ فيها القمح والشعير والتين المجفف وسائر الغلات لوقت الحاجة، سيما لفصل الشتاء، فالسكان القرويون يحتاطون لهذا الوقت الشاق مناخا، ولقد علّمتهم التجارب المؤلمة كيف يواجهون أيامهم العسيرة لمّا تغطي الثلوج كامل القرى ويعمّ السكون والصمت القاتلان ويلجأ السكان إلى مساكنهم تحت وطأة شتاء بارد قاس، في ظلام حالك يزيد المكان رهبة، حتى تبدو القرية مهجورة من سكانها فاسحة المجال لغضب الطبيعة، فتستسلم القرية إلى الضباب والسحاب فلا تبصر بيتا ولا شخصا إلاّ نادرا، فحتى الرعاة أبوا الخروج وأحالوا مواشيهم إلى مأواها وركنوا إلى بيوتهم ينشدون دفء المكان، وما أدراك من البيت فهو القلب النابض للإنسان أينما ذهب، فقلبه معلق به « فبدون البيت يصبح الإنسان كائنا مفتتا، إنه البيت يحفظه عبر عواصف السماء وأهوال الأرض»[2]. فالبيت هو وجود وحضور وهوية وفي داخل هذه البيوت وبجوار الخزائن

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 20.

(2) غاستون باشلار، جماليات المكان، مرجع سابق، ص 38.

التقليدية، توجد أماكن لجمع الحطب، تشبه كهفا صغيرا داخل الجدران، فهي وظيفية أكثر، خاصة للمرأة من حيث الاستعمال اليومي، فأمام هذا التدبير تجد نفسك أمام قرويّ يحسن تسيير يومياته واقتصادياته، فلا إسراف ولا تقتير، لأنه مدرك أنّ كلّ ما يتحصل عليه إنّما بجهد كبير وتحد وإصرار وطول نفس، فهو يعلم يقينا أن لكل شيء قيمة هاهنا ما دام الحصول عليه ليس بالأمر الهيّن، فكلّ شيء في القرية ينال، بل يُنتزع بكدّ ومشقة، كما أشرنا سابقا، سواء أكان رزقا للسكان أو رزقا للماشية والدواب. فالسعي دائم ومستمر في ثبات وعزم وفي حتمية اجتماعية لا تعرف السكون والثبات. فالقروي يقيم حسابا ليومياته ولغده، ولا يستهين بالوقت الآني أو الآتي، مستلهما من الأزمنة الغابرة عبر ودروس الأولين من الأجداد والآباء، للاستسقاء من تجاربهم وخبراتهم والسير على هديهم في تنظيم أمورهم المعيشية.

فلهذا يُعرف عن القرويين خلافا لأهل المدن حسن التدبير لمختلف شؤون حياتهم، فما أبعد الارتجالية عندهم أو التأجيل والتردد والخوف خاصة في الأمور الجادة كالبناء، والأعراس، والجنائز أو اجتماع يحدث في القرية لأمر هام. ومن جهة أخرى يحرص القروي على جمع غلاته ومحاصيله في حينها لتُحصّن في أمكنة آمنة وصحّية بما في ذلك الحطب فهو مؤونة القرويّ، يُجمع في حزم لدرء الضربات القاسية لفصل الشتاء، في هذه المرتفعات والهضبات والسفوح الباردة، ويُخزّن كذلك معاش الدواب سلفا في أماكن خاصة غالبا ما تجاور البيوت أيضا أو في أقرب حقل يملكه صاحبه، ويصطلح عليها «**أعشيوْ**» يمتلئ بالتبن والعلف وما شابههما. فمن ثمّة يهنأ بال القروي وتكبر سعادته أيضا، وهذه التسمية «**أعشيو**» توحي بالعيش والدفء والوفرة، إذ توضع فيها مؤونة الدواب، يبنى في الغالب بأعمدة من خشب، ويسقف بالحديد أمّا أبوابه فهي مجموعة من ألواح قديمة قلمّا يتم غلقها غلقا تاما، فيبقى المكان نصف مفتوح ليسهل إخراج أغذية الحيوانات بيسر، فبهذه البساطة يبدو جميلا، ويمنح للقرية ميزة خاصة، فترتاده المرأة والرجل معا عند الحاجة، طالما أنه قريب وسهل المنال وقد ألفته النساء وحتى الأطفال، فلا حرج في التردد عليه على الدوام.

إن كل هذه التدابير والاحتياطات يتخذها القرويون قبل فصل الشتاء خاصة «شتاء ممطر، مرض، نفقات غير متوقعة، سفر ربّ العائلة إلى فرنسا.. خيبته وإهماله، نعيش حسب الممكن »[1]. فالقرويّ يجابه ظروفه القاسية بتحدّ، وببعد نظر ولا تثنيه عن ذلك حالته المادية المزرية بما في ذلك النفقات غير المتوقعة، وإذا حدث أن غاب ربّ الأسرة، تتكفل المرأة بمهام الرجل في التدبير والتسيير سواء داخل بيتها أو خارجه، بعزيمة لا تقهر. فتراها تجمع بين خدمات بيتها وأشغالها الخارجية وتتفادى أن تظهر ضعيفة أو عاجزة أمام الرجال خاصة، فهي تحرص دوما أن تظهر بإرادتها المتوهجة، خاصة في غياب زوجها وكأنّ بها تعوّض غيابه أو إهماله لبعض شؤون الأسرة.

ويعرف عن أهل القرى في هذا الظرف التاريخي هجرة معظمهم إلى فرنسا أو أوروبا عموما لتحسين ظروف العيش. فقلّما تجد أسرة ليس فيها رجل مهاجر في هذه الحقبة التاريخية، وهنالك يكدّ ويكدح ويشقى لجمع بعض المال وإرساله إلى ذويه في حوالات بريدية يصطلح عليها «Manda» وعند وصولها وسحبها من طرف رب الأسرة التي يتولى شؤونها، يتناهى الخبر بسرعة، فتكبر فرحة الأهل، وربّما كان ذلك فرصة لتغيير وجبة العشاء أو الغداء، ثم يبادر كبير الأسرة إلى اقتناء المستلزمات الضرورية والمميزة أيضا، والتي عزَّ الحصول عليها وهي تجلب عموما من أقرب سوق أو من المدن عموما حيث الدكاكين والمتاجر. فتتناثر هنالك وهي مقصد القرويين أيضا.

غير أننا لم نعثر في هذه الرواية على ذكر هذا الجانب المادي المهم في حياة الأسرة القروية، والذي أشرنا إليه سابقا ألا وهو الحوالات، فكأن الكاتب تجاوز ذلك عمدا، مادامت الهجرة تبطّن في نفسية المغترب الرغبة والإصرار في جلب المال من ديار الغربة، فيحرص على تسيير نفقاته ويتجنب التبذير والإسراف فيجتهد ويقتصد ويقتر على نفسه فيعيش الأمرّين (الغربة والشّحّ) ليسعد أهله وأبناءه في البلد. والأسرة التي لا يغترب فيها أحد، تقلّ مواردها، ويضعف مستواها المعيشي فيظل مردودها المالي حبيس غلات الحقول ليس إلاّ، وهو لا يكفي لسدّ الحاجات، ومن هذا المنظور

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 22.

نجد القرويّ كثير الاحتياط لأمور حياته فيحاول جاهدا حسن التصرف في ماله وثروته، «إننا نعرف أن الناس عندنا منضبطون على الأقل في حياتهم العائلية، إننا نحارب التبذير من أجل هذا تخضع كل العائلة إلى مسؤول والمسؤول يتحكم في المؤن، ثمّ يحدّد حسب تقديره نصيب كل واحد كما يقرر استخدام المدخرات والمشتريات»[1]. على هذا النظام يُسيّر القرويون أمورهم الحياتية بكثير من الحذر والجد في التدبير والتسيير، خاصة وأنّ الأرض لم تعد تكفي لمدّ الرزق الوفير وذلك لأسباب كثيرة منها المناخية والجغرافية ومنها طبيعة الأرض، وكذلك تراجع خدمتها عند البعض، فكان لابد من معرفة كيفية التعامل مع الجانب المالي والاقتصادي ككلّ. إنها نظرة اجتماعية واقتصادية دأب عليها سكان القرى، ونلاحظ أنّ هذا الانضباط يتم تحت إشراف ربّ الأسرة الذي يسهر بدوره على إعطاء كل فرد حقه دون طمع أو تطاول أو تمييز أيضا، وأكثر من ذلك تجده يحرص على الحفاظ على الرزق، فلا يجوز لأي فرد من العائلة أن يمدّ يده إلى هاته الأرزاق متى وكيفما يشاء «...لأننا نعرف أنّ القبائل لا يتمرغون في الرخاء غير أنّه يكلف دائما الأكبر أو الأكثر احتراما في الأسرة .. ويبقى في الغالب بقية أفراد الأسرة مطمئنين »[2]، فالعدل هو سيد الموقف ما دام الكل يتعب ويكد على حسب قدرته والمهام المسندة إليه لضمان العيش غير أن سلطة الأب تتجلى بوضوح في هذا المكان، فالأكيد أنّ كلمته مسموعة في كل مناحي الحياة، وقلّما تحال هذه السلطة لسيدة الدار، وغالبا ما تكون هذه السيدة زوجة ربّ العائلة وهي بدورها كلها حزم وعزم وانضباط. « جدّتي كانت لدى آل منراد.. هي التي تشرف على المؤن، هي الوحيدة التي تفتح وتغلق «**إيكوفان**» لها طريقة خاصة لاستعمالها، ولها أسرارها في نزع أو وضع السّدادة وعلامات دقيقة قد تنبهها لشيء»[3]، علما أن «**إيكوفان**» شبيهة بصناديق مصنوعة من الطين في أشكال مربعة أو مستديرة، تصنعها النساء في القرى لاستعمالها لأغراض التخزين وحفظ المؤن والغلات. وفي الغالب تركب هذه الصناديق داخل جدران البيت ليسهل توظيفها، فهكذا

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 30.

(2) المصدر نفسه، ص 31.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ورغم الظروف القاهرة التي تحياها المرأة في هذه الأمكنة، يبقى دورها في تسيير شؤون المنزل فعّالا، فلا تفرط في أشياء البيت، ولها الدراية في ذلك، كما تحرص أيضا على فرض السرّيّة التامة على الأرزاق والمعاش، وكأنها تُعلّم زوجات الأبناء الانضباط وحسن التسيير، وإن أحسسن بالضيق في كثير من المواقف من كثرة الملاحظات والتعليقات. ففي عرف القرية فإنّ هذه المهام التي تقوم بها ربّة البيت والتي تشمل كل مناحي العيش ليس ذلك إلاّ ضمانا للسير الحسن لشؤون البيت، وقد تصل تدخلاتها إلى الأمور البسيطة اليومية، فلا تتردد في إبداء رأيها أو فرضه أحيانا على كل كبيرة وصغيرة. « النساء تحضرن الأكل ولكن عندما ينضج الكسكسي هي التي تقوم بوضعه في القصعة أمام اللحم، فإنها تترك الأكبر من أولادها لتوزيعه، إنه عمل الرجال »[1] وفي بعض الأحيان تلجأ ربّة المنزل إلى تكليف ابنها الأكبر في غياب الأب، ليتولّى توزيع اللّحم، لأن اللحم في القرية يحضر في المواسم فقط أو المناسبات فهو عزيز المنال. « إننا لا نشتري اللحم إلا في المواسم »[2]. وبذلك تتنازل ربة البيت عن بعض صلاحياتها، احتراما لهيبة الرّجل أكان زوجها أو ابنها، والملاحظ أنّ المجتمع القروي لا يزال سيما في هذه الآونة رجوليا بامتياز بالرغم ما تقوم به المرأة من مهام وأشغال شاقة، تضاهي ما يقوم به الرجال وربما تفوقه في كثير من الأحيان، لأن خدماتها لا تتوقف طوال النهار، إن على مستوى البيت وإن على مستوى خارجه بين ثنايا الأرض والحقول والمراعي، وحتى عند منابع الماء فهي منتشرة هنا وهناك وفي ربوع القرية بين القمم والسفوح والمنحدرات بعزيمة لا تقهر فلا تعرف التراجع أو التردد أو التأجيل أو حتى الخوف.

هذا وإلى جانب النشاط الفلاحي والرعوي الذي يمارسه القرويون، يشتغل بعضهم أيضا بصناعة الطين والصوف كذلك، وهما من اختصاص المرأة دون منازع، فالزائر لهذه القرية أو لغيرها، تقابله أفنية المنازل وحاراتها وهي حافلة بكومات من الطين والصوف، وهي تزاحم كومات الحطب مسندة إلى الجدران في ديكور رائع يضفي على

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 31.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

القرية جمالا وعبقا خاصا، فالصورة رائعة تجمع بين الأصالة والتجديد، وتمنح للقرويين روح الاعتزاز بتراثهم وبكل ما يؤشر على هويتهم.

وهذه الحرف التقليدية، ورثها الأبناء عن الآباء والأجداد، فهم يسهرون ويحافظون عليها من الاندثار، وهي ليست مصدر استرزاق فحسب، بل أيضا رمز من رموز الهوية والشخصية والتراث، إلى جانب طابعها الجمالي، فسحرها يكمن في بساطتها وعفوية النقش والرسم عليها، وكم هي جميلة تلك اللحظات حينما تلتقي هؤلاء النسوة، وكل واحدة تتفنن في حرفتها، وما يصاحب ذلك من أجواء المرح والمزاح والتنفيس عن مشقة العمل في الحقول أو الرعي أو الاحتطاب. فهذه الحرف المتنوعة فرصة كذلك للتفاخر والتفاضل بين النساء وفرصة أيضا لإسقاط المواهب الدفينة عند المرأة القروية في هذه الحرف التقليدية، الطين أو الصوف بالخصوص، فهكذا فتظل المرأة القروية تتباهى لإتقانها لها في هذه القرى والمداشر وبين الانكسارات الجغرافية للمكان. « كانت خالتاي تشتغلان بالطين والصوف، الفناء كان دائما عامرا بالفخار هناك في زاوية قريبا من الباب كومة كبيرة من الحطب تستعمل في الإنضاج، العمل بالطين يبدأ في الربيع، باية وخالتي تذهبان لإحضاره في قفف بعيدا عن القرية بعدة كيلومترات »[1]، ورغم ذلك لا تشتكي هؤلاء من بعد المسافة أو مشقة استخراج التراب. وفي هذه الحرف والمهارات الجميلة، يلتقي الطين والحطب فتتداعى عنهما مختلف الأواني الفخارية، لتحفل بها مطابخ القرويين، بينما يوضع بعضها على رفوف المنازل في اصطفاف فيتألق المكان بجمالية الأشياء، وفي مشهد رائع يصف الروائي "مولود فرعون" منظر إحدى النساء وهي منهمكة في صنع الفخار. « جبة خالتي مرفوعة إلى ركبتيها، ذراعيها عاريتين، المنديل معمّم على رأسها، تضع عرمة كبيرة من العجين على لوحة... خالتي نبيهة تعمل بسرعة، أعرف أنه لا ينبغي أن أكلمها الوقت غير مناسب... نانا مبتسمة ومرتاحة تأخذ العجين بين يديها الصغيرتين تجسّ وتلامس بأصابعها الماهرة، تخرج ما يشبه عصا تمتد تترنح وتعوج مثل ثعبان »[2]. إن هذه

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 61.

(2) المصدر نفسه، ص 62.

الصورة تعكس لنا جدّية المرأة القروية في أداء مهامها بكل حرفية ومهارة، إلى درجة أنها في تلك الأثناء لا تنتبه إلى أحد فكل حواسها منجذبة إلى العجينة التي بين أصابعها، وكلّها تركيز وانتباه وجدّية، ممّا يترجم حبها للعمل عموما وتمسكها بهذه الحرف التقليدية الموروثة عن قناعة ورضى حتى نسجت بينها وبين هذه علاقة حميمية.

ويعرف عن سكان القرى أيضا، حذقهم لصناعة الصوف، كما سبق الذكر، وهي حرفة النساء أيضا، هذه المادة التي يتحصلون عليها من الأغنام ويحولونها لاحقا إلى أغطية وبرانيس، تقيهم برد الشتاء وتضفي على الرجل القروي هيبة مميزة، وتمنح للقرية وقارا آخر. « إن عمل الصوف يشبه عمل النمل، غير أنه لا يتطلب مكانا كبيرا... إنّه عمل لا يمنع الثرثرة »[1]. فالحرفة ممتعة، والأمتع حين يرافقها المزاح وتبادل الأحاديث، بين النساء في أجواء العمل يطبعها التلاحم الجماعي والروح التنافسية في هذه الحرفة، سيما عند لحظة البدء، إذ يبدو المشهد أشبه بالتويزة، ففي هذه اللحظات تقابلك صور التضامن بين العائلات القروية تلاحما وتآزرا وتكاتفا فيما بينها في مرح وحيوية فتجتمع النسوة عند بعضهنّ لتثبيت أعمدة النسيج وتمديد الخيوط وكُلُهنّ متعة وفرح. «مهمّة النسيج تقوم عموديا على قضيبين قريبا من الحائط، بإمكان عمل الصوف أن يبقى هنا ما شئنا... نانا ماهرة جدّا تحسن إنتاج على النسيج كلّ الخطوط التي ترسم على الجرة »[2]، بهذه التقنية يشرع في إقامة أعمدة النسيج ممّا يضفي على الجو العام مظاهر الفرح والنشاط، فتزداد الحارة جمالا. وغالبا ما يرافق هذا المشهد الجماعي والعملي صوت «**أشويق**» « فهذا الفن عاصَرَ أفراح وأحزان وحتى حروب وغزوات المجتمع العربي، حيث كان له صدى كبير بين الطبقات الشعبية، وكان له أثر على نفوس الناس، لذا كان من الأسلحة الفتاكة التي كان المستعمر يحسب لها ألف حساب»[3]، إنها ألحان شجية تطلقها هؤلاء النسوة في نشوة لا توصف تنبعث

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 67.

(2) المصدر نفسه، ص 67.

(3) عبد الله الركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، مرجع سابق، ص 91.

منها عواطف الثورة والنضال والحنين خاصة من حناجر هؤلاء النساء المتقدمات في السن إنّها ألحان مملوءة بحب الوطن والتعلق بالأرض، « إنّ حب الإنسان للأرض والوطن الذي ولد فوقه هو الذي يدفعه إلى التضحية من أجله بنفسه وحياته »[1] فيتذكرن المحن والشقاء ويتذكرن أيضا ما عشنه من أيام عسيرة وويلات الاستعمار فيرجعن بالذاكرة إلى تلك الأزقة والحارات والدروب التي كنّ يجلن ويصلن فيها بتحد كبير وإصرار على التشبث بالمكان مهما كثرت الأرزاء والشدائد، ففي هكذا الألحان الشجية تلتقي النسوة في جوّ رائع تتعانق فيه لحظات الشباب بلحظات الكهولة والشيخوخة فتغمر السعادة المكان.

وفي مقطع آخر يعرج بنا صاحب الرواية إلى محطة أخرى ليصف لنا أجواءها في هذه المرتفعات والسفوح، ألا وهي أجواء «الجنازة» إذ تجري هنا في جو مهيب للغاية يعمّ أرجاء القرية كلّها، ويُقبل أهلُ الميت أو ذووه أو جيرانه على إعداد الطعام لفقراء القرية أو لأهل القرية كلّها، وفي المساء تقام السهرة الجنائزية، « لقد سهر عليها جماعة من الإخوان، يقرؤون حتى الصباح كل أنواع الذكر الديني، نذبح كبشا ونؤكل كُسْكُسيًّا فقراء القرية، اثنا عشر مرابطا اصطحبوها إلى الجبانة، وكل الوجهاء كانوا في الجنازة »[2]، ومن خلال هذا القول، نلاحظ أن الكاتب ركّز على كبار القرية الذين يرافقون الميت، لكن ذلك لا يعدم حضور الصغار أيضا، سيما الشباب منهم، فالجنازة في مفهوم القرية تكتسي طابع الواجب، فيسهر القرويون على أدائه بصرامة، ففي هذا اليوم المهيب يمتنع الأهالي عن اللّحاق بحقولهم وأشغالهم، وقد تحبس حتى مواشيهم من الخروج إلى الحقول والمراعي، ويحتفظ بالحد الأدنى من الخدمات لمشاركة أهل الميت مصابهم، واحتراما للميت قبل كل شيء، فهذا عرف وتقليد وسلوك دأب عليه القرويون، وفي هذا الجوّ أيضا تلتحف القرية لباس الحزن والأسى وفي ذلك كله أنس لأهل الميت، ثم إنّ المكان مسمى القرية ليس موضعا للعيش والإقامة فحسب بل تتجسد فيه أيضا الأفكار والرؤى والمشاعر والعلاقات الإنسانية في السراء والضراء.

(1) خالد ميهوبي، الشعر الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص 6.

(2) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص ص 78-79.

وتزامنا مع هذا الحدث القضائي والقدري تلغى مظاهر الفرح في هذه الآونة كما أشرنا سالفا احتراما لمشاعر أهل الميت، ومساندة لذوي الجنازة، واحتراما للقرية ككل، وفي هذا اليوم يتم أيضا توزيع طبق الكسكس على الحاضرين وحتى على الغائبين باعتباره طبقا شعبيا، وفي متناول الجميع، كما أنّه يلبي طلب الأعداد الهائلة من الأسر، وربّما كانت تكاليفه أيضا بسيطة، وهو إلى ذلك كله ظلّ ولا يزال رمزا من رموز القرية ومصدر فخر واعتزاز لسكانها، ولسان حالهم يردّد: هذا طبق الآباء والأجداد، فلن نبغي عنه بديلا. « إن الكسكسي هو الطعام الوحيد لنا، أجل ليس بإمكاننا أن نعدّ كل يوم كبشة حُمّص أو فول التي تُلقى في القدر بقليل من الشحم وثلاثة لترات من الماء لصناعة المرق غير أننا كنّا متعودين أن نحضر أسناننا بكل ما يؤكل من حشائش الحقل »[1]. وهذا الطبق دائم الحضور في البيوت القروية، في الأفراح والأقراح وفي سائر الأيام وقلّما يغيب أو يستبدل بغيره وكل النساء يُحسنّ إعداده، والأجمل حين يوضع في قصعات الطين فلا بأس بعد ذلك إن كبرت اللّهفة على تناوله من قبل الرجال أولا والأطفال ثم النساء، فهكذا ألف القرويون هذه الوجبة، وهكذا يحلو لهم المقام وهم ملتفون أمامه في سمر ومرح، يأكلون جماعيا، ممّا يترجم روح التضامن خاصة في مثل هكذا مناسبات. وفي سياق الجنائز لم نعثر في الرواية على مدة الأربعينية التي يُعاد فيها بناء قبر المرحوم إذ غالبا ما يُعلن في يوم الجنازة عن هذه الأربعينية كدعوة لمن يسعفه الوقت لحضورها والمشاركة في أشغالها، فكأن موعدها قد أعلن عنه مسبقا، والسكان بدورهم لن يتوانوا في حضور هذه الأربعينية، إلاّ لمن تعذّر عليه ذلك، ورغم ذلك يحرص البعض على النيابة عن الآخر، سيما الأقارب منهم، وبعد إعادة بناء القبر يلتئم الجميع على وجبة غذاء غالبا ما تكون طعاما ولحما أيضا، تكريما لهؤلاء الحاضرين في بناء قبر المرحوم وصدقة جارية على الميّت يحضرها المقيمون والعابرون القادمون منهم من بعيد خاصة، وهي فرصة للتّلاقي بين الأباعد والأقارب ولمّ شمل الأسر حين يأتي أفرادها من القرى المجاورة أو من المدن البعيدة، وهي سانحة لهم للارتماء في أحضان المكان الأصل ألا وهو القرية بكثير من

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 84.

الحنين والاستذكار لأيام الطفولة والشباب وفرصة لزيارة بيوتهم القديمة وحقولهم ولأشياء قريتهم، وكم هي عزيزة هذه اللحظات المختلسة في هذه الأماكن ومع هؤلاء وأولئك بين الشباب والشيوخ والأطفال فتحس القرية بنشوة لقاء أبنائها وذويها والكل ينسى الضغائن والشحناء.

وفي التفاتة سردية أخرى، يستوقفنا الكاتب عند قيمة الأشياء هنا في القرى، فكل شيء في هذه الأماكن يكتسي أهمية بالغة عند السكان، وسعادتهم هي أيضا في كل ما يملكون، بما في ذلك دوابهم وماشيتهم وفي مقدمتها (الحمار) الذي يمثّل السّاعد الأيمن للقرويّ في حلّه وترحاله وغدوه ورواحه، فلقد آنسهم في وحدتهم، وكم زاد نهيقه متعة للحقول والمراعي، وبذلك الصوت القروي الجميل، تكسرت وحشة المكان، إضافة إلى خدماته التي لا تعدّ ولا تحصى « الحمار يقدم لنا خدمات كثيرةً، يحمل على ظهره حطبا وكيسا من حشيش الحقل ويحمل السّماد، يحمل إلى المدينة حمولات من عنب ومن تين، ويعود من السوق بالشعير إلى العائلة أو في وقت الخضر بالفلفل والبطاطا...»[1]، هذا ديدنه، وهذه يومياته فما كَلَّ أو ضجر بقي وفيا لأهله وحتى وإن زهدوا في غذائه أو حملوه ما لا يطيق. إنّ هذا الحيوان الأليف والمنتشر في ربوع القرى والأرياف يمثل وسيلة فعّالة ليوميات القرويين ويستحيل الاستغناء عنه للوصول إلى الرزق، فعلى ظهره شُيّدت منازل وعلى ظهره حُمل متاع القرويين، وقضوا به حاجاتهم. وبواسطته حُمل المرضى إلى أقرب مصحة، فكان لهم نعم الرفيق والأنيس وهو بذلك يمثل السند المادي والمعنوي لهؤلاء السكان، فما اشتكى هذا المخلوق ولو نطق لقال أنا كائن يحيا في ثنايا القرى يصارع المكان والزمان شأنه شأن الأهالي بالصبر والجلد والتفاني في العمل المستمر ولن أتخلى عن المكان فالقرية هي مرتعي وسرّ وجودي، وهؤلاء القرويون مصدر سعادتي ولا بأس إن أجحفوا في حقي، لأنني أعلم أنهم ظلوا دائما يحيطونني بالمحبة والعطف على قدر أحوالهم.

هذه هي بعض صور من مظاهر القرية انطلاقا من هذه الرواية، والقاسم المشترك بين القرويين جميعهم الإصرار على أن يكون الواحد منهم رجلا يقابل

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 83.

الصعاب، فالمعيشة صعبة والطبيعة قاسية وظروف الاستعمار لا ترحم. فحتى الأطفال هنا تسلب طفولتهم ويتجاوزونها فيصبحون رجالا قبل الوقت. « على كل حال طفولتي تجري عادية وفارغة مثل طفولة عدد كبير من أولاد القبائل أرى نفسي مكتسيا جلابية قديمة عديمة اللون من سوء الغسيل لابسا شاشية ذات أطراف ممزقة ومتسخة بدون حذاء ولا سروال، رجليّ سودوين من الغبار وأظافري من الوسخ »[1].

هذا واقع الطفل بل الطفولة في القرية، فهو أكثر من هذا تجده لا يعير الاهتمام لحنان الأهل عليه وكأنه فهم حالهم وأعذارهم، فهم على الدوام يشقون في خدمة الأرض والرعي للحصول على الرزق فلا غرابة أن تجد الأطفال هنا كثيري الحنان على آبائهم وأمهاتهم سليقة وعفوية، بل يبذلون قصارى جهدهم لإسعادهم ولو على حساب صغر سنّهم وحداثة عهدهم بأمور الحياة وكأنهم أدركوا أنّ قريتهم ما فتئت تعلمهم قيم الصبر والصدق والرجولة وهي صفات أجدادهم وآبائهم. والأكيد أن القرية في هذه الجبال، ترغب على الدوام أن ترى أبناءها كبارا ليقاوموا تعنّت المكان والزمان وتريدهم رجالا قبل الوقت ليقاوموا المستعمر الغاشم ويحررون أوطانهم من الظلم والقهر. « إن قلوب هؤلاء الأطفال التي لا تفتح أبدا كثيرة وتبقى كبيرة بحنان منغلق »[2]. فالطفولة حبيسة هذه المرتفعات والوديان والهضبات وهذا لا يعني أن الطفل مهمل أو مرفوض، غير أنّ دلاله من طرف أهله مؤجل إلى إشعار آخر بحكم قساوة العيش وانشغال ذويهم بخدمة الأرض والرعي على الدوام إضافة إلى الظروف المحيطة بالمكان والطفل تفهّم الوضع فإذ به يرأف على أبويه وحتى الأقربين ثم إنّ حالة الأطفال هنا متشابهة فيما بينهم، فقلّما تجد طفلا مدللا، فقد يتحول ذلك في عيون الآخرين إلى مثار للسخرية وكمؤشر على ضعف شخصيته في هذا المكان الخشن الذي لا يقبل الخضوع للآخر، فكان الاعتماد على النفس مطلبا اجتماعيا ونفسيا أيضا بل ضرورة طفولية.

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 100.

(2) المصدر نفسه، ص ص 101-102.

هذه صورة الطفل في القرية، فالحنان عليه بالتقسيط، شغل دائم يثقل كاهله من خدمة الأرض إلى الرعي، وحينما يستأنس في جسمه بعض الفتوة والنماء، نجده يفكّر في الهجرة والهروب من هذا المكان المتوحش وبالخصوص في أيام الشتاء القارس حيث يعّم الضباب المكان وتعصف ويلات الطبيعة به، فإذ به يزداد قتامة وشراسة «الطقس بارد إنه الشتاء، في الكانون نار من عيدان الزيتون، تتقد صافية، غصن متكئ على جدار يميل برأسه على النار، اللّهيب يلحَسُه بهدوء فيسوّدُه شيئا فشيئا.. ثم يلتهمه »[1]. فهذه العتمة يعيشها الطفل شأنه شلأن الكبار بل ألفها وتعود على هكذا ظروف، بهذه المشاهد وصف الكاتب حال القرويين في فصل الشتاء، والكل ملتف نحو الكانون في حميمية، نور خافت ترسله النار المشتعلة يضيء لهيبه عتمة الدار وكأنه يزاحم النور الصادر من فوهات المصابيح التقليدية التي ظلّت تصارع ظلام البيت وظلام القرية ككل إنه صراع مرير، في عزّ ليالي الشتاء المخيفة وضآلة الإمكانات المادية. « أدخل عند نانا يوجد عندها ناس، مصباح البترول الصغير يشتعل بقوة على «أكوفي» في الكانون حطبة تتّقد »[2]. ونلاحظ أن المصباح يوضع في مكان عال لينير الدار، وغالبا ما يتموقع في أعلى هذا الصندوق الذي تجمع فيه الحبوب والمؤن ألا وهو أكوفي وقد عرّفناه سابقا، فما من بيت في القرية إلا وتقابلك في داخله هذه المؤثثات البسيطة المصنوعة بإتقان، والتي ظلت تفي بأغراض هؤلاء.

من هنا استطاع "مولود فرعون" أن يقرب إلينا بعضا من واقع القرية في جبال جرجرة ومن ثمة قرّب إلينا أهم مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، ومن خلالها يمكن للقارئ أن يعرف كيف أن القروي يملك القدرة على تطويع هذه الأمكنة وكيف يستطيع التكيف مع أشيائها في ظل تلك الظروف الصعبة، وفي ظل انعدام الإمكانات والوسائل ورغم ذلك يبقى القرويون أكثر تشبثا بقراهم، وهذه القرى وغيرها من الأماكن المنعزلة تبقى في نظرنا مادة خاما ظلت تلهم الروائيين الجزائريين، فمنها استلهموا أعمالهم الخالدة، كما باتت تستهوي الباحثين والنقاد والأدباء والفنانين، وكذلك

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 107.

(2) المصدر نفسه، ص 109.

المؤرخين لاستجلاء أسرار هذه الأماكن وسبر أغوارها، إنها جماليات المكان وهي مدفونة بعضها ظهر للعيان والبعض الآخر وهو الأكثر مخفي، ومسكوت عنه ينتظر الولوج إليه بحبّ ورغبة وفضول وقناعة أيضا للاطلاع على خبايا الأشياء في هذه المداشر والقرى، ولتقفي أثر الرجال والنساء والأطفال الذين قهروا تعنت هذه الأمكنة فأقاموا فيها حقبا عقب حقب لا الاستعمار أخرجهم منها ولا قساوة الطبيعة ولا إغراءات المدينة أيضا، ومن هذه المرتفعات والسفوح تخرج الرجال والنساء الذين قارعوا المستعمر الغاشم ومن هذه التضاريس الموحشة انطلق فورولو الشاب الرجل، ميمما وجهه نحو المدينة طلبا للدّراسة في النظام الداخلي، فيجتهد ويكدّ رغم قلة حاله، ليعود لاحقا إلى قريته معلما لأبنائها، فهكذا ظل وفيا ورادًا الجميل للمكان الذي ولد فيه ونشأ.

الأنموذج الثالث: القرية في رواية «يوميات بلاد القبائل» لـ "مولود فرعون"

ارتأينا كذلك أن نؤثر هذه الرواية، من ضمن أعمال الكاتب الجزائري، "مولود فرعون" لما خصّصته من حيّز هام للمكان بين ثناياها، –ولاسيما القرية– وهذه هي موضوع بحثنا هذا، فألفيناها حاضرة بكثافة والدليل على ذلك أن أول شيء يقابلك في هذه اليوميات هذا العنوان: «قريتي» وفيها يتوسل أحد سكانها المغتربين وهو يعود إلى قريته، طالبا الاعتذار منها، بعد أن ظل بعيدا عنها بحكم هجرته إلى أوروبا « تعلم قريتي بأنني تغربت كثيرا وعشت بعيدا عنها أكثر، غير أنها تكون قد ألفت إيابي لها في كل دورة وتعودت على رجوعي إليها في كل مرة. صارت لا تعيرني أدنى انتباه»[1]، هكذا أخذ المغترب يلتمس من قريته العذر وكأنه أساء إلى المكان بحكم هذا الغياب والبعد، كما استشعر عدم الرضا عليه، بعد أن غادرها وترك أهله وذويه بين مخالب الفقر والمشقة ووحشة المكان، وقد أحسّ بالذنب وتأنيب الضمير، فراح يحدثها متحسرا. وفي حديثه مع قريته يتضح للقارئ مدى تعلق القرويين بقراهم سيما المغتربين منهم، حيث يكبر الشوق والحنين إليها، ورغم أن المكان يذكرهم بقساوة الطبيعة وشظف العيش، ويذكرهم بالأمية والجهل والمرض والجوع والحيف وسوء الحال، لكن أفئدتهم ومع ذلك ظلت على الدوام ترحل إلى هذه المرتفعات والسفوح الجبلية، فالقرية لا تزال دائما سرّ وجودهم، ورمز انتمائهم ودليل هويتهم، فما فرطوا فيها لحظة، فهذا المكان العزيز عليهم لا يزال يسري في دمهم على الدوام، منه خرجوا وإليه يعودون إن آجلا أم عاجلا وقد كبرت أحلامهم كما كبر حبهم لقراهم وهم في ديار الغربة، ولا بأس إن رأوها بين الفينة والأخرى أنها كانت مصدر شقائهم وسببا في اغترابهم رغبة في تحسين أحوالهم.

« لقد ازدادت بشاعة في نظرهم لكونهم عادوا من بعيد بعد غيبة طويلة، رؤوسهم لا تزال محشوّة بالمناظر الجميلة... لكنهم يحبونها في أعماق أنفسهم حبًّا جمًّا حتى وإن لاكت ألسنتهم غير ما أضمرت قلوبهم »[2] فمهما صعبت اللحظة وشقّ الأمر فإن

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 7.

(2) المصدر نفسه، ص 8.

الرغبة في الارتماء بين أحضان القرية، رغبة لا توصف، مناظرها لا تزال أخّاذة جذّابة، سحرها لا تسعه الكلمات، إلى درجة أنساهم تلك المعاناة وتلك القساوة التي عاشوها بين أحضانها، بل وذلك الجهد المتواصل للحصول على الرزق.

فمن خلال هذا الارتباط النفسي والروحي بين القروي المغترب وقريته، تقلّ درجات الاغتراب في قلوب هؤلاء، وهم يتذكرون دائما أنه في هذه التضاريس الموحشة الرهيبة أيضا، قضوا أيام طفولتهم وشبابهم، بين أهليهم وذويهم، وبين دروبها وأحراشها ووديانها وسهولها ومرتفعاتها وأشيائها وأكواخها كبرت أحلامهم وآمالهم «إنهم في النهاية يشاهدونها كما هي في الواقع ويجدون فيها سحرا خاصا بها، يسترجعون فيها انتماءهم إليها ومن ذلك الأوان لن يصبحوا غرباء عنها »[1]. وهذا شعور داخلي لا يمكن ترجمته في كثير من الأحايين فيظل دفينا وسرعان ما يتحول إلى الشوق والحنين واللّهفة إلى العودة إليها حينما تحين الفرصة وفي نفوسهم أمل في نشوة اللقاء بهذا المكان العزيز.

ومن فرط حب الأهالي لقراهم، وخاصة أبناءها المهاجرين، يتخيل إلى بعضهم أنه قد أساء إليها في لحظة من اللحظات وهو يهمّ بالخروج منها فيتصور حينذاك أنها غاضبة عليه، وكأنها تلومه وتعاتبه على هذا الهجر والانفصال فأخذت تسخر من هندامه الجديد، غير المألوف، حين يغادرها أو يعود إليها، وبذلك تبدو في تحدّ معه لتكسر علياءه وتكسّر خاطره، فمهما عاش في ديار الغربة نظيفا أنيقا فإنه عائد إلى قريته لا محالة، حيث الأتربة والغبار والأوحال وفضلات البهائم.

فهاهي تخاطبه « تأمل بذلتك الجميلة وحقيبتك، أنت متميز! لا تنس أن بذلتك هذه ستفقد ثنيتها سريعا وسأتولى ذلك، ستتلطخ ببقع الزيت، وسيتراكم الغبار الخفي بين خيوطها، وينتزع منها بريقها.. وستضطر ذات يوم.. إلى استعمالها للعمل في الحقل لنكش الأرض وفلحها يومئذ ستعرف مصيرك! »[2]، فمن خلال هذه الحوارية ولو على سبيل المجاز بين القرية وبين أحد أبنائها العائدين من الغربة، نستنتج مدى حساسية

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 8.

(2) المصدر نفسه، ص 9.

المكان بأهله ومدى العلاقة الوطيدة بين الإنسان والمكان، فحينما تتوطد العلاقة بينهما، يكبر الإحساس وقد يستحيل إلى نقد ولوم، فالمكان بأهله وذويه مهما تعنتوا وابتعدوا عنه، فهم راجعون إليه لا محالة، وحينذاك تجد المكان كأنه يبدي عدم ارتياحه للذين تخلوا عنه أو نأوا عنه، فها هو بدوره أيضا يدير لهم بظهره ويقابلهم ببرودة، فكأنّ صوتا على نكران الجميل يصل مسامعهم. أمّا هؤلاء فتنتابهم الحيرة إزاء هذا اللوم والعتاب، لأنهم يدركون في قرارة أنفسهم أنهم ما خرجوا عن قراهم إلا ليعودوا إليها مهما طال الزمن وبعُد مكان الاغتراب. وفي نيّتهم، بل في طموحهم، يعودون إليها بأحسن حال، وربما يجدون قراهم قد ارتدت حلّة جديدة، وزال عنها بعض الفقر والعوز، لكن ذلك طموح بعيد المنال في مثل هكذا ظروف، فالأمور في أعين هؤلاء العائدين لا تزال على حالها، والقرى في هذه التضاريس الوعرة لا تزال ترقد تحت وطأة المعاناة، « إن قريتنا تزدري بالادعاءات المتعجلة، وتنهك الآمال الواسعة، وتبقى وفية لتلك الحال على الدوام.. كانت قريتنا شديدة الحساسية »[1]، فكأن الحظ شاء لهذه الأماكن أن تنثني تحت وطأة الفقر والعوز وسوء الحال بعد سنين وسنين فلا شيء تغير، بل بالعكس ازدادت بعض مظاهرها سوءا.

فالمكان لا يزال تعسًا، وذلك ما يحزّ في نفوس أبنائه، والأزقة لا تزال ضيّقة ومتسخة، غبار وأوحال وقيل وقال بين الأهالي، فحتى كبار القرية الذين يصطلح عليهم «رؤوس تجماعت» فهم في قفص الاتهام، كونهم يتفرجون على هذا الواقع المزري، وليتهم حرّضوا الشباب على تحسين أوضاع القرى الممكنة على الأقل فانطفأت فيهم روح المبادرة لتغيير حال قراهم ولو نسبيا، فالأوساخ هنا وهناك تملأ المكان، إلى درجة وكأنها تتسابق إلى تشويه المنظر العام، وكان بإمكانهم وبما يملكون من وسائل متواضعة أن يحسّنوا من وجه هذه الأماكن التي يعيشون فيها ويحيون بين جنباتها، وكأنهم راضون بتلك الأوساخ المتراكمة في هذا المكان، فلا أحد يحرك ساكنا لإزالة الأوساخ وتنظيف الأزقة والدروب، فأينما أدرت وجهك في القرية تقابلك أكوام من الأوساخ يصطلح عليها مزبلة القرية «**أقوذو**» في تعبير الأهالي، فهو مكان يتضخم

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 8.

كل يوم من جرّاء الأوساخ التي ترمى إليه فوضويا، حتى غدا تربة خصبة للحشرات والزواحف والروائح الكريهة، فها هي القرية وبسخرية هادفة تشكو حالها إلى أبنائها «يمكنك أن تختلس النظر إلى **أقوذو (مزبلتي)** وستعاين بنفسك بأنها قد تضخمت شيئا ما »[1]، مع العلم أن هذا المكان غالبا ما يجاور الديار والحارات والغلّات، فقلّما تكون المبادرة لتنظيم أو تخفيف عبء الأوساخ عنه، فأضحى بقعة قاتمة تزيد المكان نفورا. إن هذه الصورة السوداء عن المكان باتت تستفز القرية وأهلها بل تتوعدهم أيضا بأنها ستسيئ إليهم هي كذلك، وتشوه لباسهم الأنيق، وتخص بالوعيد أبناءها المهاجرين العائدين لقضاء عطلهم في رحابها. فهم أيضا منعدمو المبادرات رغم تحسن وضعهم المادي، فها هو المكان ينطق ويقول « لا تبتئس كثيرا فمازال هناك مزيد من الأوحال في الأزقة وما يكفي لتلطيخ حذائك الملمع وحتى أسفل سروالك...ثم إنها ليست كلها أوحالا، متى ستأتي للجلوس على صفائح تاجماعت؟ »[2]. فهي بالتأكيد مغبرة، متسخة وقد تمزق ثياب الجالسين عليها، علما أنّ تاجماعت مكان جلوس الرجال وتجمعهم ولقاءاتهم ومكان اتخاذ القرارات الحاسمة لصالح القرية.

فمن خلال هذه المساءلة التي تصوّرها الكاتب، يتجلى لنا واقع القرية في هذه الجبال، فكأن الطبيعة النقية الطّاهرة تأبى الأوساخ وتحرك في نفوس الأهالي الرغبة في تطهير المكان كطهارة القلوب التي تتشبث بهذه المرتفعات، فالأهالي والسكان منشغلون دوما بخدمة الأرض ولا يعيرون لنظافة المكان أي اعتبار، فألفوا الغبار والأتربة والأوحال وروث البهائم وبقايا الخضر والفاكهة، ولا يجدون في تلك المناظر حرجا، طالما تساير حياتهم البدائية، ثم قد تعودوا على مثل المناظر، ممّا أخمد فيهم روح التجديد ولو نطقت القرية لقالت: أخرجوا عني هؤلاء، فلقد تنكروا لي ولأهلي تنكروا للأرض الطيبة التي ولدوا فيها ونشأوا.

إنّ الشقاء لا يزال يصفع المكان باستمرار، فحتى بعض مظاهر العصرنة التي تحدث أحيانا في بعض العمران، تبدو غريبة للمكان ولأهله، وهذا ما أثار انتباه بعض

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 11.

(2) المصدر نفسه، ص 12.

المغتربين أثناء عودتهم، فبين الانبهار والتأسف، انتابت الحيرة هؤلاء، من لمسات التجديد التي حدثت وتأسف من جهة أخرى على ضياع الجانب التقليدي الجميل للقرية. « هذه الطريق المؤدية إلى المقبرة قد تعصرنت أيضا، ليست سيئة بالمرة، إنها واسعة ومبلطة، أنت فخورة بها أليس كذلك.. هاهو ذا مرآب لم يكن موجودا أثناء زيارتي في العام المنصرم وبجانبه معصرة زيت ورحى يشبه ضجيجها محرك طفطافة.. غزتك الآلة إذن وصرت تأخذين أبعادا جديدة.. بيد أنّ ما يقلقك هو القمامة»[1]، إن هذه الأخيرة مُصرة على تشويه أمكنة القرية حتى شهدت بعض التعديلات لكونها سطحية وعابرة غالبا ما تحدث لمناسبات ظرفية، ثم تعود الأوساخ كما هي تزاحم السكان وهم راضون أو عاجزون، فيكتفون بترقيع منازلهم أو على الأكثر حاراتهم وبعض حقولهم، ولذلك تقابلك سكناتُ القرية وهي تشهد من حين لآخر بعض الترميمات وبعضا من التحول في نمط العيش، وحتى المرافق الأخرى أيضا ولعل أمنية السكان هنا، أن تتزود قراهم بالكهرباء والماء، وما ذلك بعزيز على هؤلاء السكان الذين تصدوا للمستعمر الغاشم بشجاعة وقوة قلما يتصدى بها غيرهم في سائر الأمكنة، أفلا تستحق هذه المرتفعات أن يزول عنها بعض الشقاء فيسعد سكانها بعد سنوات الجمر والاضطهاد وتقل الأوساخ المتراكمة، وحينذاك ترتدي القرية حلّة جديدة في أعين أبنائها، وتكبر لهفة المغتربين للرجوع إليها، وقد انزاحت عن وجهها بعض مظاهر المعاناة. «أنت بلون الأرض ومنها شيدت. إن الأرض سليمة ومتواضعة ونقية، أنت شبيهة بريفية رقيقة الحال ولكنها من فرع عريق يجب محوك وقلعك من الجذور ونقل رمادك إلى مكان آخر وتشييدك على بقايا ذلك الرماد كي نعطيك وجها آخر »[2]. هذه بعض أمنيات الأهالي في هذه التضاريس الموحشة، وهي من أبسط ما يتمناه المرء في أرضه، في وطنه، في قريته، عيش كريم وطهارة المكان لمسايرة طهارة النفوس وقوة العزائم. فبهذه الصورة الجميلة استنطق "مولود فرعون" جمالية المكان من رحم المشقة والمعاناة وقساوة الحياة، فكأنه يقول إن القرية من معدن أصيل ولن تجرؤ

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص ص 12-13.

(2) المصدر نفسه، ص 13.

هذه الأوساخ على الإساءة إليها، أو النيل من جمالياتها، فما تلك القاذورات والأوساخ إلا تصرف طائش لبعض الساكنة عديمي الضمير والإحساس من جهة، وللجهل الذي يخيّم على هذه القرى والمداشر، التي تفنّن المستعمر في إيذائها باعتبارها معاقل التحدي والمقاومة وكذلك الثورة للتحرر والانعتاق.

ومن جانب آخر يستوقفنا الكاتب في هذه الرواية أو في هذه اليوميات على تلك الرغبة الجامحة للأبناء المغتربين حين تمتد بهم الأعمار، في أن يُدفن هؤلاء في ثنايا قراهم، علما أنّ لكل قرية مقبرة أو لكل مجموعة من العائلات مقابر خاصة بها، وهي في غالبها بسيطة متواضعة كتواضع أهلها وبساطة عيشهم، وكأن الأحياء يحنون إلى موتاهم ويتمنون الرقود بجانبهم، فهم أهلهم وذووهم وأقاربهم « قبر صغير لا يختلف عن جميع القبور لأنه لا يحمل أي خط والذي ما أن يحل عليه الربيع المقبل حتى يكتسي بأعشاب النجليات الهزيلة والبليس الأبيض »[1]، هكذا تتغمس القبور في بطن الأرض، فتأكلها الأعشاب والأحراش، غير أن القرويين يبادرون بين الفينة والأخرى إلى تنظيف هذه الأماكن الروحية، بل ويتنافسون في ذلك، لاسيما في المناسبات الدينية، لجعلها على الدوام مرجعية لهم، فهي تذكر الإنسان أينما حلّ وارتحل بمصيره وبداره الأبدية وبتواصله مع أهاليهم من الموتى، وتذكرهم بحقيقة الموت، وما الدنيا إلا متاع زائل، فلماذا الخصومة والحسد والكره والغل بين سكان المعمورة، ولماذا الشحناء والصراع بين الأهالي في هذه المرتفعات والتضاريس الوعرة حتى على شبر من الأرض أو على درب ضيق أو زقاق لا منفذ له؟ أو لسبب تافه وكل ذلك من جراء الغضب والاندفاع والأنانية وضيق المكان رغم شساعة القلوب من جهة والعلاقات العائلية التي تسود بينهم من جهة أخرى.

وفي هذه اليوميات أيضا، نقف عند أمر هام، يميز القرى في هذه المرتفعات ألا وهي «**ثاجماعث**»، وهي في الغالب تكون مكانا يتوسط القرية أو يتموقع في ركن من أركانها، وفيها يلتئم رجال القرية وليس لأحدهم أن يدعي أن المكان ملك له. «ثاجماعث مكان مخصص للرجال، لجميع الرجال، إنها ملك عام، لا حيازة فيه لأحد

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 15.

كما لايهم من يلتقي فيها وما أن نَسِمَهَا بوسم ثاجماعت حتى تصبح معلما قائما بنفسه ومكتفيا بذاته »[1]. إن الأمر المهم هو أن يلتقي السكان في هذا المكان، فيتبادلون كثيرا من الأفكار والآراء والرؤى، كما يتناقشون في أمور البلد والعباد، فيما يشبه الرأي والرأي المعاكس، وكثيرا ما يحتدم النقاش وتتشعب الحوارات بينهم إلى درجة تبدو وكأن المجتمعين يتخاصمون، وأصواتهم تملأ الآفاق ورغم ذلك فإنهم يتلاطفون فيما بينهم ويتبادلون الحديث والعواطف والأفكار، ويمدّ بعضهم البعض من تجاربه وخبراته في جد ومزاح في آن واحد. ولهذه التركيبة الاجتماعية «**ثاجماعت**» تاريخ وتأصيل، فهي بمثابة الهيئة العليا الحاكمة للقرية أو هي السلطة المخولة هاهنا، لها ضوابط وقوانين عرفية، أهمها: الانضباط والانصياع للأعراف والتقاليد، فيها يحترم الكبير الصغير ويستمع الصغير للكبير، وتوزع الكلمة بالدور أثناء الأمور الجادة. والأهم ما فيها أنه يتم علاج مشاكل القرية ونزاعات السكان لفضها نهائيا أو الحد منها، وفي رحاب هذا الهيكل التنظيمي يخطّط أيضا للمشاريع التي يمكن تجسيدها في القرية على بساطتها وتواضعها، والأكثر من ذلك كله، أنه في ثناياها تنضج أفكار النضال والتحرر والانعتاق من مخالب الظلم والاضطهاد في هذا الظرف الصعب من تاريخ الجزائريين، ومن هذا المنبر يكبر حبّ الوطن، والوطن يبدأ من هذا المكان الصغير. « لقد بقيت صورة ثاجماعت القديمة عالقة بذهني وعلى حالها، لا تختلف ثاجماعت القديمة اختلافا كبيرا على ما يمكن أن نشاهد اليوم، لكنني أفضل صورتي الذهنية على هذه إنها بعد كل شيء طبيعية أكثر من هذه، لم يكن في الماضي سوى مقعد واحد مغطى »[2]. هكذا تترسخ صورة ثاجماعت في أذهان السكان المقيمين أو الراحلين، فلهذا النظام غاياته وأهدافه الاجتماعية والسياسية وحتى النفسية لما يحمله من مهابة ووقار. ومن جهة أخرى فإن ثاجماعت في القرية تمثل أيضا مظهرًا من مظاهر التآلف والأخوة والمؤازرة والتكاتف بين السكان وكم يحلو الجلوس في رحابها، كما يحلو الحديث والسمر أيضا بين الحاضرين وهم في هذا الفضاء الرحب، وفي هذا المقام ينسى

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 17.

(2) المصدر نفسه، ص 20.

الرجال الكبار منهم والشباب بعض عناء العمل اليومي وصورة البيوت القديمة الضيقة ويستريحون إلى حين، من أصوات النساء والأطفال والجيران وحتى المواشي الرابضة في جنباتها والكل يجلس هنا جنبا إلى جنب بعضهم في عناد ومزاح وضحك وجدّ، والأحلى أن بعضهم يتزاحم على حجز المقاعد الحجرية الملساء حيث تسمح لهم بالاتكاء على الجدران المهدمة أو جذوع الشجر أو ما شابه ذلك، لأن الجلسة ستطول « وإذا حدث ذات يوم أن اكتظت المقاعد بالحاضرين لفرح فما أسعدنا بذلك!... إن ثاجماعت للجميع بكيفية ما ولكل واحد منا بكيفية خاصة »[1]، تلتقي فيها لحظات الجدّ ولحظات المرح أيضا فالكلّ هنا يجلس على مقاعد متواضعة كما أشرنا سابقا، وهي عبارة عن أحجار ملساء، وغالبا يدفن نصفها في التراب. « يمكننا أن نشاهد أسفل المقعد العريض صخرة ضخمة من الحجر الرملي، قد دفن نصفها في التراب، تلك الصخرة الرملية تكون قد جلبت من الوادي على كواهل رجال مجهولين »[2]. ولا يهمّ من أحضرها فهي اليوم تفي بالغرض، فعلى هذه البساطة والعفوية يلتقي الرجال القرويون في هذه المساحة العذراء، هذا جالس على الحجر وذاك على لوحة خشب أو جذع شجرة ظلّ مرميا لسنوات، وذلك على أديم الأرض مباشرة في جلسة القرفصاء، وغالبا ما يتنازل صغار السن للكبار عن بعض المقاعد المريحة نسبيا. إنّ هذه الصورة الجميلة ظلت محفورة في نفوس الشباب المغتربين على وجه الخصوص، فحينما يتذكرون المكان ويتذكرون تلك الجلسات، وذلك التسابق العفوي لاحتجاز المقاعد في ثجماعث، يكبر الشوق ويشتد الحنين للرجوع إلى قراهم التي ولدوا فيها ونشأوا بين أحضانها، وتنسموا هواءها، فيتلهفون لرؤية أهاليهم وذويهم، حين كانوا يجالسونهم في ثجماعث، فتمنوا من جديد أن يعايشوا معهم أوقات المرح والمزاح، خاصة حينما يتخاصم بعضهم على مقاعد الجلوس، لكنه خصام لطيف متعمد أحيانا سرعان ما يتنازل هذا لذاك عن مقعده. في جوّ من الضحك والمرح وتبادل للهمسات البريئة فيصرخ هذا ويغضب ذاك ويقهقه ذلك. « كان الأفراد يجلسون كيفما اتفق، ما خلا

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص ص 18-19.

(2) المصدر نفسه، ص 19.

أيضا مقعد العجوز «**أوسادة**» «**وأوسادة**»، هذا كان رجلا ضريرا وكان يؤثر مقعدا دون غيره... وبسبب مواظبته على ذلك المقعد، أطلق عليه الأفراد اسم مقعد أوسادة ومنذ ذلك الحين التصق الاسم بالمقعد »[1]، هكذا يتمازح هؤلاء في ثاجماعت، فكل شيء يسعدهم، فحتى هذه الأحجار الخشنة التي تتخذ كمقاعد، تستحيل إلى موضوع نقاش رائع، فيطول الحديث وتتشعب الموضوعات ومن هذا الفضاء يتعلم الصغار عن الكبار، وينهلون من تجاربهم ممّا يسهل لهم مرحلة العبور إلى فترة النضج ومعالم الرجولة، وإذ بالقرية تبدو وكأنها المدرسة الأولى في الحياة، فيها يتعلم الرجل والمرأة أبجديات الدنيا وما أصعبها! ويتبادلون الرؤى حتى في أبسط الأمور. وفي الحديث عن القرية في ثنايا هذه اليوميات، يستوقفنا مؤلفها "مولود فرعون" أيضا عند تقاليد وأعراف وطقوس، دأب القرويون عليها في حياتهم بين هذه التضاريس الوعرة، فتشبثوا بها لأنها تراثهم الذي يعتزون به على الدوام، ورمز هويتهم وشخصيتهم ودليل انتمائهم ونذكر على سبيل المثال «**الوزيعة**» أو ما يصطلح عليه القرويون «**ثمشرط**» فمن خلال هذه العادة يتفق أهل القرية على جمع مبلغ من المال لشراء ثور أو أكثر، يذبح ويوزع لحمه على ساكني القرية في هبة تضامنية، وفي جوّ احتفالي مهيب، يحضره الكبار والصغار وتنتشي النساء، وهنّ يستعدن لتحضير أجمل الأطباق، تعلوها طبقات اللّحم والشحم ففي هكذا مناسبات تتكسر نمطية الحياة ويدبّ النشاط وتكبر فرحة الأهالي وتمتزج صيحات الأطفال بأصوات الكبار وتتوقف الأشغال الشاقة اليومية في هذا اليوم لانشغال الجميع بهذا النشاط التضامني الأخوي.

« جمعوا المال الكافي بنشاط وحيوية، وتوجهوا إلى السوق واشتروا الثيران اكتشفنا في هذه الأثناء أنّ الجيران لم يروا حلما ولا رؤية وعلى العكس من ذلك أجبرناهم على اتباع خطانا »[2]. فبهذه القناعة والحيوية بين الكبار في البدء ثم الصغار لاحقا، ويشرع في تفعيل هكذا مبادرات اجتماعية، وهي في الغالب تتم في المناسبات الدينية كالأعياد المختلفة أو حتى في غيرها، وفي هذه الأجواء تختلط فيها

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 21.

(2) المصدر نفسه، ص 51.

جدّية الكبار بمزاح الصغار وركضهم هنا وهناك، فتكتظ ثاجماعت بالناس باعتبارها مركز القرية. وفي هذا اليوم أيضا يستريح الأهالي من أشغال الأرض والرعي، كما أسلفنا ليتوجه الجميع إلى هذا الحدث الاجتماعي في جوّ يشبه العرس خاصة لدى الصغار، فتراهم في إقبال وإدبار بين أزقة القرية والنساء منهمكات في الاستعداد للطهي واستقبال كومات اللحم.

« عندما وصلت الحيوانات إلى ثاجماعت، تحلق الأطفال لرؤيتها وصمت الكبار، أخذ الصبية يقتربون منها، ويمسّحون عليها ويناولونها أحضانا من العشب يمكنهم الضحك والصياح والنط »[1]، إن مثل هذه الأجواء هي من الأهداف النبيلة التي كرستها هذه العادة وهي «**ثمشرط**»، وهي فرصة لفرح الصغار، لا تضاهيها أية لحظة أخرى في حياة هؤلاء القرويين، وسيكون الرجال والكبار في غاية السعادة، وهم يرون فلذات أكبادهم تمرح وتجري وتقفز وتقترب عند الثيران تارة، وتبتعد تارة أخرى فتلتقي لحظات الخوف والتوجّس بلحظات الفضول والاستكشاف والمتعة، فلا تسمع إلا صياح الأطفال وضحكات الكبار وملاحظاتهم أيضا، فهذا يجري وذاك يجلس والآخر يتأمل، والجوّ يسع الجميع يقينا. « يتفهم الكبار كل ذلك، وإذا بدت على وجوههم مظاهر الجدية... فإنهم في قرارة أنفسهم يتقاسمون نفس فرحة الأطفال وأنهم ينتظرون بفارغ الصبر شرائح لحم يوم الغد »[2]، فنلاحظ أن الفرحة تعمّ كل سكان القرية برجالها وأطفالها ونسائها، وهنّ بدورهن يحضرن أنفسهن لطهي الكسكسي بلحم ثمشرط، وقبل ذلك يحمسن أبناءهن للذهاب إلى ثجماعت والجلوس مع الرجال، لرؤية الثيران واختلاس زمن رائع من زمن القرية المثقل على الدوام ولاختطاف دروس الرجولة أيضا من لدُن الكبار، فهذا الاعتقاد ظل يترسخ في نفوس الأهالي سيما عند النساء، فهنّ يحرضن أولادهن لمقاومة الصعاب والاعتماد على النفس ولا بأس إن كسرن هذه الرغبة ببعض المزاح واللطف في هذا اليوم يوم «ثمشرط» وإذ بهن يلاطفن أولادهن «ثيرانكم وصلت إلى ثاجماعت، أسرع لتراها... من بينها ثور ضخم بقرنين ملتويين

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص ص 51-52.

(2) المصدر نفسه، ص 52.

وخواره يشبه الرعد...»[1]، بهذا الوصف الصادر من النسوة، تكبر نشوة الأطفال ويشتدّ فضولهم، فيهرعون إلى قلب الحدث في غمرة لا توصف، لأن هذه المشاهد يقل حضورها في هذه الأماكن، فبهذا التحايل في الخطاب يخرج الأطفال من البيوت ويغادرون الأزقة والحارات حيث الحدث، وبذلك تتمكن النساء من إنجاز أشغالهن المنزلية في هدوء وسكينة، وقد أَنِسْنَ بتواجد أبنائهن مع الكبار في أجواء الفرح ها هناك في تمشرط وربما استرحن أيضا من طلباتهم الكثيرة وصيحاتهم اللامتناهية.

وهذه المناسبات التي يعيشها القرويون ويحيونها تُقَّوي أيضا نسيج العلاقات فيما بينهم، وحتى مع غير القاطنين معهم لكنهم ينتمون إلى القرية، وهنا تغمر الفرحة السكان جميعا حين يحضر هؤلاء الأباعد إلى هذه المناسبة، بل أكثر من ذلك فهؤلاء يساهمون فيها ماديا ومعنويا، يدفعهم إلى ذلك تعلقهم بقراهم، وإن نأوا عنها وابتعدوا ففي مثل هذه الظروف يلتمُ شمل القرويين فيلتقي الأهالي المقيمون وغير المقيمين منهم بالمقيمين وغير المقيمين منهم، فتتم اللقاءات والزيارات والمجاملات بين هؤلاء وأولئك ويعود الحنين إلى الأرض بعد أن جمعتهم مثل هذه المناسبات فيلتقي جميعهم لتنشيط هذا الحدث ماديا ومعنويا، فتعمّ الفرحة أجواء القرية وتتكسر الحواجز الاجتماعية والكل في نشوة لا توصف، علما أن هناك تحضيرا مسبقا لهذه الوزيعة تصحبه متعة وحيوية ونشاط لدى القرويين سيما عند المعنيين بهذا الأمر، فالمهام توزع سلفا على أصحاب المبادرة والمسيرين من لحظة شراء الثور إلى إيصاله إلى الإسطبل ثم التكفل بإيوائه وأكله وشربه، إلى غاية ذبحه وسلخه وتوزيع اللحم إلى كومات أو ما يسمى «**بثخامين**» بمصطلح القرويين أي البيوتات، فكل بيت له نصيبه من تمشرط مع الأخذ بعين الاعتبار عدد أفراد كل عائلة. « سيعقد اجتماع يوم غد من أجل توزيع الأعباء، الرجال الأقوياء البنية سيكلفون بالذبح والسلخ والتقطيع والصبيان بالسرخس ويأتي الوجهاء للتشجيع والمحادثة والمعاكسة وأحيانا للزجر »[2]. هذا مظهر من مظاهر الاستعداد لهذا الحدث، حماس ومرح ومتعة، كلها أجواء ترافق الحاضرين،

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 52.

(2) المصدر نفسه، ص ص 52-53.

إنها سُنّة دأب عليها القرويّون في هذه المرتفعات والجبال والسفوح والتضاريس الوعرة، والجميع يساهم في هذا الحراك الجميل بما يملكه من إمكانات ووسائل مادية أو معنوية في جوّ تتعالى فيه الأصوات والنداءات على بعضهم البعض، ولا يحق لأحد أن يغضب أو يبدي ما يعكر صفو المناسبة. وفي لحظة الذبح ارتأى صاحب الرواية أن يعلمنا على أن إحضار الجزّار في مثل هذه المناسبات ليس أمرا هاما، فكبار القوم من السكان سيتولون هذه المهام من تلقاء أنفسهم في متعة ورضا « يجب القول بأنه لا يوجد جزّار لدينا. إن الفلاح عندما يقحم نفسه في تقطيع لحم العجل فإنه يشن عليه مجزرة... يرتعد ويتصبب عرقا ويتلطخ بالأحمر وينطلي بالشحم وتلمع عيناه ويصيح بأعلى صوته، ويهوي بكل ما أوتي من قوة بساطوره على الجزرة ويقطع بخنجره اللحم ضاغطا على أسنانه كما يهزأ ويمزح ويغضب »[1] والأكيد أن هذا الرجل الذي سيتولى مهمة الذبح سيكون شديد البنية وعريض المنكبين تتملكه رغبة قوية في جذب واستقطاب أنظار الحاضرين وهو يستعرض قوته وخبرته في ثقة واعتزاز بالنفس، وقد التفّ حوله الكبار والصغار، في ضحك وصراخ وذهاب وإدبار.

هكذا رسم لنا "مولود فرعون" صورة رائعة عن لحظة ذبح الثيران من طرف أحد الفلاحين المهرة، وبهذه الصورة تتراءى لنا القرية فضاء للتضامن والاستمتاع واللقاءات الحميمية، سيما أثناء إحياء هذه المناسبات. ويحدث أن يحضر في هذه المناسبة ضيوف من القرى المجاورة ممّا يزيد للقرية كل التقدير والاحترام، ومن هذا المنطلق يدرك القارئ أنّ القرية ليست كما يراها الأباعد كفضاء للشقاء والقساوة والمعاناة ودروبا وعرة وأحراش وزواحف وشظف العيش، فقد تتحول من لحظة لأخرى إلى مصدر إلهام ومصدر أنس وتعايش وحيوية. وفي هذه الأجواء الحميمية، يشير المؤلف إلى تلك المواويل والأشعار والأذكار و«أشويق» التي تلهب حماس الحضور وهي تصدر من حناجر الرجال الكبار بالخصوص، في الوقت الذي يكون الجميع منهمكا في تقطيع اللحم وتقسيمه إلى بيوتات صغيرة، على حد تعبير القرويين كما أسلفنا الذكر لينصرف الجميع بعد إنهاء المهمة على أنغام الدعاء إلى الله ليحسن ظروف المكان والعباد في

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق ، ص 54.

جو مهيب، وفي المساء تجتمع العائلة حول الكانون، أي الموقد في نكهة خاصة سيما في فصل الشتاء البارد، والكل ينتظر العشاء الذي يزدهي باللحم هذه المرة. ليأكل جميع الأفراد دفعة واحدة والأكيد من قصعة واحدة أيضا والأجمل أنّ ربّ الأسرة رجلا كان أو امرأة، يأخذ في الحسبان وهو يقسم اللحم على الأفراد، نصيب الأفراد الغائبين عن الأهل والديار، ويدعون لهم بالعودة الميمونة وبالصحة والعافية إلى ديارهم وأهلهم وكأنهم بهذا الدعاء، وبذاك الإحساس يلمحون إلى وجودهم الدائم فيما بينهم وبين ذويهم. « ونتذكر بحنان الغائب الذي في فرنسا والبنت المتزوجة التي سوف نذهب لرؤيتها غدا »[1]، وهي بدورها تطل من عتبة دارها متلهفة لمجيء أهلها في مثل هذه المناسبات التي تقتضي واجب صلة الرحم ولا شك أنّ مكانتها تزداد شأنا وعلوا في دارها وبين زوجها وأهله، بحضور أهلها وذويها، إنه انتصار معنوي قبل أن يكون ماديا، فالمرأة في هذه القرى حتى وإن تزوجت، تظل مستأنسة بأهلها دائما منتظرة قدومهم سيما في المناسبات الدينية أو الاجتماعية.

وبهذه الصورة تلتفت القرية إلى أبنائها دون استثناء ولو لفتة معنوية، وهكذا تتقوى أواصر الترابط والتلاحم بين الحاضر والغائب، فيعانق الحاضر الغائب، وتكبر لحظة الاستذكار إلى درجة البكاء المتبوع بالحسرة والأسى، وفي اليوم الموالي وقد انتهى جو "تمشرط" ترجع الأمور إلى طبيعتها ليلتحق كل واحد بعمله أو بحقله، بعد أن استمتع الجميع، وأخذ كل واحد نصيبه من لحم ثمشرط، ونال حظه من أدعية تقشعر لها الأبدان صادرة من طرف شيوخ وأعيان وأئمة القرية، وفي مثل هذه المناسبات، يستغل الحاضرون الكبار منهم خاصة الفرصة لجمع مبلغ من المال من طرف المحسنين والمتبرعين عن طيب خاطر، لينفق ويصرف لاحقا على ما يعود بالفائدة على سكان القرية، فما أروع هذه الأجواء، وهي تضيف الجمال لجغرافية المكان فحتى ليالي القرية تجدها مرصعة بالنجوم التي تتصدى للظلام الذي يسكن المكان ممّا يتيح للسكان الخروج في مرح وزهو سيما في الصيف، حيث الدفء والهواء العليل وفي الشتاء حكاية أخرى أيضا. وهذه المشاهد تعود عليها القرويون وألفوها.

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 59.

« ليلة فرح في كل البيوت، تَلتَمْ العائلة حول الموقد... تشتم رائحة المرق الشهية»[1] ففي هذه الأجواء تكبر فرحة الصغار أيضا بين ذويهم وأهلهم وأقرانهم. «يتحادث الأطفال ويتراشقون بالكلام في انتظار المرق »[2]، والأروع في هذه المناسبات، أن مثل هذه الولائم تأخذ طابع الصدقة عموما، إذ غالبا ما يتولى تمويلها المتصدقون، والمحسنون وأغنياء القرية سواء منهم الأباعد أو الأقارب الساكنين أو البعيدين. « كانوا كلما همّوا بشراء حيوانات للتضحية توجهوا إلى المتطوعين والمتصدقين والأغنياء.. كانت تلك الوليمة صدقة.. وكان الشيوخ إذا أرادوا حثّ الأغنياء في الاجتماعات التي يتمّ فيها جمع الأموال يدعون لهم بأدعية تقشعر لها الأبدان »[3]. وقد أحسن كبار القرية قراءتها والتمثيل لها.

هكذا كان الأهالي يتصرفون في هذه القرى، إذ لا تمنعهم ظروف الاحتلال والاضطهاد والقهر من إحياء تقاليدهم وعاداتهم، فلا يفرطون البتّة في هذه العادات التي ترسخت في ذاكرتهم التاريخية والاجتماعية والدينية فلا العوز يثنيهم ولا قساوة المكان ولا جهنمية المستعمر، الذي ما فتئ يحاول محو كل ما هو هوية وتراث ليقف هذا العدو الغاشم حائرا منبهرا، مستفهما أمام هؤلاء القرويين الذين يصرون على التمسك والثبات والانتماء والتحدي ليس إزاءهم فقط، بل حتى حيال الطبيعة القاسية وما فرطوا في تقاليدهم القديمة بل ظلوا متشبثين بها على الدوام مستمسكين بتراث أجدادهم وآبائهم بعفوية وتلقائيه وفي ظل قلة الإمكانات وضآلة الموارد وشح الطبيعة أحيانا. فما فترت لهم عزيمة أو استسلموا او تضايقوا.

وفي منعرج آخر في هذه الرواية يستوقفنا مولود فرعون على يوم التسوّق كما فعل في سائر رواياته السابقة، فيبين للقارئ أن لكل قرية أو بالأحرى لمجموعة قرى سوقا يرتاده القرويون مرة في الأسبوع لاقتناء حاجاتهم التي عجزت القرية عن توفيرها لهم. « ينصحك بعضهم بألّا تفرط في ارتياد السوق أبدا، مرة في الأسبوع، يمكن أن

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 59.

(2) المصدر نفسه، ص 59.

(3) المصدر نفسه، ص 60.

نمنح أنفسنا شيئا من الراحة والتسلية، التسلية ممكنة أما الراحة ففيها نظر! إنّ سوقنا ليس بعيدا لحسن الحظ »[1]، وهذا ما جعل السكان لا يتوانون في التسوق مهما كانت وسيلة النقل، ثم إنّ في ذلك قضاء للمآرب والحاجات وهو يوم اللّقاء أيضا بين رجال القرية أو غيرهم من القرى المجاورة منهم الأصدقاء والأحباب والأقارب وحتى الأشخاص الأجانب.

فيوم السوق ليس فضاءً تجاريا فحسب، بل فرصة أيضا للاسترخاء من عناء العمل اليومي في الحقول والمراعي، هو كذلك موعد لمختلف اللّقاءات بين هؤلاء وأولئك وغيرهم. « إن الذهاب إلى السوق بكيفية ما يعدُّ ممتعا وتعليميا أيضا. يتكون لدينا انطباع وكأننا خرجنا من قوقعتنا وولجنا في العالم ونعلم أن العالم متسع، إننا لا نشعر بهذا في القرية »[2]، هكذا يكون إحساس القرويين، في يوم التسوق هذا، إذ ينسون ثقل أيام الأسبوع والأعباء التي تنهال على ظهورهم باستمرار، وفي هذا اليوم يستريحون أيضا من بعض الشحناء والمشاجرات التي تحدث في الغالب فيما بينهم لسبب أو لآخر، غالبا ما تكون من أجل قطعة أرض أو شجرة أو نبتة أو ماشية ودواب، أو بسبب الممرات والدروب، وربما لأتفه الأسباب في عديد المرات « ونتشاجر من أجل لا شيء ونولي الأشياء أهمية كبيرة مثلما نولي أهمية أكبر للجيران وما أن نكون في الطريق حتى ينتهي كل ذلك ونتنازل كرها عن قدحنا »[3]. هذا اعتراف أحد سكان القرية على لسان "مولود فرعون"، فهذه الشجارات، سرعان ما تفك وتزول، كما يمكن لها أيضا أن تمتد في الزمن أيضا غير أنّ كبار ثاجماعت سرعان ما يبادرون ويتدخلون لإصلاح ذات البين، ذلك ديدنهم وتلك من أهم مهامهم الأخلاقية قبل كل شيء، ثم إنّ سكان القرية تجمعهم علاقات قرابة إلى درجة يبدون فيها عائلة واحدة كبيرة متفرعة إلى أسر، فكيف للخصام أن يطول أو للتجافي أن يحل محل الود والأنس ورجوعا إلى حديث الكاتب عن السوق يبين أن الوصول إليه ليس دائما بالأمر الهيّن

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 74.

(2) المصدر نفسه، ص ص 74-75

(3) المصدر نفسه، ص 75.

فتضاريس القرية الشرسة، طوّعت القرويين على الصعود والنزول مترجلين أو راكبين أحيانا وأيّ ركوب! « كل سكان القرى إما أن يصعدوا للسوق أو ينزلون إليه... يترجل بعضهم ويمتطي آخرون الحمير والبغال، ويركب البعض الآخر الشاحنات »[1]، ورغم ذلك فالكلّ يصل ولن يكون أي عائق يمنعهم، وفي هذا الجوّ المتميز الذي يعجّ بالنّاس، يتنفس الجميع الصعداء، وكأن عالما جديدا انفتح أمامهم في غمرة التسوق علما أنّ هؤلاء المتسوقين غيروا من هندامهم، وتباهوا فيما بينهم في أريحية وبساطة وقناعة لا توصف. « وبعد هذا وجوه وقامات وهيئات وبدلات! عالم قائم بذاته، نرى فيه أنفسنا بعيون متواضعة، حيث نجد أنفسنا ملزمين على مقارنة أنفسنا بغيرنا راضين بوضعنا وفخورين »[2]. هكذا دأب القرويون التمظهر في يوم كهذا والذي يشبه عرسا إنه يوم السوق، طالما ينتظره الكل بشغف.

إنّ مكان السوق لدى القرويين في هذه الجبال والمرتفعات يجمع أيضا سكان عدد من القرى ليس لعرض السلع المتواضعة فحسب، بل فرصة للتلاقي كما أسلفنا الذكر ونعيده لأهميته، إمّا بين سكان القرية الواحدة مع بعضهم أو مع سكان القرى المجاورة، طالما أن الكلّ منشغل ومنهمك في خدمة الأرض على مدار أيام الأسبوع، مما جعل فرص اللقاءات عزيزة، باعتبار أغلبهم يظل مشغولا بافتكاك رزقه في ظروف طبيعية قاسية وإمكانات محدودة. وفي السوق يتنافس القرويون في عرض سلعهم، وغالبا ما تكون السلعة المعروضة من نتاج الأرض كالقمح والشعير والزيت والتين الأخضر أو المجفف وكذا مختلف الخضر والبقول، يعرضونها في سلال تقليدية الصنع مغطاة بأوراق الشجر وبأسعار زهيدة، وفي أواني فخارية أو حديدية ليست بالضرورة مهيأة لذلك، كما تعرض سلع الصناعات التقليدية التي تفنن فيها سكان القرى كالبرنوس ومختلف اللحافات إلى جانب الأواني الفخارية المتنوعة التي تفننت النساء في صنعها، فتعرض هذه المصنوعات اليدوية في السوق وفي جوانبه تزيد المكان جمالا واستقطابا للناس.

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 75.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

« إنّ السوق واسع ويمكنك أن تختار منه ما تشاء... أنا أبيع وأنت تشتري »[1] وأثناء عملية البيع والشراء تحدث المقايضة بين السلع في حيوية وحب التطلع والفضول، حيث يتجمهر المتسوقون وغيرهم في السوق لحضور مثل هذه العروض والأجواء التجارية. « وعندما قبض (الدوارة) مقابل القمح الذي اشتراه الرجل، أعادها إليه وأبقى منها قطعة واحدة ثم قال له أفضل العملة الورقية عنها »[2]، وهذه الصيغة التجارية تعتبر حيلة من حيل الاسترزاق والتكامل الاقتصادي بين الفلاحين والقرويين حتى ليخيّل إليك وأنت أمام هذا المشهد، أن هؤلاء وأولئك لهم دراية واسعة في علم الاقتصاد والمناجمنت، إذ باستطاعتهم أن يميزوا بين النقود الصحيحة من المزيفة ورقية كانت أو حديدية. «أفضل العملة الورقية عنها لأن نقودك مزيفة. خذ، انظر إليها، قبض القطعة بين أصابعه وكوّرها حتى صارت كالحبة ورماها على وجهه، ادفع لي دون مناقشة أريد عملة ورقية قبض البائع الأوراق وضيع الآخر الدورو ومعه كبرياءه »[3]. هذه حال السوق وحال البائع والمشتري على مدار اليوم التسوقي، سيما في أيام الربيع أو الصيف حيث تصفو الأجواء ويكثر الحراك وتتعالى أصوات الباعة وهم يروجون لسلعهم ممزوجة بأصوات العربات ونهيق الحمير والبغال وهي مركونة على جنبات السوق تنتظر عودة أصحابها محملين بالمؤن التي لا توجد في القرى وعلى ظهر كل واحدة منها محمل ويصطلح عليه "أشواري" يصنع من القماش أو من الحلفاء أو السرو لتوضع فيه اللوازم والحاجات والأشياء.

إن هذه المشاهد وبقدر ما توحي بالسذاجة والبساطة لدى عامة الناس فهي أيضا تنبئ عن الذكاء والحذر والحيطة التي يتميز بها هؤلاء، خاصة في هذا اليوم حيث البيع والشراء والتحايل أيضا. ويذكر صاحب هذه الرواية أن هذه الأسواق، غالبا ما تتموقع في مكان عال كالهضبة، لتطل على القرى، لكن هذا في الزمن الماضي البعيد. والحال اليوم لم يعد كذلك، فإذا بالأسواق تقفز إلى حواف الطرق أو وسط المدينة

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص ص 77-78.

(2) المصدر نفسه، ص 78.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

لتقترب إلى الناس، ويسهل عملية جلب السلع إليها فيكثر مرتادوها بأقل عناء « كان السوق يعقد في الزمن الماضي فوق هضبة مرتفعة تحيط به أشجار البلوط العريقة التي تهيمن عليه بظلها، أما اليوم... استقر السوق في الطريق، طريق مستقيم تتزاحم على جانبيه بنايات بشرفات متلامسة فيما بينها وبقيت القمة جاهزة وعليها بناية مهدمة وأربع أشجار من البلوط في حالة يرثى لها وفيها نقيد البغال والحمير بحبل معدني غليظ يمتد من شجرة إلى أخرى كثعبان محنط »[1]. فالملاحظ أن السوق أخذ يتمظهر على الطريق، والطريق ملك للجميع، وهو منفذ رئيسي إلى السوق وقد تكون هناك ممرات ثانوية إليه كذلك. ولهذا التمظهر حسابات اقتصادية واجتماعية، إذ يسهل للمتسوقين مهام التسوق ثم إن زحمة المكان، تضفي على السوق الحيوية والنشاط التجاري، وهذا الازدحام في حد ذاته يضفي نكهة خاصة لهذا اليوم. ومن جماليات هذه التجمعات كثرة الهرج والمرج وتداخل الصياح والأصوات سيما أصوات المشهرين بسلعهم. تلك هي أجمل لحظات المدينة التي تحتضن السوق، فلكل واحد في هذا اليوم مآربه وغاياته ولا بأس إن التقت صيحات الباعة وحوار المشترين، بضوضاء المركبات تتخللها أصوات الثيران ونهيق الحمير ومأمأة الخرفان...، وربما تصادفك وأنت تلج المكان أصوات المفرقعات يلهو بها الأطفال. إنها لحظات الانبهار والدهشة والإعجاب، ولا غرابة أيضا إن أسمعك الإسكافي أو اللحام أو الجزّار أو الحلاق صوته، إنه النكهة والسر والجمال. فينتابك الشعور بالرغبة في الجلوس إلى أحدهم وكأنك راغب في أن تلقي عليه تحية تقدير واحترام كونه لا يزال محافظا على هذه الحرف اليدوية التقليدية التي تضفي على السوق صورة جمالية رائعة، تسرّ الناظرين إنها فرص للحرفيين أيضا للتسويق بمنتجاتهم أو الاسترزاق بحرفهم في هذا اليوم الذي يعجّ بالناس فهؤلاء ينتظرون هذا اليوم بلهفة كبيرة لجمع مزيد من المال واقتناء الحاجات والمستلزمات والرجوع إلى القرية بأشياء لذيذة ماديا أو معنويا.

« وفي كل يوم ثلاثاء يعقد حدّاد الحدوات ورشته تحت شجرة من أشجار البلوط ويتربع بين الرزم والأكياس والشواري ضاما بين فخذيه سندانه وممسكا بين يديه قطعة

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص ص 79-80.

من حديد، يطوي المساعد كراع الدابة ويضعها على ركبته لينزع الحداد الحدوة القديمة في لمح البصر »[1]. فلا شكّ أن الصورة ممتعة تكاد أن تكون جدارية أخاذة وساحرة فعلى بساطتها أطلعنا الكاتب على مشهد الحدّاد وهو يمارس حرفته بإتقان وتفنّن، زاده حضور الجمهور حماسا، كما زاده تمرد بعض البغال عليه تحديا، ورغم ذلك له من الحيل ما يروض بها هذه الدّواب، فإذا بها تستسلم له طوعا، وهو شغوف لتجديد حدوات أرجلها، فيجمع حين ذاك بين رغبة في تفعيل حرفته وبين المتعة أيضا، ويتعمد لفت انتباه الحاضرين من المتسوقين والمارة بضحكهم وسخريتهم أحيانا وهم يتتبعون المشهد. إنها صورة رائعة من المنظر قدمها لنا الكاتب عن حدّاد يغتنم فرصة السوق لاستزياد رزقه، ولا بأس إن تجمهر الناس عليه كما قلنا سالفا ليتفرجوا عليه وقد أخذهم الإعجاب بما يصنع. « في ظرف ربع ساعة يكون قد أخلى سبيل الدابة وقد ارتدت حذاء جديدا وهناك العنيدة على الإطلاق يتجند المتفرجون فيقيدونها... وينجز الحداد عمله دون مواربة وكأنه يؤدي واجبا. ذلك أنه لا يحب الاستسلام إلى نزوات بغلة مكابرة »[2]. فيالها من فرص يترصدها الحداد وغيره في مثل هذا اليوم، وللمتفرجين نصيبهم من المتعة والتسلية وإطلاق العنان لقهقهاتهم اللامتناهية على الأقل في هكذا يوم من التسوّق، إنها لحظات رائعة تسجل في ذاكرة كل قروي تسوّق في هذا اليوم أو في مثله.

وبهذه الحرف التقليدية تنفتح القرى مرة كل أسبوع على هذا الفضاء التجاري وهكذا يقضي القرويون يوما كاملا في السوق والتسوق، ليعودوا في المساء، ثم يلتقون في ثاجماعت القرية، فتبدأ لحظات الحكي والسرد والبوح، فكل واحد يسرد مغامرته في هذا اليوم وبتفاصيل مملة أحيانا. « عندما نعود مساءً ويتقاطر الأفراد إلى ثاجماعت نعلم من لديه اللحم في منزله تتفتح سحناتهم أو يبالغون في تحية السلام عليكم »[3]. وقد يكون ذلك من فرط الفرح والنشوة، ومن خلال ذلك أيضا ندرك أن اقتناء اللحم ليس

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص ص 80-81.

(2) المصدر نفسه، ص 81.

(3) المصدر نفسه، ص 96.

في متناول الجميع، وحينذاك سيشكل ذلك حدثا بارزا، تعكسه قسمات الوجوه في حال اقتنائه أو العكس، وهذا لا يمنع تبادل الأطباق بين الأسر في يوم التسوق هذا. ويصطلح عليها في بلاد القبائل «**تنطيشت**» تقدم في صحن من الفخار، سيما في حال تغير الوجبة وترسله الجارة لجارتها، أو قريبة لإحدى قريباتها وفيها تتجدد أواصر الأخوة وتتقوى الوشائج والعلاقات بين الأهالي، هذه صورة من جماليات القرية أيضا تضيف للمكان بعض الأنس والدفء. بل وتمتّن الروابط الاجتماعية بين أفراد الأسرة والعائلة وبين حتى أبناء القرية.

وبعد هذا يأبى الكاتب إلا أن يستوقفنا عند نشاط اجتماعي مهني يقوم به القرويون بكثرة تحت وطأة الحاجة وعن قناعة أيضا ألا وهو: «الرعي»، رعي الأغنام والماعز والبقر. فالمهمة مسندة إلى الرجال بالدرجة الأولى أو الأطفال والشباب، ويمكن للمرأة أن تمارسها أيضا إذا اقتضى الأمر، دون تردد أو خوف أو ما شابه ذلك فهذا هو قدر المرأة في القرى إذا تعذر عدم حضور الذكور أو غيابهم، فلا ترتاح المرأة حتى ترى مواشيها مسرحة في الطبيعة الرحبة تلتهم الحشائش ومختلف صنوف الأعشاب، وهي بها راضية النفس ومرتاحة البال، فالأكيد أنها ستدر عليها حليبا كثيرا. « الراعية تحب معزتها كثيرا وكل الراعيات يحببن معزهن، فهن يشكلن ومعزهن فرقة صغيرة تتجول كيفما اتفق فوق القمم الجبلية المعشوشبة، هناك حيث لا أشجار التين ولا أشجار الزيتون الطرية »[1]. هذا حال بعض الفتيات اللائي يتولين هذا الأمر بأريحية واحتياط. فلا يجب اقتراب الماشية إلى أشجار الغلة، تفاديا لإتلافها أو كسرها أو التهام غلّاتها. فعلى الراعية أن تسهر بجدّ على عدم السماح لماشيتها أن تمس أملاك الغير تجنبا للنزاعات واللوم والعتاب. « كل مالك لمعزة يتكفل بالقطيع حينما يأتي دوره، ويطمئن على نفسه وعلى معزته لأسابيع كاملة ولا تتعرض أشجار تينه لمهاجمات معزته »[2]. هكذا تظهر لنا مهمة الرعي وهي مسؤولية كبيرة، إذ لا يكتفي الراعي بحراسة ماشيته فحسب، بل لا بدّ أن يحرص على عدم اعتدائها على أملاك

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق ، ص 102.

(2) المصدر نفسه، ص 103.

الآخرين درءًا لنزاعات لا تنتهي، ممّا يؤدي إلى صدامات متكررة بين الأهالي، قد تستمر وقتا طويلا وتعكر صفو العائلات. إن القروي في هذا المكان يسيّر أنشطة حياته بكثير من العفوية والتجربة والعادة، فإذا ما أراد مثلا أن تطيعه ماشيته، وضع في يديه ثمرة، فتتبعه دون شرط. وبهذه الصيغة تألف الحيوانات أهلها وترافقهم في حركاتهم، فهي تطمئن إلى من يغدق عليها بالأكل الوفير. « عندما يريد ربّ العائلة من معزته أن تتبعه إلى الحقل، فإنه يضع مُدًّا من حبات التين المسوسة في قلنسوة برنسه ثم يلوح لها مرة تلو المرة بحبة، فتقضمها الواحدة تلو الأخرى »[1]. إنه تحايل عفوي بسيط، جميل، وبتلك الطريقة يستطيع الفلاح في القرية أن يطوع ماشيته أو يقيدها متى وأين شاء، ليتفرغ إلى شؤونه الأخرى في ثنايا الحقول والمراعي، فيهنأ باله حين يراها تلتهم الأعشاب وحينما يأنس منها تفاهما، ينكبّ بعد ذلك على أعماله وأشغاله الأخرى، ويأمن أيضا عدم اعتدائها على أملاك الغير، وكم هي جميلة أيضا تلك الصورة التي تظهر فيها المرأة القروية وهي تخرج من بيتها لرمي الفضلات فتتبعها المعزة وقد فكّت رباطها، وكأنها فلتت من القيد، فانعتقت تتقدم تارة وتتأخر تارة أخرى غير أنها لا تبتعد عن صاحبتها في حميمية ووفاء، إنه تناغم لطيف بين الإنسان والحيوان وفي هذا الصورة جمالية أخرى تضاف للقرية تزيدها الأنس والأمان.

« وترافق المعزة في بعض الأحيان الأم عندما تذهب لإفراغ سلة الروث الذي أخرجته من المربط. إن تلك المرأة لمن اللطف بحيث ترافقينها بكل سرور، وتحبين صوتها الدافئ حبّك لنظراتها الحالمة تعلمين بأنك معزتها ولها ألف طريقة في توصيل هذا الشعور إليك »[2]. هكذا يتم ارتباط الإنسان بما يملك حتى مع حيواناته الأليفة فلا يفرط فيها أبدا، ولأنها قلبه النابض ورفيق أنسه ومصدر رزقه أيضا. إن هذه المشاهد لتترجم بصدق ذلك التعايش السلمي المتبادل بين الإنسان القروي وأرضه ومواشيه ودوابه وحتى مع أشياء قريته وكل ما يحويه المكان. إنها إحدى الصور الجميلة لهذه القرى النائمة تحت سفوح جبال القبائل أو في قممها حسب ما نقله لنا "مولود فرعون"

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 104.

(2) المصدر نفسه، ص 105.

في هذه اليوميات، وبهذه الشهادات الحية والصور الواقعية، تتبع صاحب هذه الرواية حيثيات القرية من كل جوانبها إلى أن أوقفنا عند أمر مهم لا يقلّ أهمية عن الماشية والأرض بالنسبة للأهالي، إنه الماء، فمن المناهل العذبة، تجلب النساء هذه المادة الحيوية، فعيون النساء تشرئب يوميا إلى هذه المنابع ولهنّ في ذلك مآرب أخرى. إنها فرصة للمرح والمتعة، والتخلص من أشغال البيت التي لا تنتهي على الإطلاق « ليس للبنات ثاجماعت مثل الرجال ولذلك فإن المنهل يحلّ محلها، ففيه يمكن أن يثرثرن ويتسلين ويضحكن في انتظار أن تمتلئ الجّرة، يذهبن إليه زرافات... فيتعرفن على الأخبار ويتبادلن فيه الإشاعات والأقاويل ويمتّنَّ الصداقات »[1]، فلا عجب إن كنّ ينتظرن هذه الخرجات بفارغ الصبر وهنّ لا يملكن فرص التلاقي والتزاور في ظل مجتمع محافظ، الرجل فيه هو الآمر الناهي يجوز له أن يخرج متى وأين أراد عكس المرأة التي ينحصر خروجها إلى الأرض والحقول.

ففي هذا السرد الروائي يرسم لنا المؤلف مشهد المنهل، كفضاء أنثوي قلّما يرتاده الرجال، وفيه تمرح النساء ويلتقين، ولا بأس إن اتخذن هذا المنبع مكانا لأحاديث يمكن لها أن تطول وقد ظلت مكبوتةً بين جدران البيوت أو بين الحقول والمراعي وبين صيحات وأصوات الرجال، إذ وبمجرد أن تسمع المرأة القروية صوت الرجل في الحارة تهمّ بالدخول إلى بيتها، هكذا جرت العادة فهذا عرف من أعراف القرية، والخروج عن هذا النظام يعدّ تمرّدا على سطوة الرجل وحتى على نظام القرية. ولقد عُرفت هذه القرى وهذه المرتفعات بكثرة ينابيع الماء، حتى يبدو وكأن لكل مجموعة من العائلات منبعها الخاص، لكن مع تعرض البلاد إلى الاستعمار الفرنسي فإذ بالماء يغور في كثير من الينابيع، لتستبدل بعضها بحنفية تركب وسط القرية، يؤُمّها كل السكان ومنها يجلبون الماء. « حنفية جميع الأفراد حنفية بناها منذ مدة بعيدة بنّاء فرنسي بمساعدة جميع أفراد القرية وتحت معاينة طمّان ولامين »[2]. والأكيد أنّ هذا الرجل الطّمان يمثل كبار القوم، ويتولى حفظ النظام في جلب الماء لكثرة الزحمة عليه ورخص له بهذه المهام

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 111.

(2) المصدر نفسه، ص 113.

استثناء، علما أنّ هذه المواضع تخصّ نساء القرية فقط كما أشرنا سابقا، وهذا من عادات وتقاليد وأعراف هذا المكان لكن للضرورة أحكام. « إن الرّجال لا يتوجهون إلى الينابيع، هذا ما حكمت به القاعدة، قاعدة عرفية متواضع عليها تنقل من جيل إلى آخر مسألة احتشام لا نقاش فيها أو إذا شئنا مسألة احترام إنسانية »[1]. غير أن الأمر يختلف مع حنفية القرية، فطمّان القرية ذي الثقة والوقار، بإمكانه أن يمنع أي تصرف سيء للحنفية وبدوره يفرض نظام النوبة في ملء الدّلاء، حين تكثر الزحمة على الحنفية. إن هذه الصورة تعكس لنا بدورها تلك الظروف القاسية التي تحيط بسكان القرية، سيما تلك المتعلقة بالنساء، فهن يشقين لجلب الماء يوميا، ليذهب الأمر بهن إلى أبعد من ذلك، فحتى المرأة العروس يكون خروجها الأول من دار زوجها بعد الزفاف إلى منبع في القرية بعد اليوم السابع من دخول بيت الزوجية، « وعندما تهمّ العروسة بالخروج بعد قضاء أسبوع من الاحتجاز، في اليوم السابع، تكون أول زيارة لها للينبوع تأتي والدتها لتبرقشها وتتلقفها صويحباتها على عتبة الباب »[2]، يتم هذا في جوّ احتفالي يشبه عرسا صغيرا، يعيد إلى الأذهان يوم الزفاف، تمرح النساء فيه ويزهو الأطفال كذلك، فتتعالى صيحاتهم في حيوية ونشاط حتى وإن أثاروا غبار القرية بأرجلهم وأعناقهم مشرئبة إلى بعض المأكولات التي توزعها العروس عليهم ومنها الحلويات التي يرجمون بها، وفي خروج العروس إلى المنبع، تلبس القرية حلة من الفرح والابتهاج، سيما عند النساء كما ذكرنا سابقا، لكن حتى الرجال يختلسون هم أيضا لحظات الاستمتاع بهذه المشاهد ولو من بعيد، ففي هذه الأجواء الحميمية تعلو الضحكات الممزوجة بالزغاريد، في موكب صغير تصنعه العروس والنساء برفقة الأطفال، الذين تتناثر على رؤوسهم مختلف أنواع الحلويات من يد العروس أو حتى من الأخريات فيتحول جزء من السماء إلى مطر من الحلوى، في أجواء رومانسية رائعة عزّ حضورها في أجواء المدن. وكم هي عزيزة هذه المظاهر والأعراف والتقاليد فهذه اللحظات الرائعة تنسى لحظات القهر والبؤس والأشغال الشاقة وتنسى الممنوعات

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 114.

(2) المصدر نفسه، ص 118.

أيضا، « رأيت الناس كيف يعيشون حياة البؤس ولكن بكرامة وشجاعة لا نظير لهما إنهم يؤلفون مجتمعا قويا متماسكا رغم صعوبة الظروف ولا يتنازلون عن عاداتهم وتقاليدهم »[1]. فالعادات والتقاليد في قاموس القرويين كادت أن تنحى منحى القداسة فلا يمكن البتة تجاوزها أو الدّوس عليها، فهي سرّ حياتهم وبقائهم في هذه التضاريس التي تمثل دوما أصالتهم وهويتهم وسرّ بقائهم.

هذه بعض من أنشطة القرية كما قدمها لنا "مولود فرعون" في يومياته، فمن خلالها يستشف القارئ خصوصيات هذا المكان وتجلياته وأمكنته المختلفة. وقبل النهاية نعرج على موقع آخر يتواجد هنا إنه مقهى القرية على بساطته وتواضعه فقد ظل يشكل دوما مركز لقاء الأصدقاء والأحباب للاسترخاء واللعب، ولم لا تبادل الأخبار ومناقشة أمور القرية وقضايا السكان. « يشغل فضاء المقهى في الدشرة مكانا بارزا في حياة المجتمع الريفي فهي تقوم بوظائف عديدة، مكان يجتمع القرويون فيه كل مساء ويتخذون منها مكانا للسهر والسمر والمؤانسة... وعموما فالمقهى بمثابة مركز إعلامي تتوارد إليه أخبار الوطن والعالم »[2]. وغالبا ما يرتاد هؤلاء القرويون المقهى بعد الانتهاء من أشغالهم أو بالأحرى بعد رجوعهم من الحقول والمراعي، فإذا بهم ينشدون هذا الفضاء للتنفيس والاسترخاء بعد نهار شاق متعب. فتجدهم مجتمعين نحو كؤوس القهوة أو الشاي أو مشروبات غازية أخرى، أو متفرجين على لاعبي الدومينو، أو ما شابه ذلك في حيوية لا توصف.

(1) فاطمة سعدي، البراءة المسلوبة مجزرة 20 أوت 1955 بملعب سكيكدة، تر: عبد الرحمن شريط، دار النشر أنوثة 2007، الجزائر، ص 28.

(2) شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة...، مرجع سابق، ص 39.

الأنموذج الرابع: القرية في رواية «الحريق» لـ "محمد ديب"

ونحن بصدد البحث عن الروائيين الجزائريين الذين استحضروا القرية في أعمالهم الروائية خلال الثورة، توقفنا عند رواية الحريق للروائي الجزائري "محمد ديب"، فلمسنا فيها حضور القرية بكثافة، حين سافر بنا صاحبها إلى إحدى القرى الجاثمة في منطقة تلمسان بالغرب الجزائري، إنها قرية «بني بوبلان» وهي في منظر كئيب، تضاريس قاسية، وأرض جرداء « تختنق الأرض في تلك الأعالي تحت وطأة الدغل لتجد مخالب المحاريث العتيقة صعوبة في النفاذ فيها، كثيرا ما يتعرض الفلاحون هنا للمجاعة »[1]، فنلاحظ أن الأرض في هذه القرية كأن بها بور، يطبعها فقر مدقع، رغم وقوعها غير بعيد من مدينة تلمسان. يسكن هذه القرية أناس بسطاء، يمارسون الفلاحة والرعي في الغالب « يعيش هؤلاء الناس في حافة أراض منخفضة قابلة للحرث، سفوح مثبتة في الجبل... هنا تنحصر حياتهم في قضاء أيام فلاحيه رعوية لدى المعمرين حياة عفا عليها الزمن وناس يبدون من البساطة ما يترك الانطباع بأنهم آتون من قارة منسية »[2]. هكذا نقل لنا الروائي حال هؤلاء القرويين الذين يعيشون بين مخالب الفقر والعوز، خاصة إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر التي استأثر بخيرات البلاد، وترك الأهالي في خصاصة وعوز، مرتمين في مخالب الشقاء والكمد.

فعليه تتمظهر القرية كمكان للحيف والفقر المدقع الذي أحنى ظهور الأهالي غير أن هؤلاء السكان ظلوا يتحدّون المكان والزمان، يصارعون تعنت الطبيعة وقساوة المستعمر الذي جثم على أرضهم في هذا الظرف الحرج من تاريخ الثورة الجزائرية حيث استولى المعمرون على تلك الأراضي الخصبة، ليعيش الجزائريون في هذه الحقبة مرارة الاحتلال والاستغلال في الحصول على رزقهم أو في مساكنهم أو في ظروفهم المعيشية عامة، فالخوف ينتابهم من كل مكان وليس لهم من مخرج إلا الصبر والتحدي.

(1) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص ص 10-11.

(2) المصدر نفسه، ص 10.

« كثيرا ما يتعرض الفلاحون هنا للمجاعة، فعند حلول الليل حين تغوص الأكواخ في الحلكة، ترسل عُصب الثعالب الهائمة صيحات الموت هي اللحظات التي نصادف فيها عصب أطفال متهورة شاحبة مزهوة بالخرق التي على ظهورها داخل الوحل أو في أغبرة المسالك »[1]، فنلاحظ أنه إضافة إلى وحشة هذه التضاريس الوعرة، فالخوف يملأ المكان ويصدر من كل جهة، وحينها تلتقي قساوة الطبيعة بقساوة وخشونة المستعمر، وكذلك الطباع الخشنة لدى بعض الساكنة، فإذ ذاك يكبر الخطب وتشتد المشقة وتتعاظم خيبة الأمل، غير أن التحدي باقٍ والرجولة بالمرصاد لهذه الظروف القاسية، فعلى هذه الصفات نشأ وتربى الإنسان القروي في هذه التضاريس الموحشة، فأينما تقابلك الجبال بمرتفعاتها وسفوحها يقابلك الأهالي بإرادتهم وصبرهم وثباتهم ملتفين حول أراضيهم ومراعيهم وأهاليهم وبيوتهم التي ظلت تمثل لهم الاعتزاز والافتخار وعلى تواضعها.

وفي ثنايا الرواية ارتأى الروائي "محمد ديب" أن يطلعنا على طبيعة المباني والعمران في قرية «**بني بوبلان**»، فهي لا تعدو أن تكون أكواخا يمارس فيها القرويون حياتهم في فقر مدقع « فمن الجهتين ترتفع على طول المستطيل مساكن من الحجر والطين مرشوشة بحليب الجير »[2]، فهذه المساكن بنيت من الموارد الطبيعية التي تتوفر عليها القرية من حجر وطين، ثم تطلى بالجير حيث يجتهد القرويون في تحصيل هذه المادة من قراهم بعدما عزّ عليهم اقتناء الإسمنت والآجر في ظروف يطبعها شظف العيش وانعدام الموارد وقلة الإمكانات، ممّا أضفى على المكان صورة قاتمة على أهلها « التقى عمر بأولاد أكثر منه بؤسا أطفال أشبه بالجراد من شدة ما يبدون نحافا متوترين »[3]، فهذه صورة أخرى تعكس مأساة أطفال القرى في هذه الانكسارات الجغرافية التي ظلت تتحدى هي أيضا الاحتلال الفرنسي الغاشم. لقد أحس الأطفال أيضا هذه المحن التي تواجه أهلهم وأراضيهم وقراهم.

(1) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص 11.

(2) المصدر نفسه، ص 17.

(3) المصدر نفسه، ص 11.

إنّ حال هذه القرية ألا وهي بني بوبلان شأنه شأن القرى المعلقة في قمم جبال جرجرة فالصورة واحدة اجتماعيا وجغرافيا تقريبا وإن تشظت التضاريس والدروب والمواقع، فالقرويون أينما كانوا وتواجدوا ظلوا متعلقين بهذه المرتفعات، وهم مقتنعون بأرزاقها وغلاتها التي يتحصلون عليها بشق الأنفس، ومعروف عن الإنسان القروي أنّه كثير التقويم والتقييم للأشياء حتى الأجزاء الصغيرة فهي مهمة في حياته وفي مسار عيشه، فلقد ألفوا هذه الأشياء وطوّعوها في حياتهم ولأغراضهم اليومية، ثم ليس لهم من خيار للانتفاع من كل ما يحيط بهم، فلقد اضطرتهم الحاجة إلى استغلال كل شيء خدمة لأغراضهم المختلفة، وسنشير هنا على سبيل المثال إلى أن فضلات البهائم تجمع في الحقول القريبة من البيوت ثم تحوّل لاحقا إلى أسمدة طبيعية، وقد تستعمل أيضا لإشعال النار فلا تذهب هباء منثورا في غالب الأحيان. « لا شيء يضيع حتى هذا يشير إلى الروث الذي ترمى به ماما، يمكن بهذا أن نوقد النار »[1]، فنلاحظ أنه لكل شيء قيمته هنا تقريبا، إذ يمكن له أن يسد حاجات معينة. وبهذه الكيفية والتحايل يتدبر القرويون أمورهم بكثير من الحكمة والحيطة والحذر وبكثير من التطويع للإمكانات والتكيف معها، ثم إنّ قساوة المكان علّمتهم هذا التسيير والتدبير ودفعتهم إلى الاجتهاد في التعامل مع الوسائل والظروف والتي غالبا ما تكون شاقة عليهم، وهم يعلمون يقينا أن الحصول على تلك الوسائل يعدّ ضربا من المستحيل في غالب الأحيان في ظروف قاهرة جدا، فإن إرادة هؤلاء السكان أقوى وحبهم للمكان يسري في عروقهم حب أودعه الله في نفوس الأهالي بكبيرهم وصغيرهم. وعلى الرغم من بساطة بعض هذه الأشياء والوسائل فإنه يصعب في كثير من الأوقات الوصول إليها أو تحقيقها في بيئة يطبعها الفقر والخصاصة وقلة الحاجة، غير أن قلوب القرويين متعلقة بكل شيء هاهنا، ومعنوياتهم تظل على الدوام مرتفعة كارتفاع قراهم فوق هذه القمم، فلا شيء يثنيهم عن السعي أو يكسر طموحهم أو يحني هاماتهم، فلقد ظلوا بجوار قراهم، وحقولهم، وأراضيهم بمعية مواشهم ودوابهم فلازموها عن قناعة فاكتشفوا أيضا أسرارها وجمالها، « غير أن هذا لا ينفي كون قسوة المظهر المفروض على الجبل

(1) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص ص 17-18.

يتميز أحيانا بجمالية مستعجلة »[1]. وأكثر من ذلك فهم يرون هذه الجبال على امتدادها ورهبتها مصدر عزتهم وانتمائهم. فالقرية قبل كل شيء هي دفؤهم وملاذهم ويومياتهم، علما أن المستعمر في هذه الآونة ظلّ يتفنن في إبادة المكان والعباد ويحرق مصادر الأرزاق ويرمي بالسكان القرويين في بني «بوبلان» إلى بيوتات قصديرية مهترئة تنبض بالمعاناة وبقساوة الحياة، سيما في فصل الشتاء حيث تكشر التضاريس عن أنيابها، فتتحول القرية إلى بقعة تعسة، يراقصها الخوف والبرد، والظلام، والجوع، لكن من رحم هذه العتبات المظلمة يتعلم القرويون معاني الصبر والتحدي والإيمان بما قدر لهم. « ما قيمة وجود الفلاح إذا جاء فصل الشتاء، يأوي إلى القُوربي أو إلى مغارة مظلمة يرتعش هو وذووه، أفترض أن الأمر سيان في الأماكن الأخرى وفي كل مكان يوجد فيه فلاحون فقراء.. هذا هو قدر الفلاح »[2]، ولقد رضي واقتنع بما كتب له من العيش في هذه المنحنيات الجغرافية المهيبة وفي ثنايا بيوت أكواخ تمارس فيها الحياة بشق النفس. إنّ القارئ يلاحظ لا محالة أن الكاتب نعت منزل القروي بالمأوى وقال عنه أيضا أنه مغارة، ثم قال أنه قوربي، فمهما تعددت الأوصاف فإنّ منازل القرويين تفتقر إلى أدنى ضروريات العيش، خاصة في هذه الآونة حيث يجثم الاستعمار الفرنسي على ظهور وأعناق الجزائريين، ممّا زادهم ظلما وحيفا وجورا وفقرا وسوء الحال، لكن وفي المقابل فإن هذه المعاناة شحنت نفوس الأهالي بالإيمان القوي ومعاني الرجولة وحب الوطن، وزادتهم تمسكا رهيبا بأرضهم وبقراهم، وفي هذه المرتفعات والقمم يكبر الوعي بالوطن أيضا « وفي بني بوبلان تمكن عمر من أن يفهم معاني الوطن بشكل صحيح ومختلف تماما عما كان قد تعلمه في المدرسة الفرنسية كما يمكن أن يفهم معنى الشعب ويفهم معاني أخرى مثل وجود أقلية جزائرية مضطهدة وفقيرة مستغلة وأقلية أجنبية تتسلط على الأرض وتستغل عرق الفلاحين »[3]. بهذا الوعي يكبر تمسك القرويين بقراهم فيعزّ عليهم مغادرتها أو التفريط في أماكنها حتى

(1) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص 11.

(2) المصدر نفسه، ص 64.

(3) أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص ص 326-327.

القاسية منها كالوديان الملتوية والهضبات والتلال والحقول بأحراشها ونباتاتها وأشجارها وصخورها برغم تباعدها وصعوبة الولوج إليها، فهي سرّ بقائهم هاهنا، فتظل في عيونهم وفي أفئدتهم ملاذا آمنا مطمئنا تغمرهم فيها السعادة والهناء فعليه تتألق الأماكن في نفوس أبنائها مهما كانت ويكبر حب الوطن حينما تترصده عيون العدو للاستيلاء عليه ونهب خيراته، فالأرض قبل كل شيء أمانة الأجداد للأجيال اللاحقة ومسؤولية على أعناقهم « إن تخليتم عن أرضكم... سيطالبكم أولادكم وأحفادكم وأولاد أحفادكم إلى آخر الأجيال بتقديم الحسابات... لن تحظوا بأي تقدير منهم من بلدكم ومن المستقبل، كان يقول هذا أمام كافة مزارعي بني بوبلان مجتمعين ألسنا كمثل الأجانب في بلدنا »[1]. هذه وصية جيل لجيل، وهذا صوت الوفاء والارتباط بالمكان وبالهوية والأصالة وهي مصدر اعتزاز هؤلاء القرويين. فعليه فإنّ التفريط في هذا المكان غير مسموح به على الإطلاق في نظر السكان والأهالي فالقرويون ظلّوا يعتزون على الدوام بانتمائهم، إلى هذه الجبال الشاهقة والسفوح النائمة في هذه المنحدرات، فهي تذكرهم صباح مساء بأجدادهم وآبائهم الذين نسجوا أروع الحكايا هاهنا، فكان أحرى بهؤلاء هم بدورهم أن يتناقلوا فيما بينهم حب الوطن والتشبث به، فمن هذه القرية يتجلّى الوطن الكبير في النفوس وكأن صوتا يسري في دماء الأهالي أن لا أحد يجرؤ على مغادرة هذه الأمكنة سيما في هذه الأوقات العسيرة المحرجة، حيث يقدم المستعمر على تهجير الناس من أرضهم وبيوتهم، ثم يقدم منتقما على حرق القرى بأكملها مِمّا يولّد التذمر والسخط والإحباط في نفوس الأهالي، هؤلاء الذين يبصرون يوميا بل يعايشون وعن كثب نهب أراضيهم وحقولهم والاستيلاء على خيراتها، لكن هذه المشاهد المؤسفة والمؤلمة ستتحول لا محالة في نفوس الأهالي إلى إرهاصات للانتفاضة والثأر والانتقام لاحقا، إنها قناعات وأفكار ظلّت تختمر في قلوب الأهالي وهم يُسحقون في عقر ديارهم ظلما وجورا. « الحرب كما يقولون ذلك الحضور الضخم الذي يعلن عن مقدمه مثل العاصفة تلك القوة العمياء المحتومة... تحدث البعض أيضا عن عمليات

(1) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص ص 75-76.

التوقيف»[1]، هذا بعض ممّا يتعرض إليه القرويون في «بني بوبلان» من اضطهاد يومي من طرف المستعمر الفرنسي، الذي يسعى إلى إبادة الأرض، سيما في هذه القرى التي يراها وكأنها خزّان التمرد والثورة. إن هذا الاضطهاد يضاف كذلك إلى تلك الأعمال الشاقة التي يقوم بها القرويون في حقولهم وأراضيهم ليتنعم أبناء المستعمر بخيراتها، فالمعاناة ذات أوجه متعددة ورغم ذلك فهم صامدون وكلهم أمل في التحرر والانعتاق، فالمهم أنهم متشبعون بحب الوطن، ومن أجله يُبذل كلّ غالٍ نفيس والأمل في التحرير يكبر من لحظة لأخرى.

إنّ فكرة الثورة أخذت تكبر في نفوس الجزائريين، لكن الإقدام على فكرة الحرب ومواجهتها في مثل هذه الظروف أمر صعب بالنسبة للأهالي، في ظل انعدام الإمكانيات، فهم على يقين بأنها لن تزيدهم إلا وزرا ومشقة ومحنة، فلابد من الصبر والتعبئة أكثر في آن واحد ولو أنّ الألم يعصر نفوسهم وهم يتلمسون واقعا مرا وكرامتهم مهددة، فكان صعبا أن يتقبلوا ألوان الذل والحرمان والمهانة أينما كانوا، خاصة في هذه الآونة التي يتعرض فيها سكان المدن وسكان القرى على وجه أخص إلى الاعتقال والاختطاف والاستنطاق من طرف السلطة الاستعمارية الفرنسية، فيزداد الأهالي مشقة ومصيرا مجهولا على أبنائهم، « كيفاش شباب في مقتبل العمر ... يتوجهون إلى موت مؤكد ولا نقول شيئا ضد هذا »[2]، فأمام هذه التحديات ومشاهد الظلم والتعسف كان لزاما على القرويين أن ينفعلوا ويتفاعلوا مع هذا الواقع المؤلم، ليكسروا هاجس الخوف والتردد وهم يتعرضون يوميا إلى مختلف أشكال الإهانة في ديارهم، في أرضهم، في وطنهم وهذا أعزّ ما يملكون فلن يفرطوا فيه قيد أنملة. « حل صمت جنائز سار الشرطة والسجناء بسرعة كبيرة في صفوف متراصة مثل الأشباح ... كان الفلاحون ماضيين داخل جلاباتهم المليئة بالوحل ... وكأنهم لا يزالون يرقبون أرضا محروقة أمامهم، يا إلهي كيف كان مظهر هؤلاء الرجال؟ تلك الوجوه المعظمة متجمدة تحت

(1) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص ص 170-171.

(2) المصدر نفسه، ص 171.

القلمونة، تحت الجلابات المترهلة المغبرة »[1]. إنها صورة البؤس ظلت ترافق هؤلاء السكان في ظل التعنت والاضطهاد والقهر، ويتعرضون لأبشع الصورة الإنسانية على أيدي المستعمر الفرنسي ومن ذلك فهم يساقون إلى السجون أو إلى مراكز التعذيب في وطنهم، في أرضهم، في قراهم. وفي ثنايا الرواية راح الكاتب يكشف لنا رغبته ورغبة الأهالي في تقرير مصيرهم لأن لحظات القهر والحرمان ستؤسس لا محالة للحظات الوعي وإدراك الحقائق وتقصي كثير من الأمور، وما الحريق في هذه الأرض الطيبة إلا إرهاص للتغيير ومصدر إلهام للانطلاق والانعتاق وما الحريق أيضا إلا بداية لثورة عارمة تدك معاقل الظلم والاضطهاد والاستغلال، وهي من أسمى ما يخطط له الجزائريون، سيما أبناء القرى والمداشر الذين ذاقوا ويلات الاستعمار ومحنة المكان أيضا، وحتى المرأة هاهنا عاشت الويلات والمحن، فظلت تنفخ في الرجل حب المغامرة والإقدام لتحرير هذه الأرض الطيبة.

ففي زخم الأحداث والوقائع يعرج بنا الروائي "محمد ديب" إلى واقع المرأة بين جنبات قرية «بني بوبلان» بأعالي تلمسان، فهي لا تقل جرأةً وحماسا ووعيا عن الرجل في حب وطنها والتعلق بقريتها، وكلها عزيمة لا تقهر ظلت تقف متحدية المستعمر الغاشم والغيرة تدفعها على وطنها لترفض وبشراسة أشكال المهانة والذل، وهي التي أنجبت أطفالا سرعان ما تحولوا إلى رجال مقاومين رضعوا منها حب الوطن والذود عنه «امرأة تنجب أطفالا بالقبعات، بالشاوية: "همطّوث هتّارُوا أدرار سششاشيين" »[2]. فلقد تشبعت النساء القرويات بالقدرة على تحمل كل أشكال الفقر غير أن عزة الإنسان أرقى وأكبر من لقمة الخبز. « برزت امرأة من مسلك والتحقت بالجموع، كائن صغير منكمش... فتحت مسلكا وسط كثافة الأجساد وألقت على الشرطة نظرة هائمة... صرخت نعرفو نعرفو أشارت إلى أحد الأعوان هو موجود دائما هنا عندما يتعلق الأمر بأخذ رجالنا نعرفوا ديما هو! »[3]، هذه إحدى الصور الجريئة لمواقف المرأة القروية

(1) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص ص 236-237.

(2) العربي دحو، نصوص من الأدب الأمازيغي الشاوي بالشرق الجزائري، جمع وتصنيف وترجمة، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، 2006، ص 167.

(3) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص 240.

تجاه العدو الغاشم، ومن هذه المواقف أيضا يستلهم الرّجال قوتهم وجلدهم، ويجددون طاقاتهم للذود عن وطنهم. لقد كان للنساء القرويات دور في احتضان الثورة المسلحة معنويا وماديا. « وحينما تنسحب الكتيبة بعيدا عن القرية للاشتباك مع العدو، فهذه المرأة هي التي تقوم بالدور العظيم والتي تمسح أقدام جيش التحرير، وإذا بقي الطعام فهنّ اللائي يقمن بتغطيته وتخبئته »[1]. من خلال هذا ندرك مدى التفاعل الإيجابي للمرأة الجزائرية في هذه الحقبة بجانب أخيها الرجل، إذا ترك الجندي حقيبته (موزيطة) أو عبوة مسدس تقوم بخلعها وإبعادها»[2] فلا تتوانى البتة في مؤازرته والوقوف إلى جانبه مهما عظمت الخطوب، فهي بمثابة الأرض التي يموت من أجلها الناس. إن الأرض والمرأة أمران مقدسان في قاموس الإنسان الجزائري، سيما القرويين. وفي سياق ذي صلة لوضع المرأة في هذه القرى دائما يطلعنا "محمد ديب" على بعض من يومياتها والتي تقضيها في مشقة لا توصف وكلها صبر وحكمة وشجاعة وحسن التدبير، وهي تصرُّ على قهر واقعها المؤلم، ورغم انهماكها دوما في العمل داخل البيت وخارجه، فإن لهذه المرأة هنا سحرا خاصا إذ تبدو جميلة جذابة بطبعها، كل ما فيها أصيل لا زيف ولا ريب، كريمة المعدن ونقية السريرة كنقاء الطبيعة في هذه الجبال ممّا يضفي على المكان جمالا ويزيد الرجل فخرا وعزة ووفاء لهذه المرأة. « أما النساء في بني بوبلان، فيحملن شمس العسل وَهُنّ كالذهب ومع ذلك فإن شيئا من هذا لن يدوم طويلا فاللّعنة القديمة مسلطة على رقابهن، لن تلبث أجسادهن أن تتحول إلى أجساد حمّالين، كما تحمل أرجلهن التي تدوس الأرض أخاديد عميقة يجرّ بعضهنّ أجسادا تكشف عن بروز عظام الصدر»[3]، ورغم ذلك يتحملن أعباء الحياة وإن تتلاشى بعض الأنوثة منهنّ من جراء هذه المحن والأتعاب شأنهن شأن أهالي القرية غير أنّ نفوسهن تمتلأ حبّا وعاطفة تجاه رجال القرية الذين ظلّوا يحرسون المكان ويضفون عليه الهيبة والوقار، « فالحب عاطفة إنسانية لا تموت في الإنسان أو تلغى

(1) عبد القادر نور، حوار حول الثورة، إعداد وتقديم: جنيدي خليفة، ج3، موفم للنشر، الجزائر، 2012، ص 53.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص 46.

حتى في الحرب »[1]، فالمعاناة تشمل الرجال والنساء وحتى الأطفال، هذا هو حال السكان في القرى والمداشر والأرياف. «... رشاقتهن تذبل بكيفية أو بأخرى وفي لمح البصر لن يصمد منهن سوى صوتهن المتثاقل العذب غير أن جوعا رهيبا يخيم على نظراتهن »[2]، هذا جزء من كثير عن وضع المرأة في الجبال والقرى أو في غيرها في أعماق الجزائر. فتبدو النساء من شدة العوز والفقر كأنهن عيدان كبريت بسبب الجوع والخصاصة وضنك العيش، ومن كثرة تعاقب الأشغال والأعباء عليهن صباح مساء على المستويين الداخلي والخارجي.. « كانت نسوة الدار ينشجن بصوت خافت يُصعدن ألمّا كأوجاع الحيوانات المجروحة، كانت أصواتهنّ صدئة وفي وجوههن أخاديد رسمتها أظافرهنّ »[3]. ورغم ذلك يشعرن دائما براحة النفس وهناء البال والرغبة في النزوع إلى التعايش الحميمي « هذه هي حياة النسوة الخاليات من القلق أو الحسرة أو التفكير في المشاكل الفلسفية الراضيات بوضعيتهن في بعض الأحيان تحدث مشادات كلامية تتبعها أيام من الغضب ثم التسامح »[4]، ثم يصرّ الكاتب أيضا على إظهار حال المرأة مرة أخرى، فهي مهمومة على الدوام بالحصول على الرزق لها ولأولادها ولأسرتها عموما، سيما حين يغيب زوجها أو رجل العائلة، « كان زوجها عندما تتوفر له فرصة العمل يكسب الضروري... أما الآن وقد غاب زوجها فهي تتلقى المعونة من الناس... هي وصالحة... لديهن أولاد... غير أنهن يعرفن كيف يواجهن المصائب »[5]، ففي هكذا ظروف تتحمل النساء القرويات كل ألوان الشقاء والشعور بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقهن، وقد يضطر بعضهن إلى طلب العون فيما يشبه التسول، حينما يحال الأزواج على البطالة، ورغم ذلك فإنهن لا ينقطعن عن العمل المتواصل والسعي الدؤوب سواء في الأرض أو الحقول أو الرعي أو الاحتطاب إلى حرفة الفخار والصوف، إضافة إلى جلب الماء من عيون القرية التي تتموقع في

(1) عبد الله الركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، مرجع سابق، ص 91.

(2) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص 46.

(3) المصدر نفسه، ص 178.

(4) فاطمة سعدي، البراءة المسلوبة، مرجع سابق، ص 37.

(5) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص 58.

المنحدرات أو المرتفعات، وما على النساء إلا الهبوط أو الصعود والالتواء في المسالك والممرات الشاقة لجلب هذه الثروة، لكن هذه الخرجات قد تكون أيضا للترويح عن النفس كذلك. « في تلك الساعة تعوّد بعض النسوة على المكوث المتأخر قرب النبع وسواء كان الفصل شتاء أو صيفا... فإن الفلاحات يضيعن هنا وقتا لا متناهيا، كن يثرثرن ويلقين نظرات خاطفة نحو الرجال »[1]، والأمر يبدو رائعا لدى الشابات خاصة، حين يترقبن هذه الخرجات بفارغ الصبر وقد تحررن من قيود الأعمال المنزلية ولو للحظات فتلتقي الصاحبات والقريبات والجارات.

إن الخروج إلى هذه المنابع، وبقدر ما يمثل التعب والمشقة، فإنه يمثل أيضا فضاء للمرح والمزاح تنفيسا عن ضيق الحياة وعن خشونة العيش، وفرصة أيضا للتخلص من ملاحظات الرجال وانتقاداتهم ونظراتهم الحبلى بالتأويلات، وهي تبّطن اللوم والعتاب والتوبيخ على كل كبيرة أو صغيرة وكأن المرأة هنا مخلوق لا يجوز له الخطأ على الإطلاق، بينما يُغَضُّ الطرف عن زلات وأخطاء الذكور وإن تعددت هذه أيضا، معاناة نفسية نطق بها الروائي "محمد ديب" واصفا حال المرأة في قرية بني بوبلان فالأعباء تتثاقل على كاهلها يوميا، لكنها راضية بقدرها ما دامت الظروف فرضت نفسها هكذا، ثم إن جميع السكان يعيشون ويعايشون هذا الوضع دون استثناء وذلك ما يخفف عنها سوداوية المكان، فنادرا ما توجد الطبقية أو التميز في مثل هكذا ظروف، وإن علا صوت الرجال، فذلك لا ينقص للأمر مودةً.

وفي سياق عرض حال سكان هذه القرى يستوقفنا الروائي عند ظاهرة استغلال المعمرين لأبناء القرية بأجر زهيد أو حتى بدونه أحيانا رجلا كان أم امرأة، فلقمة العيش في هذه الجبال صعبة المنال والكل منشغل بها ولا يهم الجنس أو العمر أو المستوى أو الانتماء، سيما وأن الأرض لم تعد تفي بحاجات السكان «... ريم هي كبرى أولادي تقارب السادسة عشر كانت تعمل خادمة عند "**موسيو فيلار**"، الذي كان يطعمها، دام ذلك أزيد من ست سنوات، مرضت بنتي، لم يكتف "**موسيو فيلار**" بكونه

(1) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص 57.

استخدمها بقسوة بل طردها بعد مدة من ذلك ماتت »[1]، والأدهى في الأمر أن هؤلاء المعمرين يتجرؤون على التهديد والوعيد لكل من يخالف الأوامر، زيادة على استغلال عرق الجزائريين إذ يكتفون بإطعامهم وأي إطعام! وهذا في حسابهم يعوض لهم أجرتهم « قام المستوطن "**ماركوس**" بتشغيل عماله والمسدس في يده »[2]، هكذا يُعامل القرويون في بني بوبلان وفي عقر دارهم فالخوف ينتابهم أينما حلّوا وارتحلوا رغم أنهم ألفوا شراسة الطبيعة ورّوضوا تضاريسها المتوحشة، فكأن تواطؤا حصل بين جبروت المستعمر ووحشية الطبيعة، « كان المزارعون يغلقون أبوابهم قبل حلول الليل ساد أجواء القرية حيرة كبيرة خلت المسالك من المارة وخلت الحقول من الفلاحين، كان البلد ساكتا... كان الصمت عميقا إلى درجة توحي أن القرية قد أخليت من ناسها ثم في ليلة من الليالي سمع دوي أصوات النجدة! النار! »[3]، في هذه الدّوامة من الوجس والقلق يقضي السكان القرويون نهاراتهم ولياليهم، ورغم ذلك فإن أفئدتهم معلقة بهذه التضاريس والشعاب، فالقرية قريتهم والحقول أرضهم فما لهم من بديل أو مخرج، ثم إنّ أجدادهم وأباءهم الأولين قد سكنوا هنا دهرا، فما تركوا قراهم وما تأففوا منها وظلوا متمسكين بهذه الأرض الطيبة التي أنبتت الرجال والنساء الذين قهروا المكان وقارعوا العدو بأبسط الإمكانات، لكن بمعنويات جدّ عالية. فكيف لهؤلاء أن يسمحوا في تراثهم ومجدهم، ويتركونه عرضة للأخر الذي جاء ليسلب خيرات المكان، فيحرق الأرض وينهب خيراتها ويستغل عرق الأهالي.

هذه بعض مظاهر الحياة التي يعيشها القرويون في بني بوبلان بأعالي تلمسان وهي القرية التي تلامس سهولا خصبة يجول ويصول فيها المعمرون ويستغلون أرزاق هذه الأرض دون جهد منهم أو كدّ، بينما التعب والمشقة من نصيب الفلاحين الجزائريين، وإضافة إلى ما ذكر من ألوان الشقاء، يشير الكاتب إلى الضرائب التي تفرضها السلطة الفرنسية على هؤلاء القرويين من أجل لا شيء الضرائب على كل

(1) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص 213.

(2) المصدر نفسه، ص 210.

(3) المصدر نفسه، ص ص 216-217.

شيء، حتى على عدد المعزات التي يملكها القروي، فالمهم أن يزداد السكان فقرا وعوزا ومشقة. هذه هي قناعة المستعمر.« تلقيت ورقة من الضرائب حيث سجّلوا عليَّ ثماني معزات كان لي اثنتان والآن لا أملك ولو واحدة هذه هي وضعيتي »[1]، إنها صورة أخرى من صور الاستعباد والاستبداد والتعنت والاضطهاد من طرف المستعمر الفرنسي الذي يصر على خنق رقاب أهل القرى والأرياف، لكن هذه الطبقية وهذه الفوراق وهذا الحيف، سيؤسس لفكرة الانتقام والثأر عند هؤلاء الأهالي فلا شك أنهم يفكرون في التمرد والانتفاضة، خاصة حينما تبلغ المعاناة ذروتها ولم يعد للصبر مكان « لم نعد نملك قطرة زيت واحدة منذ خمسة عشر يوما! نحن نموت ببطء ونطالب بالحق في الحياة لنا ولأولادنا... نأكل الشعير... وننام على الأرض العارية لا نملك ثيابا هذا برنوسي الوحيد الذي أستعمله للباس والنوم »[2]، فحينما يتواطأ الفقر والحقرة على الإنسان في أرضه وفي داره، يبدأ التفكير في ردود الأفعال وتدنو ساعة الإنفجار، فمن ثمة تتجلى لحظات الحسم، وللصّبر حدود وللتحمل عتبات محددة لا يمكن تجاوزها. «أنا من دوار عُشبا... أنا وأولادي وزوجتي جائعون في كل الأوقات، أولادي يموتون جوعا لقد بلغنا أعلى درجات البؤس فما الذي نخشاه »[3]، بهذا المشهد قدم لنا الكاتب صورة لعائلة قروية تئن تحت قساوة الحياة في بني بولان. غير أن هذا الوضع يمثل أحد أثافي الحريق الذي يأتي على الأخضر واليابس في هذه التضاريس الموغلة في الفقر، فما هذه المشاهد المؤسفة إلاّ إرهاص أولّي لحقبة أخرى، قد تكون فضاء للحرية والانعتاق والعيش الكريم.

وفي الأخير لاحظنا ونحن نتصفح النماذج السابقة المختلفة ذلك التشابه الكبير بين بني بولان انطلاقا من رواية الحريق لـ "محمد ديب" وقرى جبال القبائل عند روايات "مولود فرعون" سواء من حيث جغرافية المكان أوظروف المعيشة، فالقرويون أينما كانوا وتواجدوا وسكنوا يصارعون الحياة يتحدّون صعابها دون كلل أو تعب، دليلهم في ذلك

(1) محمد ديب، الحريق، مصدر سابق، ص 213.

(2) المصدر نفسه، ص 212.

(3) المصدر نفسه، ص ص 212-213.

حب البقاء، حب الانتماء، كرامتهم، هويتهم، فوق كل اعتبار وفي نفسية كل قروي رغبة جامحة في التغيير والتجدد وطموح كبير لطرد المستعمر من الوطن مهما طال بقاؤهم، وهؤلاء السكان اقتنعوا أيضا أن تشبثهم بهذه الجبال والمنحدرات والتضاريس والأودية، يمثل صورة من صور النضال ضد المستعمر الفرنسي الغاشم، لأن الإصرار على اعتناق المكان دليل القوة، ورسالة للآخرين بأن كل الأمكنة التي سخرها الله للإنسان لابد أن تعمّر وتمتلأ وتمارس فيها الحياة بكل أوجهها، فليس من الرجولة بمكان أن تدار لها الظهور، بل هي الصرخة التي تدوي دوما في نفوس الأهالي، ونداء أبدي للإنسان حتى يأنس بالمكان ويؤنس المكان أيضا، وما الأرض إلا قلب المرء الذي ينبض بالحياة، وللقرية سرّها وجمالها أيضا، ولا شك أن الإنسان اقتنع في قرارة نفسه أن سعادته تكمن أيضا في هذه القرى والمداشر، حيث الشعور بالدفء والأنس في وسط الأسر والعائلات، ففي هذه الرحاب الشاسعة تطمئن النفوس ويهدأ البال وأينما يمّمت وجهك إلاّ وتتذكر أن المكان كان أجمل مهد لعهد الطفولة ويذكرك بأولئك الفلاحين السعداء البسطاء الذين يتمسكون بأرضهم وحقولهم وبأخلاقهم العالية « يتمدّد الفلاحون في فترة القيلولة تحت الأشجار، فيغفو بعضهم ويتيه البعض الآخر في أحلام اليقظة »[1]، ولا بأس إن واجهتهم بعض الشقاوة وضنك العيش، فهذا المكان عند هؤلاء ليس موضع سكن وعمل ونشاط فحسب بل وعلاقات إنسانية وأكثر من ذلك فهو الهوية والإنتماء وحياة تمارس وموت في النهاية بين جنباته.

(1) أحمد منور، قراءات في القصة الجزائرية، مرجع سابق، ص 86.

الفصل الثانـي

القرية وأبعادها في الرواية الجزائرية بعد الاستقلال

الفصل الثاني

القرية وأبعادها في الرواية الجزائرية بعد الاستقلال

الأنموذج الأول: القرية في رواية «ريح الجنوب» لـ "عبد الحميد بن هدوقة"

الأنموذج الثاني: القرية في رواية «على جبال الظهرة» لـ "محمد ساري"

الأنموذج الثالث: القرية في رواية «أتصمت العصافير» لـ "محفوظ خليف"

الأنموذج الأول: القرية في رواية «ريح الجنوب» لـ "عبد الحميد بن هدوقة"

ونحن بصدد البحث عن واقع القرية بعد الثورة الجزائرية المظفرة بوقت قصير استوقفتنا رواية «ريح الجنوب» لمؤلفها "عبد الحميد بن هدوقة"، فعلى قمم الجبال أو في سفوحها وبين هضباتها ووديانها وأخاديدها استطاع المؤلف أن ينسج أحداث هذه الرواية، وأبى المكان إلا أن يكون **قرية**، وقد ركز مؤلفها على محورين أساسيين: الأرض والمرأة باعتبارهما سرّ المكان وجماله، ففي كل قرية من قرى الجزائر يصادفك الإنسان متشبثا بأرضه، حقوله ومراعيه ومواشيه، وبكل ما يعكس تراثه رجلا كان أو إمرأة. ولعل نشأة الكاتب في الأوساط الريفية قد أكسبته إطلاعا أوسع بأوضاع القرويين الاجتماعية وحالاتهم النفسية الباطنية، ففي هذه المقاربة والحوارية مع هؤلاء رحل الكاتب إلى هذا المكان في محاولة منه لاكتشاف أسرار القرية انطلاقا من أوضاع السكان ورؤاهم الاستشرافية نحو المستقبل وعلى بساطة آمالهم وشدة آلامهم ومعاناتهم وسرّ تمسكهم بهذه الطبيعة الشرسة والجميلة أيضا، التي تتلوى فيها قراهم بأصوات فلاحيها ورعاتها ومواشيهم ودوابهم فمن هذه الأرض الطيبة، الصعبة الولوج القاسية الوعرة ذات الدروب الملتوية، الصاعدة والمنحدرة استنطق الروائي "بن هدوقة" بعضا من واقع المرأة، سيما المثقفة منها. فهذا المكان ألا وهو القرية، لا يمثل في نظرها إلا صورة للحياة القاسية، ولا يعدو أن يكون إلا فضاء للمعاناة وللقهر وللحيف وللجهل أيضا. فبهذه السوداوية والعتمة يتراءى هذا المكان للفتاة الجامعية خصوصا والتي عادت إلى قريتها لقضاء العطلة بين جنباتها، تاركة أجواء العاصمة حيث كانت تدرس. فاليوم لم تعد ترى في قريتها إلا وعاء للكبت والحظر والمنع والألم والقهر وأكثر من ذلك، باتت تلامس في هذا المكان عقليات متحجرة لا تزال تتشبث بالماضي السحيق دون وعي أو إدراك، وهذا ما آلمها وزادها تذمرا وسخطا. « كل شيء هنا يحرّم، الخروج، حتى الشمس! ... لكن أي فائدة في الخروج إلى الخراب... الصمت الصمت الصمت! أكاد أجنّ من هذا الصمت جدران أربعة وسقف من خشب وصمت! أكاد أختنق من هذا السكون وهذا الصمت مسكينة أمي لو عرفت الجزائر لبكت

لرجوعي »[1]، بهذه الكلمات والأوجاع تنهدت هذه الفتاة، وهي تقدم للقارئ إحدى الصور القاتمة عن قريتها، « بينما كانت نفيسة تعاني الإحساس بالضيق في القرية وتعدّ الساعات عدّا لتعود إلى الجزائر العاصمة، فكيف لا وهي في قرية ريفية في وضع متخلف »[2]، فلقد أصبح المكان أمام عينيها في هذه الآونة أشبه بسجن، تلفّه مجموعة من القيود الاجتماعية والنفسية، في كنف الهدوء القاتل الذي أضحى يخيم على القرية مما زادها غربة ووحشة، مقارنة بأجواء المدينة المملوءة بالحيوية والحراك المستمر، وبالطموحات العريضة سيما للشباب المثقفين. « فالمدينة... تعني شيئا آخر يسري فيه الدم تماما كالكائن الحي، تعني الحركة الاجتماعية الدائبة والمتحركة أبدا وعلاقات الناس الجديدة، بكلمة مختصرة المدينة مطروحة كبعد جمالي »[3]. هكذا كانت الرؤية نحو المدن لهذه الفئة من الشباب، وهكذا رحلت نفوسهم إليها، فهي المستقبل لأن الماضي ذهب ولن يعود، فالوقت وقت الانطلاق والانعتاق من قيود القرية وأهلها ولاكتشاف عالم جديد، تحتضنه عقليات متجددة طموحة متوثبة، فكل شيء في المدينة ينبض بالحياة، فالقرية في قناعة هؤلاء الشباب المتعلمين، لم تعد تسع أحلامهم وآمالهم العريضة، بل العكس، فعلى جنبات هذا المكان تتحطم أفئدتهم المتدفقة بالطموح، وفيها تكبر خيبتهم وتنطفئ نظراتهم الاستشرافية للمستقبل. « كل الطلبة يفرحون بعطلهم، أما أنا فعطلتي أقضيها في منفى »[4]، بهذا الشعور المؤلم نطق الروائي على لسان إحدى شخصيات روايته، فلا حياة تدب في القرية ولا طعم لها ولا ذوق ولا انجذاب. بل إن المكان يوقّع على الموت والفناء بين مخالب ذلك السكون الرهيب الذي يتلوى بين هذه التضاريس الوعرة. وفي هذه الإنكسارات تظل المرأة حبيسة المكان ورهينة لسلطة الرجل، فها هي إحدى الأمهات تخاطب ابنتها بلهجة النصح والتحذير والتهديد « وهنا يا بنيّتي إن خرجت ماذا ترين... هنا لا شيء، أكواخ وجبال

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، ط5، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 2008، ص 8.

(2) عمر بن قينة، الأدب العربي الحديث، ط1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1999، ص 169.

(3) واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، 1986، ص 394.

(4) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 10.

وليل ونهار... الرجال هنا كالوحوش يلتهمونك بأعينهم إن رأوك فهم لا يرون مثلك في بيوتهم ولا في غدوهم ورواحهم »[1]، هذا بعض من الحوار الذي جرى بين الأم وابنتها فيه كثير من المنع والتخويف والدعوة إلى الانصياع، وكل هذه الممنوعات موجهة أساسا إلى المرأة القروية، وإلى الفتاة بالتحديد والتي نالت حظا من التعلّم، وهنّ قليلات لكنهن يظلن يخضعن لأوامر استبدادية ليبقين رهينات دوما وماعليهن إلا الإصغاء والتطبيق والسكوت.

وفي ثنايا الرواية، نستشف تلك الفروق الاجتماعية وحتى النفسية بين الجزائر العاصمة وقرى جبال جرجرة، ذلك ما جاء على لسان "نفيسة" بطلة الرواية، الطالبة الجامعية التي صدمت بواقع قريتها، بعد أن تذوقت بعض الحياة في المدينة، وها هي تندب حظها بين جنبات قريتها التي استحالت في عينيها إلى مصدر قلق وحزن «الحجرة ضيقة طولها ثلاثة أمتار وعرضها كذلك. بها كوة خارجية مطلة على جزء من البستان... وفي هذه المساحة السرير القديم الذي تنام عليه نفيسة... وخزانة أشد قدما منه... وقرب الكوة منضدة ومقعد خشبي »[2]، هذه صورة البيت في القرية، فهي لا تعكس إلا العدم والفقر والخصاصة. فحتى شيئيات المكان حزينة، لا تزيدك إلا غمّا وهمّا من كثرة قدمها أو توغلها في البساطة، ممّا يضفي على هذه البيوت الرغبة في الهجر والنأي والرحيل ويضيف للقرية أيضا صفة النفور عنها والارتماء في أمكنة أخرى تعجّ بالناس وبالأشياء وبالمحلات والمرافق، فالحياة تسري هنا في المدن وليس في الجبال الميّتة المقفرة الموحشة، هذه قناعة هذه الطالبة القروية الأصل والتي استسلمت لإغراءات المدينة وأضوائها وألوانها وحيوية مرتديها.

ومن هذا المنطلق تظل المدينة في عيون الشباب، مكانا مملوءًا، لا وقت للفراغ فيه، حياة تضجّ فيه باستمرار، ممّا يجعلك دائما في أريحية تتقاسم فيها لحظات رائعة في انجذاب إلى كل شيء وراحة البال رغم الزحمة والضجيج، فلا وقت لك حتى للقلق والحيرة، كما يعتقد هؤلاء الشباب الطموحون، فالمكان عامر والناس من كل حدب

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق ، ص 38.

(2) المصدر نفسه، ص 8.

وصوب. « أنسيت في الجزائر وشوارعها الطويلة الملتوية وضجيج أطفالها الذي يملأ الطرقات أنسيت في المكان والزمان »[1]. إن الحياة في المدن في نظر هؤلاء هي النعيم، هي النشاط الدؤوب، هي ملاقاة الآخرين، هي فضاء لشبكة من العلاقات التي لا تنتهي، هي مصدر الثروة أيضا، ممّا يضفي على سكان المدن اللّطف والحيوية والمرح، عكس القرى الحزينة، الموحشة البائسة، فحتى وجوه أهلها توحي بالحرمان والمعاناة وبالفقر المدقع، إضافة إلى الجهل والتقوقع والانكماش، وهذا ما يحزّ في هؤلاء الطلبة العائدين إلى قراهم والذين فقدوا نكهة المراجعة أو المطالعة في بيوت قراهم القديمة والمهترئة، « ولكنها لم تستطع مواصلة القراءة فالسطور بدت لها أنهجًا! أنهج مدينة الجزائر وشوارعها الطويلة الملتوية... واستحالت إلى أشخاص تغدو وتروح في جلبة وحركة دائمة »[2]، إن مثل هذا النشاط المميز الذي يملأ المدن يكاد أن يكون منعدما في القرية، وإن افترضنا وجوده فما هو إلا حراك إلى الحقول والأرض وإلى المراعي، حراك مفروض يتسم بالخشونة، ثم إنه محدّد زمانا أيضا. وهذا ما يزيد من قساوة العيش، في روتين قاتل، لتبقى آمال وطموح القرويين معلقة بوعود المسؤولين المحليين وما أكثرها وما أكثرهم! في ظلّ غياب تفعيلها ميدانيا، سيما وأن البلد كان بالأمس القريب تحت وطأة المستعمر، مما يجعل الوثبة الاقتصادية والتنمية الاجتماعية، عزيزة المنال في مداها القريب، وفي مثل هذا الظرف الذي يعتبر مرحلة انتقالية بين حقبتين قريبتين زمنيا. فكأن الأوضاع بقيت كما كانت، إذ لا تصادفك في القرى الجبلية وفي هذه التضاريس الوعرة إلا آثار الدمار التي خلفها المستعمر، آثار طبعت المكان بالوحشة والسكون وبكثير من الإحباط لدى الساكنة. « فإنّ القرية المركزية تمثل للزائر الأجنبي، مشهدا حزينا يؤلم النفس والنظر. تشبه القرى التي تصورها عدسات المصورين بعد النكبات الحربية أو الكوارث الطبيعية... ولو رُئيت القرية حينئذ من طائرة هليكوبتر لمثلت واديا كثير التعاريج، لا يسيل فيه الماء ولكن يمتلئ بالغبار واللهب في هذا الجو الكئيب وفي تلك الطريق الوحيدة كان المعلم وحده

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 14.

(2) المصدر نفسه، ص 13.

ماشيا في ملل إلى المقهى »[1]، هكذا بدت القرية في «ريح الجنوب»، تلفها الكآبة والحياة القاسية وتضاريس وعرة موحشة تحيلك على المجهول أحيانا، وأنت تزور هذه الأماكن، يتبادر إلى الذهن سؤال محير، كيف استطاع الأهالي المكوث هنا في ظل انعدام الإمكانات، حتى الأبسط منها « هنا أيضا وكما هو الحال في باقي الأماكن يستضيئ الناس بالمصابيح الزيتية أو النفطية أو بالشمعة لأن الكهرباء تعدّ من الكماليات التي لم يعرف القرويون بشكلها بعد، وهي لا تضيء سوى المدن ومزارع الأوروبيين »[2]، فالظلام جزء من حياة هؤلاء، فلقد ألفوا حلكة الليالي وضباب الشتاء الذي يحيل القرية إلى عتمات أخرى، تزيد المكان وحشة ورهبة.

ورغم هذه المناظر الحزينة القاتمة فإن للمكان بعض الجمال أيضا، وأنت تجوب مثلا أرجاء القرية لا تسمع إلا أصوات الرعاة يعزفونها أنغامًا رائعة، علّها تكسّر سكون المكان الرهيب، فلكل راع ناي، من صنع يديه، لا تراه إلا في فمه، يسلّي به نفسه وحتى ماشيته، ولا بأس إن استأنس الفلاحون هنا وهناك بتلك النغمات، نغمات يعبق بها المكان في سرّ جذاب بما فيها من نبرات الحزن وخيبة الأمل، ومن خلالها يبثّ الرعاة مكبوتاتهم التي أسكتها المكان وألجمتها عادات وتقاليد وأعراف القرية « وكانت منذ أن فتحت النافذة وهي تسمع أنغام ناي حزينة متقطعة آتية من بعيد، أفرغ فيها صاحبها كل ما يفيض به قلبه من حنان ووحدة وشوق، أنغاما صافية عذبة كأشعة القمر... وراحت تصغي إلى الأنغام... وتبحث في أعماقها عمّا تعبر عنه »[3]، تلك هي ألحان الرعاة في هذه القرى، تجمع بين الشوق والحنين ومشاهد الأسى والحزن فحينذاك يتقاطع القلق بالمتعة وتتصادم أيضا العواطف الإنسانية، فهذا صوت يرثي واقع القرية، وذاك يتذكر بعضا من ماضيه السّحيق، والآخر يستفهم عن مستقبل المكان في مثل هذه الظروف القاسية. ومن جهة أخرى وأنت تجول ببصرك يصادفك مشهد المواشي، وهي تجول وتصول في المراعي، ملتهمة النبات والعشب، وفي هذا

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 75.

(2) عبد المجيد عزي، مسيرة كفاح في جيش التحرير الوطني الولاية الثالثة، دار الجزائر للكتب، 2011، ص 44.

(3) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص ص 13-14.

السكون الرهيب يلتقي صوت مضغها واجترارها للأكل، مع أنغام الطبيعة والرعاة، إنها سعادة المخلوقات على أديم الأرض! « وغاصت وراء الأنغام تستكنه ما توحي به من مكنونات الريف وأسرار جماله وتخيلتها صارت أجنحة خفاقة وهي فوقها »[1]، هكذا صوّر لنا مؤلف هذه الرواية "عبد الحميد بن هدوقة" مشهد الراعي والغنم في هذه القرية، إنه جمال أخاذ، يسحر حتى المتباهين بحياة المدن، فحين يأسرك المكان ويبهرك، تجد الطبيعة تزداد تألقا وتتباهى في عفوية وبساطة، كبساطة السكان والأهالي وسذاجتهم وغفلتهم وصفاء سرائرهم. فعن مشهد الغنم وهي تستجيب لرعاتها، يستوقفنا الروائي قائلا: « وراح يعزف ألحانه إلى غنمه وخرافه متنقلا بها من مرج إلى أخصب منه، من عين صافية إلى أخرى أصفى وأعذب يناديها فتستجيب ويأمرها فتطيع ويعزف لها حنانه وشوقه على نايه فإذا هي نشوى فسكرى وإذا هي ترد على ألحانه بأرق ما تستطيع من ثغاء عذب جميل »[2]. لا شك أن الروائي تفنّن في وصف هذا المشهد الذي يمنح للقرية اللحظات الجميلة الممتعة قد تعفيك من الحزن والهمّ ولو لزمن قليل، جمال أخّاذ يصنعه الرّاعي وغنمه، وعيون الماء المتدفقة تلاقيك أينما أدرت وجهك وشنفت أذنيك أصواتُ أبدعها الخالق في سائر مخلوقاته، فكلّ ما في الطبيعة يغني، فمن خرير الماء إلى صفير الرياح وأنغام الناي وثغاء الخراف وحتى عواء الذئاب، فذلك لا يفسد للأمر ودّا، فالقرويون عموما لا تخيفهم هذه الأصوات وإن أزعجتهم، فلقد ألفوها وتكيفوا معها، حتى غدت جزءًا من حياتهم، ثم إنها صور تضفي على القرية لمسات مميزة ومناظر طبيعية جميلة، ولعلّ هذه المشاهد التي تمتزج فيها المتعة والقلق قد انطبعت في نفوس الأبناء الذين نأوا عن قراهم لظرف أو لآخر، غير أنهم يحلمون دائما في أمل العودة إليها باستمرار، ففيها يتذكرون طفولتهم وشبابهم فمن ثمة تكبر طموحاتهم وأمانيهم عسى أن تتغير أوضاع قراهم الاجتماعية، سيما وقد لامسوا في حياة سكان المدن حياة الرفاهية ويُسر المعيشة، بينما بقي أهلهم يرفلون في قساوة العيش وقهر المكان، وذلك ما يحزّ في نفوسهم، فكأن الشقاء لا يزال سيد

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق ، ص 14.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الموقف في قراهم حتى بعد الاستقلال، والوضع كما هو أينما حلّوا وارتحلوا بل أصرّت هذه القساوة على المكوث بجانبهم في هذه المرتفعات والسفوح والروابي والهضاب، إنه شقاء عنيد أبى أن يرحل عن المكان، ممّا يبعث على الخيبة والانكسار الدائمين وعلى وجه أخص في نفوس الشباب الطموحين، غير أنّ طموحاتهم بقيت أسيرة هذه التضاريس الوعرة وأسيرة الظروف الاجتماعية القاهرة كالفقر والعوز وقلة الإمكانات أو انعدامها.

وبين ثنايا رواية «ريح الجنوب» لمؤلفها "عبد الحميد بن هدوقة" يعود بنا الكاتب مرة أخرى ليطلعنا على تفاصيل وحيثيات الأيام التي تلازم الحياة المعيشية للسكان القرويين وما يميز يومياتهم سيما النساء القرويات، اللواتي يشقين على الدوام، ويتحدين الزمان والمكان والظروف القاسية بطول النفس، قد يفوق صمود الرجال أنفسهم، ولكن في عزة وكبرياء، فهنّ خادمات في بيوتهن وخارجها، ولا يتوانين البتّة في تقديم يد العون لأزواجهن سواء في الحقول وخدمة الأرض إلى الاحتطاب، أو في الرعي أحيانا. إضافة إلى الحرف اليدوية التي تمتهنها المرأة القروية لسدّ كثير من حاجاتها، كحرفة صنع الفخار والصوف والخياطة وغير ذلك. « دائما مع الأواني والفخار يا خالة! فأجابت العجوز بتصميم وبلهجة هادئة مؤمنة أنا والفخار إلى الأبد »[1]. إنها حميمية مطلقة بين الحرفة وصاحبتها، فلا تتوانى فيها لحظة أو تتخلى عنها، ثم إنها حرفة الآباء والأجداد، فهي الأصالة والتراث وسرّ بقائها ها هنا تقبل عليها بكامل الحيوية والاطمئنان والرغبة الملحة في التأصيل، فبهكذا عنفوان وثقة بالنفس نطقت إحدى العجائز القرويات، فتجلّى في كلامها كثير من الافتخار والاعتزاز بهذه الحرفة التي ما فتئ القرويون يرثونها أبا عن جدّ، فما بدّلوا عنها، بل أكثر من ذلك فهم يرون أن التراخي فيها أو التراجع عنها، يعتبر ضربا من العقوق ونكرانا لعادات وتقاليد الأسلاف والأجداد، بل إساءة للقرية كلها. إنّ الزائر لهذه القرى سيلاحظ أن كلّ أسرة تتباهى بهذه الحرفة، وبأوانيها المنزلية المصنوعة من طين البلد. « ليس في هذه الحجرة ما يلفت النظر فهي كآلاف البيوت القروية... في أحد حيطانها ألصقت لوحة مستطيلة... وفي

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 16.

الحائط المقابل علقت غرابيل وأوانٍ فخارية من ذات المعاليق »[1]. فبهذا الديكور البسيط، الرائع، تتألق جدران البيوت في هذه القرى الجبلية وبها تتزين، إذ أن لكل شيء ها هنا قيمته ومكانه ودوره وجماله أيضا. فالغربال على مختلف أنواعه مخصص لفتل الطعام، أو لتصفية بعض الحبوب لتمييز الصالح من الطالح منها. ومن الصور الجميلة أنه من حين لآخر يأتي مصلح الغرابيل من مكان بعيد إلى قرية معينة، ثم يصيح بأعلى صوته: «**إغربالن**» ويكرر ذلك مرارا، داعيا من يريد ترقيع أو أي إصلاح أو تجديد غربااله، فتأتيه النساء بالدرجة الأولى بمعية أطفالهن لهذا الغرض والمصلح يتباهى بحرفته أمامهنّ ويتحصل على رزقه بعرق الجبين، وبهذه الطريقة يعفى رجال القرية من حمل غرابيلهم إلى سوق المدينة لإصلاحها، إنّ القرويات بالخصوص النساء حريصات على امتلاك كل أنواع الغرابيل، منها الخشنة الثقوب، أو الخفيفة، الغرابيل الصغيرة والكبيرة، وبموازاة ذلك يسهرن على الطهي في الأواني الفخارية، بدل الأواني الزجاجية، لما للفخار من نكهة ولذة وصحة ومتعة، ولكونه أيضا موروثا حضاريا ولمسة من لمسات الأسر القروية المشهورة بطهي الطعام على مدار السنة، إذ يصادفك دخان الحطب يخرج من فوهات المواقد لهذا الغرض أو ذاك، ويملأ الحارات والأزقة، وعلّه يخفف من برد المكان أيضا، خاصة في أيام الشتاء الباردة ممّا يجعل ثياب الأهالي تنبعث منها رائحة دخان الحطب دائما وما وجدوا في ذلك حرجا.

ورجوعا إلى واقع المرأة القروية، فنجدها تتباهى في صنع الأحسن والأجمل من الأواني التقليدية، وأكثر من ذلك يتفنن في الرسم على أجساد تلك الأواني، وذلك عن فطرة وسليقة ومراس، علما أن هؤلاء النسوة لم يتخرجن من معاهد أو مدارس الفن والرسم والنقش، وبذلك تعتريك الحيرة كيف أنّ الطبيعة في هذا المكان ألهمت المرأة هذا الفن من دون سابق إنذار. « هذا الكوب لك يا نفيسة، أرأيت هذه الوردة المرسومة عليه؟ إنه لك صنعته من أجلك... أما هذا الذي رسمت فيه عرجونا فهو لسي عابد وهذا المثرد لخيرة »[2]. فبهذه العفوية تحرص المرأة القروية على رسم أجمل اللوحات

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق ، ص 17.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

والنقوش على تلك الأواني الفخارية المنزلية، ممّا يضفي عليها جاذبية وجمالا. فيقبل عليها أفراد الأسرة رغبة للأكل فيها أو للشراب منها، وهم مقتنعون أنها تحفظ لهم صحتهم وعافيتهم. « أتمت إعداد القهوة فناولته فنجانا من فخار قديم من الفناجين التي أعطته إياها العجوز رحمة مقابل مساعدته لها ذات يوم، تأمل الفنجان لحظات ثم شرب ما فيه وخرج »[1]، فهذه الأواني كلما ضربت في الزمن القديم ازدادت بهاء وكلما ازينّت ازادت أيضا جاذبية، وكثر الطلب عليها، فهكذا تظل رفوف البيوت عامرة بها وكذلك المطابخ وغرف التخزين، فالمتعة كل المتعة تتجلى في حضور هذه الأواني في مختلف حجر الدار، وتعتبر أيضا إضافة إلى كونها أدوات للأكل والتخزين، رمزا من رموز حضارة سكان القرى في هذه المرتفعات والسفوح الجبلية، وفي هذه التضاريس الوعرة. « منذ أكثر من ثلاثين سنة وعيناها تنتقلانِ بين بعض الأواني الفخارية القديمة التي عندها بمثابة سجلّ قيدت فيه حياة القرية وأيامها »[2]، ولقد أشرنا سالفا إلى تلك الرسومات التي ترافق الأواني، وهي بدورها تؤرخ لأحداث عرفتها القرية في الزمن الغابر، استطاعت المرأة القروية أن تجسدها على مختلف الأواني وكأنها تتحدى بذلك النسيان والإهمال، فإذ بالتاريخ يُرسم على صدور هذه الأواني الفخارية ممّا يجعل الأجيال المتعاقبة تتذكر كثيرا من الأحداث التي عرفتها قراهم. انطلاقا من هذه الرسوم والنقوش « أنظر... هذا الرسم هو السنة القاحلة أرأيت؟ إنها سوق الزرع بلا سنابل وهذا الشكل هو «ريح التركة»، أرأيت هذه الشمس المظلمة التي لها مخالب؟ هي المرض يا بنيّ وهي الموت الذي خرب بيوتنا... وكانت الرسوم سوداء من صبغة... لا تزول مهما قدمت الآنية واستعملت »[3]، فبهذه الكيفية والإتقان الجيد، يتم إسقاط التاريخ... سيما الأحداث المؤلمة منها، وربما استهدفت المرأة القروية بهذه الرسوم أيضا تلك الرغبة الدفينة في الحفاظ على تواصل الأجيال ومحاربة النسيان، وتكون بذلك هؤلاء النسوة البارعات في الرسم وكأنهن يتحدين علماء الآثار، لكن بعفوية وبساطة وحب للمهنة وقناعة لا توصف، والأروع في هذا كله، لا تفكر النساء هنا

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 111.

(2) المصدر نفسه، ص 129.

(3) المصدر نفسه، ص ص 129-130.

بالجانب المادي لهذه الأواني كبيعها مثلا، بقدر ما تفكر في ترصيع بيوتهن بهذا الجمال والديكور الرائع وبإحياء التراث خاصة، هكذا دأب القرويون على استثمار كلّ ما تملكه قراهم من إمكانات طبيعية وهبها الله لهذه الأرض الطيبة، ومنها وبها استغنوا عن شراء الأواني الحديدية من السوق. « وراحت تبحث عن قدر صغيرة من طين أيضا لا تستعملها إلا نادرا فأخذتها وغسلتها ثم أوقدت النار وقربت الأثافي من الموقد في وضع مثلث، ووضعت القدر عليها ثم اتجهت إلى الصندوق الأسود حيث تخزن كل ما هو ثمين عندها، فأخرجت منه جرة سمن صغيرة وأربع بيضات »[1]. مع العلم أن المرأة التي تمتهن هذه الحرفة تعرف طبيعة الأواني جيدا والتي تحتمل الحرارة. ولاحظنا كيف توضع هذه الأثافي وهي ثلاثة أحجار على حافة الكانون تبعا للتسمية المحلية ثم يوضع عليها القدر فيُطهي الطعام بهدوء، ممّا يزيده حلاوة ولذة، ويمنح للبيت نكهة خاصة والدفء أيضا، سيما في فصل الشتاء البارد، حيث يجتمع أفراد الأسرة حول الموقد في حميمية، رغم تواضع حالهم وقلة إمكاناتهم، لكن قلوبهم عامرة ودافئة قلما تشكو أو تحتج وإن كان ذلك داخليا، فألسنتهم دائما تحمد الله وتشكره على نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى، فما أقوى قناعة هؤلاء السكان وما أكبر إيمانهم بما قدّر لهم في هذه الأرض الطيبة.

وبالإضافة إلى هاته الحرف التقليدية التي يبرعن فيها، تقوم النساء في القرية بأشغال مختلفة ومتعددة سواء داخل البيت أو خارجه، ليظلّ همّهنّ الوحيد هو المساهمة الفعلية في جلب الرزق، لإسعاد أسرهنّ وبيوتهنّ فلا تكلّ الواحدة منهن ولا تملّ، فنهاراتها مملوءة على الدوام بسعي دؤوب وإرادة من فولاذ ومواجهة عنيدة لظروف المكان القاسية، تتجرعها المرأة في هذا المكان في صبر وصمت إلى جانب الرجل. «أنا لا أطلب منها حلب الغنم ولا كنس المرابض ولكن تساعدني في العجين وغسل الثياب »[2]، هذا قليل من بعض ما طلبتْه إحدى الأمهات من ابنتها العائدة من العاصمة لقضاء عطلتها... فمن خلال هذا السّرد، نستنتج تلك المتاعب الكثيرة

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 124.

(2) المصدر نفسه، ص 28.

والأعباء الثقيلة التي تلقى على كاهل المرأة القروية، فمن جمع الحليب من ضروع الغنم، إلى تنظيف الإسطبلات، وما فيها من مشقة وتعب وتحملّ للروائح الكريهة التي تصدر من روث البهائم، لتنتقل بعد ذلك إلى تحضير الطعام، ولابد أن نشير في هذا المقام، أن المرأة في القرية تقوم بعجن الخبز يوميا أو ما يصطلح عليه «الكسرة» فالمخابز تتواجد في المدن عموما، وارتياد تلك الأماكن ليس بالسهولة بمكان، ومن أعمالها أيضا تجدها لا تتوانى في ارتياد ضفاف الوادي لغسل الثياب أو غسل الصوف، ناهيك عن جلب الماء للشرب من مختلف العيون، ففي هذا التراكمية من الأعباء يقف القارئ مستغربا، مندهشا من مدى قوة تحمل هذا المخلوق لهذا الكمّ من الخدمات اليومية، والأدهى في الأمر، وبعد كل هذه المهام المتعبة والدائمة، تُقابل في كثير من المواقف باللّوم والعتاب والازدراء والرفض، وبكمّ من الملاحظات والانتقادات من طرف أزواجهن خاصة أو حتى من غيرهم وما أكثرهم، وقد يصل الأمر إلى حدّ الاعتداء عليها وضربها أو الصراخ في وجهها، إذا ما فرطت في شغلها أو تراخت أو تأخرت عن إعداد حتى فنجان قهوة، وما بالك بوجبة غداء أو عشاء وهذا ما تتوجس منه بنات القرية عند الزواج، وبالمناسبة فإن أمر زواجهن ظل يشغل بل يؤرق الكبار من الرجال والنساء، فلا الدراسة تشفع لهنّ، ولا حنين الأمهات إزاءهنّ. وهناك قناعة راسخة عند هؤلاء جميعا وهي أنه لا بدّ أن تصبح هؤلاء البنات أمهات حتى قبل الوقت وكفى. فمن هذا المنطلق يُحرم عدد منهن من استكمال دراستهن، فَيُسقْنَ إلى بيت الزوجية، رغم صغر السن، ففي هذه اللحظات المؤلمة توأد أمانيهن وطموحاتهنّ إذ قلّما يسمح للبنت من متابعة مشوارها الدّراسي وإن حصل فبكثير من القيود والشروط. « لا لا، هذا لا يكون، الزواج بالبادية شيء غريب جدا، وبشع إلى درجة قصوى... إن الحياة التي تحياها الآن بين أهلها لا تختلف عما قرأته بخصوص عصور ما قبل التاريخ »[1]، بهذا الانفعال والتوتر قابلت إحدى الفتيات المتعلمات فكرة زواجها المفروض عليها، وهي التي كانت تحلم بأن تعيش في المدينة وتواصل دراستها وتتزوج أيضا هناك، فالقرية في نظرها مشنقة وبؤرة لكسر الأمل والطموح، وفضاء الخيبة

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 33.

والفشل والانكسار بينما يبقى الرجل هو سيد الموقف حتى في أتفه الأمور، وما بالك في أمر زواج ابنته أو حتى قريبة له، إذ لا بد أن يُستشار ليبدي رأيه بكثير من التعسف في غالب الأحيان، يدفعه إلى ذلك غروره بالرجولة المفرطة وخضوعه للعادات والتقاليد التي ينحني لها دون تردد أو تأجيل أو حتى لمآرب أخرى قد تكون مادية تشوبها الأطماع والمصالح لدى بعضهم « للفتاة في القصة الجزائرية حضور غزير بالقياس إلى شخصية المرأة والرجل المسنين، ... تأخذ أبعادًا رمزيةً للنضال أو التمرد على بعض العادات والتقاليد »[1]. هكذا هو بعض من شأن المرأة في القرية وبالأخص الفتاة المقبلة على الزواج، فكل طلباتها تعدّ تقريبا ضربا من الممنوعات. « كأَن المرأة مخلوق شاذ يجب ألا يعامل معاملة الأسوياء... الخروج عيب.. الضحك عيب... الحديث أمام الرجال عيب... التجمّل عيب... عدم القيام بُكرة عيب عدم الصلاة... عدم إتقان أعمال بدائية منزلية عيب... كل شيء هنا عيب! قيمة المرأة ليست فيما تحسن أو تعمل... ألسنة الناس... هي ميزانها، تنهدت بأسى »[2]. هذه إحدى الصور القاتمة للمرأة في القرى، فكل شيء محظور أمامها حتى ليخيل إلينا أن تكون هي بنفسها ممنوعة من الحياة، ففي نظر الرجل يكفيها أن تملأ البيت بجسدها، وتقدم الخدمات وتشتغل في الحقول وتجمع الغلات، وتكون أيضا آلة للنسل ولإشباع الغريزة الجنسية للرجل. غير أن هذا الوضع لن يبقى على هذا الحال بالنسبة للفتاة المتعلمة التي وطأت قدماها مدرجات الجامعة، وتلمست أسباب الوعي والانفتاح، فإذا بها اليوم تجنح إلى التمرد على مثل هذه العقليات والذهنيات القديمة المتحجرة، والتي لا تزال تكبّل القرويين خاصة النساء منهم، وإذا بها أيضا تثور حتى على أقرب الناس إليها وفي باطنها صرخة قوية، مفادها، كيف للمرأة التي صنعت الرجال وقهرت المكان والزمان، وكيف لا وهي التي ناضلت وكافحت وتصدت بالأمس القريب للظلم والطغيان أن يقمع صوتها وتكبح حريتها، فها هي تزداد وعيا للنضال أكثر، قصد تحسين أوضاعها، « فهذا المعنى البطولي والأسطوري في آن واحد هو قيمة حية مثالية

(1) شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة...، مرجع سابق، ص 203.

(2) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 36.

مجسدة أمام الشعب تغريه بحب الوطن وتمنحه الثقة في الثورة »[1] فلا الرجل يحميها ولا التضاريس الوعرة تتلطف معها. « لكن أنت امرأة وخروج من في سنّك لا يسلم عرضه من ألسنة السوء...إن جهل الرجال هو الذي أطلق ألسنتهم بالسوء فينا، وإن جهل المرأة هو الذي يجعلها تحيا بين عبودية الآباء والأزواج»[2]، غير أن الأمر الذي يزيد الفتاة حيرة وقلقا وانقباضا، كون هذا الاضطهاد الممارس في حقها، يصدر من الأقربين إليها كالآباء والأزواج أو الإخوة، وهم أولى من يحنّ عليها ويرأف بحالها. «أبوها يقرّر منعها من العودة إلى الجزائر من مواصلة الدراسة، يقرّر تزويجها... يختار هو من تتزوج... القرية لا تهضم حرية فتاة بلغت سن الرشد... كأن الرشد انحراف عقلي تُقَيَّد فيه الحرية! الدين أيضا له كلمة حتى في الملبس عليها أن تلبس أثوابا لا تسمح للنور بملامسة جزء من ساقيها أو ذراعيها أو صدرها »[3]، بهذه الأفكار والرؤى تجد الفتاة نفسها فريسة للقرارات التعسفية في حقها، فوضعها يشبه وضع المرأة في العصور الأولى ولو بنسب متفاوتة، وما على هذا المخلوق إلا الإذعان والاستسلام أو مغادرة القرية والمكان وذلك أسوأ حل بل مستبعد تماما وغير وارد على الإطلاق في ذهنية السكان الرجال منهم خاصة، والنساء أيضا، فالعادات والتقاليد والأعراف بالمرصاد، لكل من يتجرأ على الخروج عن الطاعة أو الدعوة إلى تغير نمط العيش والسلوكيات الحياتية، والأدهى والأمرّ إذا بدرت من طرف الأنثى فتلك مصيبة لتظل اللعنة تلاحقها حتى إلى درجة التبرئة منها.

ثم إن الغريب في الأمر أن هؤلاء الرجال المستبدين، والمتعسفين في حق أبنائهم وبناتهم تجد معظمهم يرتاد المساجد لتأدية الصلاة، وإذا بهم بعد ذلك يفعلون عكس ما ينصّ عليه الدين الإسلامي من الدعوة إلى تهذيب الأنفس والاستقامة واحترام الآخر والإصغاء إليه وحب الخير له، ومؤانسته ورفع الغبن عنه وتيسير أمور الحياة له «وقالت في نفسها بغضب: الصلاة... لا يعرفون هنا إلا الصلاة والموت، أمّا الحياة

(1) محمد سعدون، تجليات النص من زوايا نقدية، ديوان المطبوعات الجامعية، 2018، ص 11.

(2) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 36.

(3) المصدر نفسه، ص ص 87-88.

فهي وساوس شيطان »[1]، هذا بعض من رد الفعل لفتاة جامعية، في ثنايا قريتها، فيه كثير من التذمر والسخط إزاء هؤلاء الذين يدّعون التدين ثم يعنفون أبناءهم وبعض ذويهم باسم الرجولة والسلطة، وباسم عادات وتقاليد ومعتقدات سائدة مترسخة في الأذهان، فكان لابد أن يُراجع بعض منها أو يعاد النظر فيها، لكونها قد تجاوزها الزمن طالما أنها تعيق حياة الكثير من الأبناء، وتكبح طموحاتهم المتأججة لتجعلهم أسرى المكان بين هذه المرتفعات والسفوح الجبلية، فتجدهم ضحية واقع مزري مفروض عليهم في كنف تقاليد بالية تسيء أكثر ما تنفع، ومن ثم ينشأ الشباب على جملة من العقد تحيله على الانطواء والتحجر والتفكير في مغادرة المكان أو حتى إبداء بعض الجحود لهذه الأجواء المملة والتنكر إليها بل الثورة عليها.

ومن جهة أخرى استوقفتنا في هذه الرواية ظاهرة اجتماعية أخرى، ظلت هاجسا للسكان والأهالي، بل وتعكّر صفو يومياتهم، ألا وهي تلك النزاعات والمناوشات التي تحدث بين سكان القرية الواحدة، وفي أغلب الأحيان، تثار لأتفه الأسباب، إذ تكون على شيء لا يستدعي خلافا أو على سوء فهم، وفي معظمها خلافات حول الأرض بما فيها الحدود والممرات، فتكبر حينذاك أنانية المتخاصمين، كما تكبر لهفتهم أيضا ممّا يفضي إلى الصدام الذي يتحول بدوره إلى صراع عائليّ أو عروشيّ، ويمتد هذا الصراع حتى إلى الأموات والقبور. « وقعت بينهم مشادات عنيفة كادت أن تؤدي بالقرية إلى حرب أهلية وكان السبب هو أن أحد الذين شاركوا في حرب التحرير مشاركة فعلية أراد أن يضمّ رفات أخيه الذي قتل أثناء الثورة لسبب لا يتصل بحرب التحرير، إلى رفات الشهداء، فاحتج ذوو هؤلاء أن يروا رفات قتيل تضم إلى رفات شهداء ضحوا بأرواحهم من أجل الوطن »[2]. فهكذا لم ينج حتى الأموات من صراع ومناوشات أهليهم الأحياء، ممّا يسيئ إلى العلاقات الاجتماعية، فتكبر المشاحنات ودواعي البغضاء بين الأسر والأقارب.

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 13.

(2) المصدر نفسه، ص ص 41-42.

فهكذا تعيش القرية في هذا الظرف التاريخي – أي بعد الاستقلال مباشرة – بعض المناوشات واللحظات الحرجة المقلقة بين أبنائها، لكن ولحسن الحظ فإن هذه الصدامات، سرعان ما تزول أو تهدأ، بتدخل الأعيان وكبار القوم من تجماعث القرية ذوي الرأي والحكمة والحسم، فتخمد نار كادت أن تأتي على الأخضر واليابس في كثير من الأحيان. « لكن في النهاية استطاع بعض أعيانهم أن يحسموا النزاع، متذرعين بأن القتيل لم يكن خائنا... وهكذا أطفئت نار التشاحن »[1]. ومن هذه المبادرات الخيرية والقناعات الراسخة بأن هؤلاء وهؤلاء تربطهم شبكة من العلاقات فإن القرويين قلّما يحيلون نزاعاتهم إلى أروقة المحاكم أو إلى أجهزة الدولة، فيحسمون الأمور فيما بينهم وبين أهاليهم وأقاربهم، لكونهم ينصهرون في علاقات عائلية تحدرت منذ الزمن البعيد، فكأن بهم أسرة واحدة، تتقاسم الآلام والآمال، ويجمعها المكان الواحد بفقرهم وبعوزهم وبطموحاتهم المتواضعة، كما تتشابه مصادر رزقهم أيضا، فلا فائدة في التفرقة أو الاختلاف أو التشاحن. « على أنّ الحقيقة هي أن القرية فقيرة سواء اتفق السكان أو اختلفوا، وأنها منعزلة عن كل شيء سواء تفرقت بيوتها هنا وهناك أو اجتمعت »[2]. بهذه الصورة تتمظهر القرى في جبال القبائل وحتى في مناطق أخرى من الوطن من حيث العلاقات التي يجب أن تتوطد فيما بينهم، فتلك الخصومات والنزاعات التي تشهدها القرى، لا تضيف للمكان شيئا سوى الهمّ والغمّ والتوتر في نسيج العلاقات الأسرية، علما أن معظم الأسر تعيش حالة اجتماعية صعبة وشاقة، فلا داعي لمزيد من الشحناء والبغضاء، وفي هذه الأجواء القاتمة يهمّ كثيرٌ من الشباب إلى الهجرة نحو أوروبا وبالأخص إلى فرنسا، هروبا من الواقع المزري لقراهم وبحثا كذلك عن فرص أخرى وآفاق رحبة، قد تسع أحلامهم وبعض طموحهم. « ثم هناك ميزة أخرى لها وهي أن معظم شبابها يعملون في فرنسا أمّا مثقفوها فلا يكادون يعدون على أصابع اليد وهم بحكم عملهم لا يعيشون في القرية »[3]. ومن ديار الغربة وبعد عمل شاق وحسن التصرف في المال، يرسل هؤلاء المغتربون بعضا منه لأهلهم في

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 42.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

البلد، علّهم يرفعون عنهم الغبن والبأس، وهم على دراية بحال أهلهم فيتذكرون قساوة العيش في القرية، ويتحسرون أيضا على مغادرتها، لكونها لم تعد قادرة على تأطير أفكارهم وآمالهم وطاقاتهم فإذا بالمكان يستسلم أمامهم ليخرج هؤلاء من قراهم جماعات وفرادى، وفي قناعاتهم أن الأرض لم تعد صالحة بل لا تفي بالغرض إلا لكبار السن من كهول وشيوخ أو لبعض من لم يسعفه الحظ من الشباب في الخروج، وبقي يفلح الأرض ويرتاد مقهى القرية كمتنفس له. « جاء للمقهى لا ليشرب القهوة... ولكن ليسمع ما جدّ من جديد في حياة القرية التي يسكن بها أو بالقرى المجاورة، إذ بالمقهى تستقى الأنباء عمّا يجري في قرى الناحية »[1] ففي مقهى القرية يتم لقاء الشباب بعضهم ببعض، بعد إنهاء أعمالهم، يروّحون عن أنفسهم فتجدهم منكبين على الألعاب الورقية المعروفة أو لتبادل أطراف الحديث عن كل شيء وعن لا شيء أحيانا، فالمهم أنّ المكان يصلح للقاء والسمر والمزاح وعلى بساطة أشيائه ومؤثثاته، وقد ينسيك الكثير من القروح ولو إلى حين، طالما هناك هرج ومرج وعناد ومزاح.

لا نتصور المقهى ها هنا محلا كبيرا، بل إنّه في الغالب ما يكون قاعة متواضعة جدا مبنية من الطين أو غيره، تجاور بيت صاحبها، ورغم ذلك يعتبر المكان مقصدا لكثير من القرويين الرجال وحتى الأطفال المتقدمين في السن، فيبدو المقهى إضافة إلى التقاء الناس فيه، أشبه بقناة إعلامية تتهاطل عليها أخبار البلاد والعباد، فيحلو الحديث وتكبر المتعة كما يعلو صياح اللّاعبين للدّومينو أو غيرها في جو حماسي لا يوصف. وفي هذا المكان يكبر وعي الشباب بملاقاة بعضهم البعض وتبادل الآراء والأخبار فيما بينهم، فيطلقون العنان لأفكارهم وانشغالاتهم، وحينذاك يدور حديثهم حول الهجرة، الدراسة، الزواج، الحياة في المدن، العمل، جمع الأموال، ومن هذا المنظور تتأكد لديهم قناعات كثيرة، غالبا ما تحيلهم في كثير من الأحيان على الحزن والألم والحسرة حينما يلتفتون إلى واقع قراهم، فيلفونها أماكن الشقاء والحيف والمعاناة، ثم إن خدمة الأرض لم تعد تشغل بالهم، بل بالعكس فهي تأكل أعمارهم وشبابهم وصحتهم شيئا فشيئا، فيتساءلون بامتعاض شديد ما قيمة هذه المرحلة من الشباب التي يمضونها

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 77.

بين هذه التضاريس المتوحشة والأماكن المنسية، فحتى أبسط شروط العيش لا تزال هنا عزيزة المنال! وكأن حال القرية لم يطرأ عليه جديد حتى بعد الاستقلال، فبقي كما كان إبان الثورة لا يزال يبكي حاله، يطبعه فقر وجهل ومرض وغياب لأدنى ضروريات العيش، « أعرف أن الماء قليل هنا ولكن من المسؤول عن قلّته؟ أليست البلدية؟ لو فكرت في جلب الماء للقرية وتنظيم توزيعه لما اكتنفنا الغبار حتى لكأننا في صحراء إذا نُظّم توزيع الماء فذلك يعني أن الناس يجب أن يستعدوا لمواجهة غرامة جديدة وهم لا يستطيعون حتى دفع ثمن الخبز »[1]، هكذا يندفع القرويون في سخط وتذمر منتقدين المسؤولين المحليين على تفريطهم إزاء سكان القرى، وهذا ما يجعلهم يفكرون في المغادرة والهجرة والرحيل إلى ما وراء البحار « كلا ليس الفقراء هم المسؤولون عن فقرهم، إنما المسؤول الأول هو النظام السائد والمسؤول هنا هي البلدية »[2]. وهذا المرفق كثيرا ما يبقى عاجزا عن تلبية احتياجات القرى، بحكم قلة موارده أيضا حتى وإن لم يقتنع الشباب بهذا العذر، بل يرون أن الإهمال وسوء التسيير هما السبب الأصلي للمشاكل المتراكمة والتي أثقلت كاهل السكان وخيبت آمال الشباب بالخصوص.

وإزاء هذا العجز يقف الروائي "بن هدوقة" متأسفا بلسان أحد أبطاله، على واقع القرى اجتماعيا بالخصوص، ممّا أحدث نوعا من الملل والإحباط والشعور بالضياع لدى شباب القرية. « الخزانة المالية التي تملكها البلدية لا تنضب، لو عرفتْ كيف تنفقها ... هذه السواعد المفتولة المشلولة التي تمتلئ بها المقاهي، هي المالية الحقيقية لكل بلدية، ولكن البلدية كما قلت لا تفكر في هذا، البلدية تفكر في الزواج »[3]. إنّ هذه لصورة أخرى لصور المعاناة التي تعج بها نفوس الشباب في القرى، فكلهم وعي وتذمر وسخط على منْ يتولى أمورهم من المسؤولين. إنها الصرخات التي ما فتئ القرويون يرسلونها من أعماق نفوسهم وهي تحمل أكثر من دلالة ورسالة، إنها

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 79.

(2) المصدر نفسه، ص 80.

(3) المصدر نفسه، ص 81.

إرهاصات الانتفاضة والتمرد على الأوضاع السائدة. فلقد أخطأ من يعتقد بأن القرويّ هو ذلك الذي يحشر أنفه دوما في خدمة الأرض ورعي الغنم، إنما هو أيضا ذلك الشخص الذي يحمل أفكارًا تتوهج، ورؤى مستقبلية استشرافية تتأجج، وأكثر من ذلك فهو يتمتع بذكاء حاد، ونظرة ثاقبة إلى ما حوله، غير أن المكان والمحنة والمعاناة سجنت الأفكار النيّرة لهؤلاء وأجّلت تحقيق أحلامهم، فغاصوا في المسكوت عنه. «الأمر بسيط، لو فكرت البلدية في إنشاء ورشات للعمل ولو فكرت في بناء دار للتربية والثقافة الشعبية... ولو فكرت في تعبيد طرق هذه القرية والقرى التابعة لها ولو فكرت في شق المجاري لما يخنقها من قاذورات، لما بقي فقر ولا جهل ولا ذباب ولكنها لا تفكر ولن تفكر ما دامت كما هي لأنّ هذه الأعمال تكلفها مجهودات مستمرة وهي تحب الراحة »[1]. بهذا اللوم والعتاب يتوجه السكان، سيما الشباب منهم إلى مسؤولي البلدية الذين أداروا ظهورهم للقرى، ممّا شحّن نفوس الأهالي بالسخط الدائم وما في وسعهم أن يفعلوا شيئا سوى هذه الانفعالات الظرفية، وسرعان ما يعودون إلى حقولهم بكثير من الألم وبصيص من الأمل يتذرعون من الله تعالى أن يحسن أحوالهم ويرفع عنهم الهمّ والغمّ وتتحسن أوضاع قراهم وشؤون أهاليهم.

ثم يذهب بنا صاحب الرواية ليطلعنا على واقع آخر لا يقل أهمية وهو الجانب الصحي في القرية، إنه انشغال آخر ظلّ يؤرق الأهالي، إذ تنعدم ظروف العلاج تماما وقلّما نجد مستوصفا، فما على الساكنة إلا التنقل إلى المدينة القريبة بشقّ النفس، وربما كان إلزاما على ربّ العائلة أن ينتظر يوم السوق للذهاب إلى الطبيب أو لإحضار الدواء، فعلى المريض أن يؤجل مرضه ويصبر في معاناة قد تصل به إلى الوفاة. « لم يكن بالقرية أي مركز صحّي ولا حتى أقراص «الأسبرو»... لست أدري حتى الطبيب لا وجود له في هذه القرية الخالية حتى طبيب المدارس لا يأتي في الصيف »[2]، فمن خلال هذا الواقع المزري تستوقفنا مرة أخرى صورة لمعاناة القرويين في هذه المرتفعات والسفوح والتضاريس الموحشة، فالموت يتربص بهم من كل جهة في ظل انعدام

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 80.

(2) المصدر نفسه، ص 143.

الإمكانات الصحية ورغم ذلك يرفضون أن يبقوا مكتوفي الأيدي، فتجدهم يتدبرون أمورهم ويعتمدون على إمكاناتهم المتواضعة في التداوي والعلاج، مسخرين ما تقدمه لهم الطبيعة من أعشاب مختلفة ونباتات، فيحولون بعضها إلى أدوية تقليدية، ألْفَوها ناجعةً للأمراض البسيطة كالزكام والجروح الخفيفة وبعض آلام المفاصل والمعدة وأوجاع الرأس وهم يتعاملون معها بعفوية وسليقة ودربة وتجربة، فلا يكاد يخلو بيت من بيوت القرية من مختلف الأعشاب التي يعود إليها السكان كلما اقتضت الحاجة حتى عرفوا حقيقتها وسبروا أغوارها، فمن ثمة استأنسوا بها للتخفيف عن أوجاعهم، فتراهم يلجؤون إليها كلما استدعى الأمر ولم يجدوا حرجا في معاطاتها كما كان يفعل أجدادهم وآباؤهم في زمن مضى، فالمرض لا ينتظر والدواء صعب المنال، وتلك الأرض الطيبة لن تخونهم أو تسيئ إليهم، أبدا، هذه قناعة راسخة في قلوب هؤلاء.

ومتابعة لعرض واقع القرويين في هذه الجبال والمرتفعات والسفوح، يستوقفنا الروائي بن هدوقة كسائر الروائيين عند مشهد القرية في يوم السوق، إذ يستيقظ الرجال في هذا اليوم على بكرة أبيهم وكلّهم حزم وعزم وحماس لارتياد السوق، وقد يصحبهم أطفالهم من حين لآخر رغم بعد المسافة. وغالبا ما تتموقع الأسواق في مركز البلدية أو في أقرب مدينة ليؤمها الناس من كلّ حدب وصوب. فهذا يبيع وذاك يشتري والآخر يرفه عن النفس، بهذه الحيوية يتم قضاء اليوم، ليعود المتسوقون إلى بيوتهم والكلّ ينتظرهم بشغف، علّ أيديهم تجود بما لذّ وطاب من مأكولات أو مكسرات أو بعض الكسوة، إضافة إلى ما يحملونه من أخبار جديدة عن أحوال البلد والعباد. « لعلّ هذه العشية يعود المتسوقون بأخبار جديدة.. ذهب الناس كلهم إلى سوق الجمعة »[1]. وفي هذا اليوم تترصد النساء بدورهن فرصة خروج الرجال إلى التسوق بفارغ الصبر، إنها لحظات ممتعة للتزاور فيما بينهن واللقاءات الحميمية. « الدار أغلقيها كما فعلت أنا، اليوم السوق، الدشرة خالية، كل الناس تسوقوا... يجب أن تذهب معنا على الأقل لتسرح رجليها.. أرغب في ذلك يا خالة. أود أن أرى الدنيا إنني اختنقت في هذا

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 23.

السجن»[1]. هذا بعض البوح تطلقه النساء وقد أرهقن بهموم الحياة وأتعابها ونمط عيشها القاتل، ففي هذا اليوم لن تسمع إلا لأصوات الأطفال والنساء تملأ الآفاق فكأن الجميع ركن إلى الراحة والترفيه عن النفس، وملاقاة الآخر وتخلِّص من ملامسة الأرض، كما تحرّر أيضا من تعنت الرجال وملاحظاتهم وانتقاداتهم الموحية باللوم والعتاب والتوبيخ على كل كبيرة أو صغيرة، وعدم الرضا على هفوات النساء، إن أغفلن أو أخطأن، ولا تشفع فيهن جهودهن المضنية في خدمة البيت وخدمة الأرض ومختلف الخدمات التي تسهر المرأة القروية على أدائها. وبعد هذه الإطلالة يمكن لنا القول أننا خرجنا باستنتاج آخر من خلال قراءتنا لهذه الرواية وهو أنّ واقع القرية بعد الثورة، لا يزال مقلقا وحافلا بالمشقة والعناء وأتعاب لا تنتهي، لكن يقابلها القرويون بالصبر الكبير الممزوج بالأسى وبكثير من الرضا أيضا بقدرهم في هذه السلاسل الجبلية الوعرة. « أصبحت القرية كئيبة حزينة تغطي سماءها زوابع الغبار وتتصارخ في جنباتها رياح هوج، فإذا هي شهباء لهباء يُسعَّر فيها الحرّ استعارا وأصبحت الوجوه يجللها الغبار، فإذا هي تبدو دكناء قانطة وأصبح الذين يملكون شيئا حيارى مما حلّ بفلاحاتهم من خسائر، والذين لا يملكون أي شيء.. صرعى من أزيز القبلي »[2]. هذا هو حال الأهالي في هذه الأماكن فالطبيعة لا ترحم شتاءً وصيفا ورغم ذلك ظلوا أوفياء مخلصين لقراهم على الدوام، آملين في أن تتغير أحوالهم وتتحسن أوضاعهم، وهم على قناعة راسخة أن هذه المرتفعات والهضبات لا يجب النأي عنها أو مغادرتها، فهي تذكرهم بأجدادهم وآبائهم وتراثهم، فليس من المعقول التفريط فيها. مع العلم أنّ الظروف الطبيعية والمناخية في القرية أشدّ وطأة وقساوة على ظروف المدينة، علما أنّ وسائل المجابهة والمواجهة في هذه الجبال ضعيفة وهزيلة لدى السّاكنة سيما في فصل الشتاء الذي لا يعتق أحدا في هذه الأماكن، وللصيف أيضا متاعبه عند هؤلاء القرويين، فغالبا ما ارتبط هذا الفصل بريح القبلي، وهي نوع من الرياح تهب من الجنوب، فتلحق هلاكا بالأرض والزرع والعباد. « القبلي هو سبب خراب هذه القرية،

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 20.

(2) المصدر نفسه، ص 190.

ما جمعه الناس من حصيد أصبح في الشعاب والأودية، لو كانت الأرض مشجرة لخففت من عنفها وخسائرها »[1]. فالملاحظ أن هذه الريح تأتي على أرزاق القرويين وتتلف ما جمعوه، ويظل هؤلاء يترصدون وقف هدوء القبلي لترجع الأمور إلى نصابها إنه صراع الإنسان مع الطبيعة. « سكتت الريح واعتدل الجو وهبت أنسام البحري (ريح الشمال) فأزالت عن النفوس ما كانت تجده من ضيق وتحسّه من حيرة وعادت إلى سماء القرية زرقتها الصافية وإلى أرضها لونها الصيفي وأفقها المحدب بقمم الجبال وجاء المساء فكان الغروب كما عهده الناس جميلا حزينا يودع شمسه وهي تنزل بأشعّتها الذهبية »[2]. إنها صورة رائعة من شأنها أن تكسّر وحشة المكان.

ولابدّ أن نعترف أنّ لهذا المكان أيضا روعته وسحره، خاصة عند الغروب، ففي هذه اللحظة يتعانق الإحساس بالجمال والإحساس بالخوف، لأن الغروب يعني أيضا الظلام، والظلام في القرية يُقابل بالتوجس وبكثير من القلق سيما في عزّ ليالي الشتاء الطويلة، إنها لحظات جدلية بين المكان والإنسان والوقت، ومن هنا نتساءل هل يبقى المكان الأليف دائما على ألفته وهل يمكنه أن يتحول إلى بؤرة للوحشة والخوف وهل يمكن أن تجتمع هذه الملامح في المكان؟ وما أثر ذلك على الإنسان نفسيا واجتماعيا؟ « إن الإنسان كائن مكاني يكتسب فواصله الفراغية في هذا الوجود من تلك الخصوصية المطلقة، لأن المكان يبقى في حيز العدم حتى يشغله الإنسان بوعيه وحركته، ومن هنا تنشأ علاقة دياليكتيكة بين وجود الإنسان ومكانه الذي يشغله في تفاعل خلاق يقوم فيه المكان بدور تعريفي بالإنسان »[3]. فمن خلال هذا الإستشهاد نستنتج أن قيمة المكان تتجلى في أشخاصه وأهله المقيمين فيه بالخصوص، فالقرية بهذه المؤثثات تتواجد بل وتحيا بسكانها وزائريها ومعجبيها، وبمختلف الأنشطة التي تمارس فيها يوميا، وكذلك بعاداتها وتقاليدها وطقوسها ولحظات أنسها ووحشتها أيضا ومن ثمة تتولى القرية مهمة صقل التجارب الإنسانية مختبرة في الأفراد والجماعات

(1) عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، مصدر سابق، ص 192.

(2) المصدر نفسه، ص 197.

(3) جعفر الشيخ عبوش، السرد ونبوءة المكان، مرجع سابق، ص 13.

قدرتهم على التحمل لأنواع المشاق، والصبر على ويلات الطبيعة، والقدرة على التحدي والبقاء. وهي معايير تنبئ عن مدى العلاقات الكائنة بين الإنسان والمكان، إذ أن كلاهما يكمل الآخر ويتواجد به، وكلاهما أيضا يتبادل الأسرار والهوية والحبّ والوفاء واستمرار الحياة، فهكذا كانت القرية على امتداد الزمن بمثابة الأصل والمرجع والمهد في حين تظل المدن هي الفرع، هي الإغراء، هي الوفرة، هي طموح الشباب في العيش بين جنباتها، بحكم وفرتها على أحسن الظروف والإمكانات مقارنة بالقرية، سيما في هذا الظرف التاريخي الذي تمر به البلاد، ومن ثمّة تتفاوت درجات الاستقطاب والانجذاب من مكان لآخر تبعا لموقعه ومحمولاته وظروفه الاقتصادية والاجتماعية ممّا يهيئ النفوس لارتيادها والبقاء فيها أو النفور عنها، فالإنسان بطبيعته يكره الجمود والارتكان في بؤرة مكانية واحدة، فذلك يعني له الموت البطيء، سيما عند فئة الشباب حتى وإن كان هذا المكان قرية تفتقر إلى أدنى شروط العيش.

« فالقرية... هي مكان شبيه مغلق، معزول يفتقر لأبسط المرافق، لذا يكون إيقاع الحياة فيها سكونيا نمطيا متكررا، قلما يتسع أو يتغير أو ينفتح، لكنه يخترق والاختراق هو عنصر الحركة الرئيس الممثل لإمكانية إحداث التغير »[1]. لكن رغم محدودية القرية وانغلاق الأفق فيها، يبقى مكانا يستقطب أهله وسكانه، ويمارسون فيه حياتهم رغم ما يتخللها من محن وأوجاع.

(1) الشريف حبيلة، الرواية والعنف، سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، مرجع سابق، ص 49.

الأنموذج الثاني: القرية في رواية «على جبال الظهرة» لـ"محمد ساري" (إبان الثورة وبعد)

لم يكن استقدامنا لهذه الرواية عن بقية الأعمال الأدبية على كثرتها أنموذجا آخر لبحثنا هذا اعتباطيا، بل كان ذلك انطلاقا من حضور القرية بكثافة في ثناياها، إذ تلمسنا بادئ ذي بدء حضور وتواجد القرويين بالمكان وتمسكهم به، إذ ليس من السهولة أن يطوِّع الإنسان هذه الجبال والقمم والمرتفعات والسفوح، سيما في الفترات الأولى من الاستقلال، حيث تنعدم أو تقل إمكانيات البقاء والحياة، فأينما يمّمت وجهك إلا وتقابلك مظاهر الفقر والمعاناة والقساوة وشظف العيش، أضف إلى ذلك تلك التضاريس الوعرة والدّروب الشّاقة، والطبيعة القاسية التي ظلت تكشر أنيابها على السّاكنة، خاصة في أيام الشتاء الطويلة. « فالبرد يصفع الوجوه والثلوج عادة ما تغطي الجبال والتلال حيث تنعدم الاحتياجات الضرورية للمقاومة، فالثياب قديمة مرقعة لا تملك قوة الحماية بل ولا تقوم بستر الأجسام النحيفة »[1]، إنها صورة من صور الفقر تدكّ السكان والأهالي، فلا يزال الفقر يتربص بهم من كل جانب، في هذه المرتفعات والسفوح الجبلية الوعرة، ورغم ذلك فهم متشبّثون بالمكان مقاومون، تتجلّى رجولتهم في مدى الوفاء والتمسّك بقراهم، فبالأمس القريب كانت هذه المرتفعات والجبال ملاذهم وحصونهم، حين كان المستعمر الفرنسي يتربص بهم الدوائر « وفي جهة ما يقف الجبل بشموخه وكبريائه مختزلا كل الأمكنة والجهات، هكذا يبدو المكان طبيعيا وكأن الخيال لم يلوّنه بألوانه الخاصّة، حيث النطاق الجغرافي محدد ومعروف »[2]، فمهما ارتحل القرويون أو سافروا أو تنقلوا، فإن لمكانهم الأول عبقا خاصا في أفئدتهم، إنّها القرية التي توقع على كينونتهم الأبدية، ففي مثل تلك الظروف المتميّزة في تاريخ الجزائر يتذكر الأهالي كيف لهذه الأمكنة استطاعت أن تقف قلاعا تحمي الثوار والمجاهدين، وكم كانت تجود بالرزق الوفير ولو كان أمر الحصول عليه شاقا وصعب

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 7.

(2) أحمد حيدوش، إغراءات المنهج وتمنع الخطاب، ط1، دار الأوطان للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2009، ص 114.

المنال، فمن هذه الرؤى والقناعات دخل "محمد ساري" إلى القرية مستكشفا بعض خصوصياتها شأنه شأن جلّ الروائيين، حتى يخيّل للقارئ أن مخاض الثورة انحصر في هذه الأماكن. « تلك الحرب التي عبّر عنها الأدب الجزائري أحسن تعبير لكن في عالم واحد هو عالم الريف، فيكاد الريف وحده هو الذي خاض الثورة وكأن المدينة ظلت طوال تلك الفترة نائمة لا تحيي لا سلبا ولا إيجابا »[1]، لكننا لا يجب علينا أن نغفل عن دور المدينة كذلك أيام الثورة المظفرة، فهي بدورها كانت مسرحا لأحداث عنيفة، وبين جنباتها تأججت روح الثورة أيضا. ورجوعا إلى صورة القرية في هذه الرواية «على جبل الظهرة» يطلعنا الروائي "محمد ساري" على حال مساكن القرويين، فصوّرها وكأنها تنطق بالعوز والخصاصة وبصور الاضطهاد والظلم التي لا تزال تطبعها حتى بعد الاستقلال. غير أنّ نفوس ساكنيها ظلّت مشحونة بالفخر والعزّة والكبرياء، وبصمود الرجال والنساء بين جدرانها وسقوفها وممراتها وأزقتها « تتصلب القْرابى بسقوف مغطاة بالديس وحيطان مطلية بالطين المختلط بالروث، متباعدة الواحد تلو الآخر ومترامية عبر التلال والأجمات، عندما ينزل المطر، يسيل الماء عبر سيقان الديس، ويبلل نقاطا كثيرة داخل الكوخ، تعلمت الأجسام من طول احتكاكها بالطبيعة القاسية كيف تحمي نفسها من رداءة الطقس وتقلباته المختلفة والمتواصلة »[2]. هكذا رسم لنا الكاتب هذه البنايات القروية، فهي لا تعدو أن تكون أكواخا مطلية جدرانها بالطين وروث البهائم، ولاشك أنّ القروي يدرك جيدا أن الطين يحفظ المنازل من برد الشتاء، كما يجلب لها بعض البرودة صيفا، والملاحظ أن سقوف المنازل عبارة عن أكوام من الحشائش تغدقها الطبيعة ومنها نبات الدّيس وما يضاف إليه من فضلات البهائم، فما على صاحب الدار إلّا أن يحسن الخلط، ويتفنّن في تسقيف بيته بكثير من المكابدة والمشقة والصبر وبكثير من الإتقان فالطبيعة لا ترحم، والشتاء في القرى يحسب له ألف حساب سواء للسكان أو سواء لدوابهم ومواشيهم، فهي رفيقة دربهم، ولن ينثني القروي أبدا عن خدمتها ولو على حسابه الخاص، فليس من السهولة أبدا أن

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 115.

(2) المصدر نفسه، ص ص 7-8.

يتواني في حمايتها، والرفق بها بل يلازمها في كل الأوقات، فهي دليله ورفيق دربه ومصدر رزقه.

وفي هذا السياق فإنّ الطابع العمراني في القرية يكتسي ميزة خاصة، سواء من حيث اختيار البقعة كقربها إلى الحقول أو قربها إلى الطريق، لكن ذلك ليس في المتناول دائما لأن القروي محكوم عليه أن يقيم في أرضه وملكه، وليس بالضرورة أن تكون أملاكه متقاربة بعضها البعض أو قريبة إلى الدروب، فما عساه يفعل! « تقع البيوت المتراكمة مسطحة في قمة رابية غير مرتفعة كثيرا بالنسبة لباقي التلال المجاورة وتحيط بها خميلة مكثفة من تين الصّبار الذي أطلق العنان لأزهاره الصفراء ... كانت البيوت مشيدة من التراب الأحمر وسقفها من الدّيس وقش القمح والشعير »[1].

إنّ القروي وبحكم قلة إمكاناته وندرة الوسائل، حريص على استغلال واستثمار إمكانات الطبيعة في قريته كما أشرنا سالفا، فكلّ شيء هنا يمكن أن يصلح كمواد أولية في البناء وصنع الأشياء، فالتكيف مع معطيات المكان يعدّ أمرا حتميا في منظور القرويين. ومن جهة أخرى يسهر سكان القرى على إصلاح وترميم بيوتهم بين الفينة والأخرى، وقد يكون ذلك لاستقبال مناسبة ما، غالبا ما تكون أعراسا. « في الصيف يقوم السكان عازمين على إصلاح ما تحطم في البيوت من حيطان وأسقفه يصلحون الديار، مستعدين للقيام بالأعراس والنوالات للبركة وإبعاد الشر والعيون الحاسدة »[2] فهم دوما يترقبون ويلاحظون بيوتهم، بل يفكرون أيضا في توسعتها موازة مع كثرة أبنائهم.

فالقروي كثير المتابعة لجزئيات حياته، فقلّما يغفل عن مراجعة أشيائه، وإن هو محصور في هذا المكان، إذ يتمتع ببعد النظر، ليتجاوز التفكير اللحظي الآني، إلى استشراف المستقبل فتجده يخطط ويحتاط ويتهيأ لكل طارئ، سيما في مناسبتين لايمكن التفريط فيهما البتّة وهما: العرس والجنازة، فتجده فيهما جادً، حريصا ماديا ومعنويا يعدّ لهما العدّة ويتابع التحضير والإعداد لهما بعزم كبير وعلى كل المستويات. هكذا

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 101.

(2) المصدر نفسه، ص 114.

يتحدى القرويون قساوة المكان، ولا يتوقفون عن السعي الدائم، فيقبلون على أعمالهم وأشغالهم برغبة وطموح كبيرين، بين حقولهم وأراضيهم ومراعيهم ومواشيهم والتي هي بمثابة العمود الفقري لهم، فبها وعليها يقضون حوائجهم، وبها أيضا يقهرون المكان وعلى وجه الخصوص الأحمرة، فهي دوما حاملة لمتاعهم، لا تراها إلّا وهي تتمايل بين الدروب الجبلية والممرات والأزقة تحت وطأة عصيّ أصحابها وضرباتهم المتكررة لها فلا يشفع فيها لا صعوبة المسالك ولا ثقل الحمولة على ظهورها، حتى أنها تترك في سيرها آثارا في الأوحال بأقدامها، والتي تتحول لاحقا إلى جحور وثقوب تمتلئ بالماء العكر، لتزيد الدروب محنة ومشقة وتزيد للقرية منظرا تعسا « كلما أسمع نهيق الحمار أتذكر الفقر والجهل والجبال الجرداء وأيام الحصاد تحت الشمس المضطرمة والعرق الذي يتصبّب على اللحم ونحن نحكه بأظافرنا »[1]. هذه بعض من الصور التي يتذكرها القرويون دوما، سيما الذين هاجروا وإذ بهم يعودون بين الفينة والأخرى، لكن رغم هذه الحياة الصعبة المتعبة فإن جمال القرية لا يدركه إلا هؤلاء الساكنون فلقد ألفوا هذه الهضبات والتلال وتنسموا من نسيمها العليل. « كلما صعدنا عبر الطريق الملتوي، ازددنا توغلا في الجغرافيا الجميلة، نشم رائحة الريف... يتناهى إلى سمعنا صياح الديكة وخوار البقر ونهيق الحمير ونباح الكلاب.. ونداء فلاح من مكان بعيد»[2]. إنّ هذه الحيوانات الأليفة، ظلت على الدوام تمنح للقرية بهاءها ورونقها وسرّها، ومن هذا المنطلق بقي القروي وفيّا لهذه الدّواب بما فيها الحمير كما سلف الذكر، لكونها الأكثر حضورا في حياة السكان في هذه الأماكن، فحتى أثناء التسوق يتحمل هذا الكائن أصناف المشقة ويكابد ويلات الدروب الهابطة حينا والصاعدة حينا آخر، في التواءاتها ومنعرجاتها وبين أحراشها وأشواكها، فلا تثنيه عن أداء مهامه ريح صرصرٌ أو برد قارس أو حرارة لا تطاق أو حتى سوء المعاملة التي عادة ما يتلقاها من صاحبه عن قصد ومن غير قصد، وهو ينخزه بعصاه، راجعا من السوق وقد أثقل ظهره بالمتاع والمؤونة، وربما امتطاه هو أيضا، فيجبره على السير وهو مطأطأ الرأس

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 117.

(2) جريدة الخبر، روبورتاج (نوارسوكو)، السنة 27، العدد 8361، الخميس 2016/12/15، الجزائر، ص ص 12-13.

مستسلما لقدره، يتسلق المرتفعات، فمن حين لآخر يصدر نهيقا يضفي على المكان الطابع الريفي والقروي ويذكر به الناس أنه مخلوق ضعيف. « كان هناك في إحدى المنعطفات رجل يركب حمارا بل حمارة تسرع بخطوات متتالية والغبار يتطاير من ورائها، يتعالى ثم يتلاشى في الفضاء.. يجلس الرجل فوق ظهر الحيوان على الجهة اليسرى وتتدلى رجلاه.. في يده قضيب يضرب به الحيوان ليزيد في السرعة »[1]. وكأن هذا الرجل تزداد سعادته حينما يسيء إلى هذا الرفيق! الذي طالما أحسن إليه مدفوعا بأنانيته وحماقته ولا يرأف عليه إلا نادرا، فلا يسعه إلّا الصبر على ذاك الأذى وإن بدا منه امتعاض أصدر صوتا كما أشرنا سالفا يوحي بالغبن والمشقة. « ثم راح ينهق بأعلى أنفاسه وهو ينط في حركات عشوائية تحركها غريزة ما »[2]، إن هذا الحيوان شأنه شأن سائر مخلوقات الله على هذه الأرض يحس ويشعر ويحب ويكره وينفعل.

وفي ثنايا الرواية يستوقفنا الأستاذ "محمد ساري" وبأسلوب ساخر وجاد عند مشهد الحمار وهو متعطش للقاء الأنثى من جنسه « صدق من قال لي ذات مرة بأن الحمير محظوظون في حياتهم رغم المشاق التي يتعرضون لها والنظرة الاحتقارية التي يحملها لهم كل الآخرين »[3]، والأكيد أنه حرمت عليه كثير من فرص المتعة شأنه في ذلك شأن معظم شبّان وشابات القرى، « حتى الحمير تشم رائحة الجنس.. وتتجاوب لغرائزها بعشوائية، هذه لا تتكلم ولا تفهم .. أمّا نحن ماذا نقول وماذا نفعل؟ الملاعين التفوا حول الحمارة وضاجعوها »[4]، ويتم ذلك في غفلة من الأهل والسكان وفي أمكنة منزوية في الوديان عموما. دون وازع ديني أو أخلاقي لبعض الشباب المنحرفين الذي لا يتوانون في اقتراف هذا السلوك البشع أمام مخلوقات عاجزة وضعيفة تجاه وحشية الأدميين الذين استسلموا للنزوات والأهواء وهم ضحية المكبوتات طبعا.

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص ص 117-118.

(2) المصدر نفسه، ص 117.

(3) محمد زتيلي، الأعمال الأدبية الشعرية والنثرية، ط1، دار المدار الثقافية، الجزائر، 2013، ص 387.

(4) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 118.

ومن هنا يكشف لنا الكاتب عن بعض السلوكات والتصرفات المستهجنة والمنحرفة لبعض الذين يتجرؤون على مثل هذه الأعمال المستقبحة، تجاه هذه المخلوقات التي خلقها الله للإنسان لتدفع عنه وزر وعبء المكان وتؤنسه في وحشته وحياته، سيما في هذه الأماكن الوعرة، لكن ربما كان للحرمان في هذا المكان دوره الأساس في هذا الانحراف الأخلاقي والتصرف الهجين، فالقرية في عيون الشباب تحتضن كمًّا من الممنوعات والمقموعات، ثمّ إنّ غرائزهم أقوى من هذه المحظورات في الوقت الذي ينظر إلى المرأة في القرية قبل الزواج بها قضية ممنوعة أو عزيزة المنال جنسيا فهي مخلوق يكابد المشاق ويخدم الأرض ويدوس على أنوثته يوميا، ممّا فتح المجال لهكذا تصرفات، شبانية على قلتها! والتي تحدث خفية وبكثير من التردد والخوف الذين سرعان ما يعقبهما الندم في كثير من المرّات، ورغم ذلك تجد بعضهم يبرر سلوكه هذا ببعد الأنثى عنهم إلى غاية الزواج، غير أنّ الشباب المغتربين فهم في منأى عن كل هذا، يجولون ويصولون في ديار الغربة بين كم هائل من الجنس الأنثوي وعبق المدن، وإن بقيت نساؤهم يترقبن رجوعهم بألم وأمل « خديجة المسكينة ... تعمل وتكدّ كالأخريات تماما وزوجها يتنزه في فرنسا كالرومي، لا يبالي بها ولا بغيرها.. يا عباد الله! لم يتذكرها منذ أربع سنوات ولا حتى برسالة أو كمية من المال! أربع سنوات وهي تعيش معنا وحيدة، تعيسة تعاسة الكلاب »[1]. هذه من أقسى الصور المؤلمة للواقع الذي تحياه المرأة القروية بعد الثورة، إذ تبقى حبيسة المكان سنين وأعوام تنتظر عودة زوجها المغترب، وهي تحت تصرف بقية أفراد الأسرة، همّها الوحيد إرضاء الجميع، ولو على حساب صحتها ومعنوياتها وحياتها وحتى على حساب أبنائها الذين يتحسّسون التهميش بين أفراد الأسرة في غياب آبائهم، فزوجة الابن المغترب في ثنايا الأسرة، تتحول إلى خادمة داخل البيت وخارجه ولا يحق لها الشكوى أو التألم أو الاحتجاج، وإلّا هدّدوها بإرجاعها إلى بيت أهلها من دون منازع وهذا أسوأ حل عندها وعند أهلها كذلك، ففي عرف القرية فإن المرأة المتزوجة لابد أن تصبر في بيت الزوجية مهما كانت ظروفها، « بكت خديجة طويلا كانت حاملا أنجبت ولدا ..

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 114.

يركض اليوم مثل الأرنب .. لم ترد العودة إلى أهلها ... بقيت تأكل من صحن العائلة وتأخذ قسط زوجها من القمح والشّعير واللّوز والعدس »[1]، فعليها أن تصبر وتتحدى وهذا كلّه مقابل البقاء إلى جانب أبنائها والحفاظ على بعض حقوقهم وتجنبا لعتاب أهلها من جانب آخر، فالتقاليد والأعراف السائدة في القرى والتي نشأ عليها الأهالي حتّمت على هذا المخلوق الضعيف الإصرار والثبات مهما تعقدت أمورها، فالبقاء في دار زوجها أحسن، وأنّ التفكير في مغادرته يعدّ فضيحة أو عارًا ثم أنها يعزّ عليها أن تفارق أبناءها الذين جاهدت في تربيتهم في غياب الزوج، فإذا بها تعتصم بهذا المكان وتتسلح بالصبر الجميل بجانب فلذات أكبادها الذين يتقاسمون معها معاناة المكان وتعنت الأعمام وبقية أفراد العائلة ككلّ، ولا يمكن لهؤلاء البوح أو النطق أو الإفصاح عن رغباتهم، ممّا يجعل الأمّ تبذل قصارى جهدها في الحصول على الرزق لها ولأبنائها وحتى لأفراد العائلة بأية وسيلة كانت. « تربي الدجاج وتجمع البيض، كم بعتُ لها من دزينة؟ وكم من ديك؟ بمالها اشتريت لها الزيت والسكر والقهوة والقماش لها ولابنها »[2]. فهكذا تجتهد المرأة في الحصول على الرزق أو بعض المال في انتظار رجوع الزوج المغترب، إن لم تلتهمه الغربة فيطول غيابه ومن ثمة تطول محنة الزوجة وأبنائها، لكن ما عساها تفعل، فعليها أن تُساير ظروفها في هذه الآونة، شأنها شأن السكان وسائر الأهالي، فهذه الأرض الطيبة تحتاج إلى رجال ونساء صبورين قادرين ثابتين، في تحدّ وإصرار على قهر ويلات المكان. « صعدت النساء على الدّرب، متمايلة تحت ثقل أواني المياه المبلّلة الواحدة وراء الأخرى يمشين في خطوات بطيئة، تجصصت الأرجل الحافية المبلّلة بالتراب الرمادي، سبقت الفتيات بالدلاء التي يتدفق منها الماء، وتبقى القطرات ماثلة على الدرب في خيط واضح ترفسه النساء بأرجلهن الحافية »[3]، فالمرأة هنا متسلحة دوما بإرادة قوية لتلبية طلبات الأهل والأبناء بهذه الصورة تواجه المرأة يومياتها في هذه الجبال والتضاريس القاسية.

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 116.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، ص 121.

إنّ المشقة علّمت الأهالي جميعهم الصبر والتحدي، وبذلك أدركوا أن المكان وإن تعنّت وقسا على أهله فهو دائما أعزّ ما يملكه الإنسان، والأرض بالخصوص هي القلب النابض وسرّ بقاء القرويين رجالا كانوا أم نساء في هذه التضاريس الموحشة فهي مصدر قوتهم ومرجعية انتمائهم ومصدر فخرهم، فبالأمس تصدوا للمستعمر، فكيف لهم اليوم أن يتخلوا أو يفرطوا ولو قيد أنملة في هذه الأرض التي تربوا في أحضانها وتنسموا هواءها، وكبروا في ثناياها.

هكذا تتوالى صور القرية في هذه الرواية لنجد في القسم الثاني منها «نغم الخبز» مقطع روائي يقرّب إلينا الأستاذ "محمد ساري" صورة حية أخرى لواقع القرية في هذه الجبال. « انبلج الفجر على هذه الجبال النائية واستيقظ سكانها على صيحات الديكة المتعاقبة من رابية إلى أخرى ومن كوخ إلى آخر، كانت العتمة تتلاشى بسرعة »[1]. فعادة ما يستيقظ السكان على صياحات الديكة التي تعمّ الأكواخ والأزقة والدروب والروابي، فمن ثمة يبدأ الأهالي حركتهم الدؤوبة، في مشهد لا يعرف التوقف أو التأجيل، أو التأخر، فالطبيعة قاسية والأمكنة أقسى، فلا مكان للعاجز أو المتردد أو المتهاون، ولا شك أيضا أن هذه الحياة القاسية تعلمهم على الدوام الصبر والثبات والتواصل معها طوعا أو إكراها، فليس لهم بديل عنها، ترافقهم تلك الإمكانات المتواضعة التي يملكونها إذ تتميّز حياة هؤلاء انطلاقا من هذه الرواية أيضا بالبساطة التي قد تصل إلى مستوى العدم أحيانا، ولكنهم رغم ذلك مقتنعون صابرون، يحمدون الله على أنّهم في رحاب قراهم، بين أهاليهم وفي أرضهم، التي قارعوا الاستعمار من أجلها. « عندما دخلت إلى داري وجدت زوجتي مستيقظة تنتظرني، والقهوة جاهزة فوق الموقد احتسيتها جرعة تلو الأخرى.. تلك القهوة الحالكة أشبه بحياتي الحقيرة في الفقر المدقع، عندما هممت بالخروج، نهضت وقدمتْ لي رغيفا من خبز الشعير والنعاس يأخذ بمعاقد جفنيه »[2]. هذا حال سكان القرية، كما نقله الأستاذ "محمد ساري" في روايته، وهو يكشف لنا عن حالة الفقر والخصاصة التي تعمّ هذه الأماكن، ولكن

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 101.

(2) المصدر نفسه، ص 26.

القروي يظل يخدم الأرض فمعظم الغلّات تنتزع من هنا، من هذه الأرض المعطاء والمستعصية في آن واحد، فحتى الدروب الموصلة إليها غير مؤهلة تماما، لكن القرويين طوعوها حسب حاجاتهم. « الطرق موحلة والأودية مملوءة بالمياه الكدرة لا يمكن عبورها وكم أكلت من رجال وأطفال »[1]. إن هذه الصور المؤلمة ظلت ترافق الشباب المغتربين وكلما تذكروها كبرت الرغبة في عدم الرجوع إليها، لكن الحنين إلى قراهم ظل يرافقهم، فيتذكرون كل بقعة في قراهم، بحلوها، بمرّها، فهي أرض أجدادهم وآبائهم بما في ذلك تلك الأودية التي تشكل خطرا كبيرا لسكان القرى في فصل الشتاء خصوصا، وهو يعبرون دروبا أو جسورا أقاموها بأنفسهم، لكنها هشّة لا تصمد أمام هيجان الأودية ممّا يعيق حياة القرويين. إنّ الدروب والممرات والأزقة مهمة جدًا في هذه الأماكن فهي المنافذ والمعابر إلى الحقول والمراعي وإلى مختلف مرافق القرية على ضآلتها. « أيّ طريق؟ آثار ودروب ضيقة صنعتها الماعز والحيوانات البرية التي تعيش بين الخميلة المحيطة بمنحدر الجبل تصل إلى القمة في الصيف فقط لأنها تغطى بالثلوج في الشتاء بعد عناء طويل وجاد من الالتواءات بين أشجار الصنوبر والأدغال الشائكة والصخور الضخمة، تلتف حول الجبل عدة مرات قبل الوصول إلى قمته »[2]. إنّ هذه الممرات والمعابر والمنافذ تكون وظيفية على العموم صيفا فقط رغم ما فيها من غبار يتطاير من أسفل أرجل الماشية وأرجل المارين، بينما تظل ساكتة صامتة ميتة في الشتاء، فيتوقف فيها المرور وتختفي آثارها، إذ تتحول إلى تراكمات ثلجية وانزلاقات للأتربة والأحجار والأوحال، وقد يستغرق ذلك الوضع شهورا. لكن الساكنة من الأهالي تعودوا على هذه المناظر، واستأنسوا هذه الأنواع من الدروب وعرفوا السهلة الإجتياز منها من الصعبة، وكثيرا ما رسموا دروبا أخرى بطرقهم الخاصة وبحكم تجاربهم الطويلة مع هذه التضاريس، رجالا كانوا أم نساء. « حفظت الوكيلة الدروب الملتوية مع مرور الزمن واستأنست بها، فرغم سنها المتقدم مازالت لها القوة التي توصلها إلى القمة بسهولة .. في جو من الحلم والرضى والجذلبين الحين

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 114.

(2) المصدر نفسه، ص 16.

والآخر تتمتم بدعوات تطلب المغفرة لها وللبشر أجمعين »[1]. إنّ راحة هؤلاء السكان هو أن يصلوا إلى مبتغاهم لقضاء حاجاتهم حتى من خلال هذه الممرات الضيقة، ولا يهمّ طولها أو عرضها أو لونها ما دامت تؤدي إلى الحقول وإلى مصادر المياه وإلى حيث تواجد الحطب وإلى المراعي، فحتى أنّ للحاجات البيولوجية الإنسانية دروبا خاصة يعرفها الرجال والنساء، دون حرج يُذكر، لكن في كنف الستر والاحتياط، فالكل يعرف المكان والزمان والدرب والظروف المحيطة لأداء حاجاته الطبيعية مكانه وزمانه والظروف المحيطة والكلّ يعرف أن هذه للرجال وتلك للنساء.. وغالبا ما تكون القريبة منها للنساء والبعيدة النائية للرجال.

ونظرا للأهمية القصوى للدرّوب في القرى، تجد السكان يتصادمون من حين لآخر فيما بينهم عليها وعلى أولوية المرور وأهلية امتلاك الممر، فقد تصل بهم تلك الصدامات إلى أروقة المحاكم، غير أن كبار «تجماعث» القرية، سرعان ما يتدخلون لفك تلك النزاعات الظرفية، إذ ليس من الفائدة والصالح العام أن تتشنج العلاقات بين الأهالي في هذه الجبال والمرتفعات والسفوح، أضف إلى ذلك فإن القرويين يشكلون في الأصل عائلة واحدة كبيرة، تشعبت فقط إلى أسر صغيرة تحكمها شبكة من العلاقات اللاّمتناهية، فمن غير الأخلاق والعرف أو من نظام القرية أن يتناحر الأفراد أو يتشاجروا وذلك حفاظا على اللحمة الاجتماعية وعلى النسيج الأسري، ثم إنّ ظروف الحياة القاسية جعلتهم أشد ارتباطا ببعضهم ببعض ولا يجدون جدوى من ذلك التنافر بينهم، وإن حدث فالأكيد أنه لا يمتد في الزمن، سرعان ما يخمد وتهدأ الأمور.

وفي مثل هكذا الظروف المعيشية القاهرة، تظل عيون كثير من الشباب تشرئب إلى ما وراء البحار، إنّه هاجس الهجرة إلى خارج الوطن، أو على الأقل تجدهم يفكرون في ارتياد المدن، فهي في نظرهم مجال خصب لفرص العمل وللدّراسة خاصة الجامعية، وهنالك تنفتح أذهان الشباب وتتوسع نظرتهم إلى آفاق المستقبل. « وكأن الجامعة والمدينة أصبحتا تشكل في نظر الواقع الشعبي وزمنيته بؤرة خطيرة، إذ من الجامعة تتخرج دفعات المثقفين ويعودون برفع أصوات التوجيه والهداية وسن

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 16.

القوانين»[1]. هذه قناعة هؤلاء إزاء هذه الأماكن، فالقرى لم تعد تقنعهم بل تذكرهم دومًا بصور التهميش والفقر والانعزال والانكماش على الذات واجترار الهموم لا غير، فعليه يبذل جل الشباب جهودهم ويسخرون إمكاناتهم المتواضعة للمغادرة مهما كلفهم الأمر. « دبّر الأمر في سر وخفاء خوفا من امتناع الأهل.. أنا ذاهب إلى فرنسا للبحث عن العمل.. نسمع دائما عن الشباب الكثيرين الذين هاجروا إلى فرنسا للعمل وأولاد هذه الجبال نصفهم هناك »[2]، بهذه الآمال يتمسك الشباب الطموح وبهذه المنى يبني هؤلاء واقعا ولو من الخيال إلى حين تجسيده، لقد اقتنعوا أنّ هذه القرى عاجزة أن توفر لهم أدنى الاحتياجات، والدليل على ذلك أنّ كثيرًا من الأسر تنتظر ما يرسله أبناؤها المغتربون من ديار الغربة من مال. « ذهب ناقما علينا لم يتذكرنا حتى برسالة واحدة لكنني متيقن بعودته يوما ما عندما يوفر المال الكافي للعيش الهاني »[3]. هكذا يأمل الآباء في أولادهم المهاجرين الذين لم يصمدوا أمام الحياة الاجتماعية التي لا تزال تغوص في الشقاء والحيف، فكان حلم هؤلاء الانعتاق من هذه القيود المكانية التي ما آن لها أن تتراجع فيكفي أن يخرج الواحد منهم أو اثنان من القرية، ليتبعه آخرون في سلسلة اغترابية لا تنقطع، فكلّ واحد يجلب شباب قريته إلى حيث يهاجر، تضامنا واستئناسا فيما بينهم، وكسرا للوحشة والاغتراب، وليتعاونوا على هموم الغربة ويتقاسمون الشوق والحنين نحو وطنهم الذي تبدو أوضاعه لم يتغير فيها شيء.

ويعود بنا الكاتب متأسفًا ليظهر حسرة السكان والأهالي على أوضاعهم الاجتماعية التي لا تزال على سائر عهدها ولم يطرأ عليها أي جديد. « طردنا فرنسا... فرحنا كثيرا.. نشدنا ترنيمات الحرية والاستقلال.. حالي لم يتغير، انتظرت حقي بصبر لكن شيئا لم يصل... عدت إلى هذه الجبال الغضارية أكِدُّ كالثور لا أستريح إلّا لأنام »[4]. هكذا يحيا القرويون حياتهم باستمرار فأصيبوا بخيبة أمل كبيرة

(1) بشير بويجرة محمد، بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري (1970-1980) المؤثرات العامة في بنيتي الزمن والنص، دار الغرب للنشر والتوزيع، ج1، الجزائر، 2002، ص 150.

(2) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 115.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، ص 108.

وهم الذين طالما حلموا بتغيير أوضاعهم بعد الاستقلال لكن شعورهم بالإحباط لا يزال يهتف ويرنّ في آذان هؤلاء، فمشوار المعاناة والقهر والحرمان لا يزال طويلا! فحتى الأطفال الذين وصلوا إلى سن الدراسة حرموا من نعمة العلم والمعرفة، في غياب هذه المرافق أو لقلتها أو لبعدها عن القرى والأرياف، حتى وإن شرعت الدولة في تشييدها عبر القرى، لكن وتيرة الإنجاز بطيئة والإمكانات قليلة جدا، علما أنّ المستعمر أحدث خرابا رهيبا في هذه القرى والمداشر، فآثاره لا تزال بادية للعيان، ولم يعد في يد الدولة القدرة الكافية لإصلاح وترميم ما هدمه المستعمر الغاشم، في ظرف قياسي، فكان لابد من الوقت والمال والإمكانات والوسائل، وما على القرويين إلا الصبر ثم الصبر وأفئدتهم تعتصر أسى وحسرة وهم يرون فلذات أكبادهم يسوقون قطعان الأغنام نحو المراعي، بينما يظل أندادهم في المدن، يلجون المدارس زرافات وجماعات. « وثب الطفل إلى الوراء بحركة متزنة وانطلق يهرول في المنحدر والغبار يتطاير من ورائه وهو يطلق صيحات ينهر بها الغنم التي تبعثرت بين أطراف السياج القصير وينهش من الزرع اليابس »[1]. هذا هو قدر الطفل القروي فاستحال إلى ضحية للمكان وضحية لوضع مزري مفروض عليه وعلى أهله، الذّين انحصر همهم في الحصول على الرزق لضمان أدنى المعيشة لأسرهم لتبقى الدراسة عندهم أمرا ثانويا، وعلى من استطاع إليها سبيلا، وإن كانوا يرون أن المدرسة في القرية ضرورية بالتأكيد، ريثما يؤخذ الأمر مأخذ الجد وأن يستقر المعلمون فيها، ولا يأتونها كما يحلو لهم كما يأتي الطبيب إلى القرية. « يا لها من قراءة يقرؤونها إذا ربح أحدهم وانتقل إلى المدينة فهو محظوظ .. لا يأتي المعلم إلاّ مرة في الأسبوع، إذا كان الجو صحوا يتلو عليهم كلمتين ويعود من حيث أتى آهٍ على شبان هذا اليوم »[2]، فكيف لهؤلاء أن يتعلموا وأي معارف يكتسبون في غياب حتى أبسط الإمكانات، ويضاف ذلك كله إلى الطبيعة الجغرافية القاسية التي كثيرا ما تحول وتحقيق المبتغى. هذا بعض من حال الدراسة في هذه القرى، فلا المعلم يستقر ولا الأولياء يحرصون على تعليم أبنائهم، ولا ظروف

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 103.

(2) المصدر نفسه، ص 104.

جغرافية المكان تسّهل أمر وصول هؤلاء المدرسين إلى هذه المرتفعات، فكأن الطفل هنا رهين المحبسين، حبس الفقر والعوز وحبس الجهل، والأمل يحدوه في ارتياد المدارس للانفتاح على حياة أخرى، لكن الواقع مرّ، فالمعلم الذي يعيّن للتدريس في هذه المرتفعات، غالبا ما يكون معذورا عن غياباته المتكررة، فالدروب صعبة موحشة والمواصلات قليلة إن لم تكن منعدمة إلى غير ذلك من الأعذار، ثم إن نفس المشهد يتكرر في الجانب الصحي إن لم نقل هو الأسوأ حالًا من الحياة المدرسية، فليس بوسع القروي إلّا الصبر والأناة، أو يتدبر حاله الصحي مستعينا بما تجود به الطبيعة والأرض من أعشاب وعقاقير تصلح لإسكات الأوجاع والتخفيف من بعض الأمراض والآلام والقروح، فالأطباء هاهنا أو حتى الممرضون نادرون في هذه الحقبة الزمنية التي يعيشها البلد، وعلى ندرتهم فهم في الغالب يتمركزون في المدن أو التجمعات السكنية ويدركون يقينا أن الوصول إلى القرى ضرب من الخيال، أو مغامرة يصعب الإقدام عليها فاستعصى عليهم الوصول إلى هذه المرتفعات. فعن هذا الجانب يقول الروائي الأستاذ "محمد ساري" في روايته «على جبال الظهرة» والتي نحن بصدد استقراء حال القرية فيها. « إنّه يأتي كل ثلاثاء إلى المدرسة ويذهب إليه الناس للتداوي» [1]. والمقصود هنا الطبيب، فهكذا شأن العلاج في المداشر والأرياف والجبال فالوضع لا يزال مؤلما حتى بعد خروج المستعمر الفرنسي، الذي ترك خرابا هائلا في البلد ممّا صعّب على الدولة في هذه الآونة البناء والإصلاح والتجهيز دفعة واحدة فالطبيب يزور القرية مرة واحدة في الأسبوع ويداوي الناس في مكان غير مؤهل أصلا كأن يتم ذلك في المرفق الذي يسمونه المدرسة التي تتحول عند مجيء الطبيب إلى عيادة مؤقتة، وحتما فإن الدراسة تتوقف في ذلك اليوم إن حضر المعلم، وفي أحسن الأحوال تتداخل الأمور الصحية مع الدراسة فتعم الفوضى فلا المرضى عولجوا ولا التلاميذ درسوا، فكلهم ذهاب وإياب دون بلوغ القصد ولا بأس إن إلتقى المعلم والطبيب ما دامت الغاية واحدة، وليت المرفق يسعهما الإثنين.

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 104.

هذه بعض من جوانب الحيف والمعاناة التي يعيشها القرويون يوميا، فهم على الدوام منشغلون بأعمالهم الشاقة فلا يفرطون أو يتهاونون فيها، ولو كان ذلك على حساب صحتهم وتمدرس أبنائهم « رجال الدشرة الذين انتهوا من العمل اليومي وجاءوا لاستراحة قد تطول، وقد تقصر تحت شجرة الخروب الكبيرة قرب البئر في سكينة واطمئنان منتظرين قدوم الليل للولوج إلى بيوتهم المظلمة لكي يسترقوا راحة النوم »[1] وما عدا هذه الأشغال من خدمة الأرض ورعي الماشية فكل الأمور الأخرى تبدو ثانوية في عيونهم ما دام الرزق اليومي موفورا. فبهذه النمطية يقضي القرويون نهاراتهم بين خدمة الأرض ورعي الماشية، ليبقى الليل عندهم متنفسا وراحة وسلوانا وعندئذ يستلقون ويرمون بأجسادهم على أفرشة مغبرة وقد أنهكهم التعب، يتصببون عرقا في ملابس مهترئة ملتصقة بأجسادهم لتبقى نظافة الجسد هنا، مؤجلة إلى إشعار آخر، أو ربما للمناسبات ومنها يوم التسوق. « يرتدي ملابس قديمة مرقعة، متربة للعمل اليومي والتنقل بين القطع الأرضية ... في يوم الجمعة يذهب إلى المدينة إلى السوق، إلى المسجد لصلاة الجمعة، لذلك يرتدي أجمل ما لديه، ملابس جديدة نسجها وفصلها لدى خياط يعرفه »[2]. إن يوم التسوق يبقى من الأيام المميزة في حياة القرويين، فكأن بهذا اليوم فرصة للخلود إلى الراحة والاستراحة من مشقة الأرض والحقول، ثم إنه فرصة لارتياد المسجد في المدينة لأداء صلاة الجماعة، وهذا لفئة منهم فقط، فيؤدونها رغم تواضع الثقافة الدينية عندهم، إذ قلّما يتقن أحدهم سورة الفاتحة، لكن الأعمال بالنيات. أمّا النّساء فيتخذن من هذا اليوم يوم لقاء وتزاور فيما بينهن، بينما ينكبُّ بعضهنّ على تنظيف البيوت وغسل الثياب من الوادي في جماعات، وربما أطلقن العنان لأنوثتهن في هذا اليوم، حين يسمحن لآمالهن ورغباتهن أن تتداعى بالحوار والمزاح والصياح والركض هنا وهناك في نشوة رائعة تزامنت وخروج الرجال إلى السوق، لكن مظاهر الفقر لا تزال دائما تلفّ المرأة في القرى فحتى في المناسبات، تظل تلك المظاهر بادية عليهن لأن المكان أصلا خشن والدروب وعرة فكل ما يلبسنه من ألبسة جديدة، يختفي

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 105.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

في هذه التضاريس القاسية غير أن جمالهن يبقى يتحدى المكان « ترتدي الفتيات فساتين طويلة تتجاوز الركبتين قديمة ومغبرة وأقدامهن عارية ليس فيها حذاء، تجرجر في التراب الذي يتطاير ويملأها غبارا حتى يصير لون اللحم لا يختلف عن لون التراب البني الشاحب الذي ابيض باختلاطه مع قش القمح والشعير وأوساخ الدجاج »[1] ولكنهن ألفن هذا الوضع وتعودن عليه وما تحرجن منه إلاّ نادرا أو في مناسبات، وما يخفف عنهن كون أغلبيتهن يتشابه وضعهن المادي.

هذه أيضا إحدى الصور المؤلمة التي قدمها الروائي عن الفتاة القروية، فهي بين الغبار والأتربة والأوحال بل هن جميعا حافيات، عاريات، فاقتناء الملابس لهن أمرٌ آخر، فلا يجوز لهن الاختيار أو الإلحاح على الطلب، فربُّ العائلة هو الذي يتكفل بشرائها من السوق، مرّة أو مرّتين في السّنة، فيقبلن هذا اللباس من دون تعليق، لباس لمّاع لأول وهلة لكن سرعان ما يذهب لمعانه وبريقه بين روث البهائم ورائحة الحطب وما شابه ذلك. « تخرج النساء لجلب الماء من البئر القريب أو لحفر التراب الأبيض لتلطيخ الحيطان التي تشققت تحت قوة المطر والجليد أيام الشتاء التي لا ترحم وخاصة في الشهور الأربعة بين ديسمبر ومارس »[2] فكيف لهذا اللباس أن يصمد في هذه البيئة الخشنة علما أنّ المرأة القروية تقوم أيضا بأداء مهام الرجل، كأن تحفر في الأرض وتستخرج نوعا من التراب لصباغة جدران البيوت لإخفاء تشققاتها وانكساراتها التي تحدثها عوامل الطبيعة، فكأنّ هذا الأمر لا يهمّ إلّا المرأة كونها تدرك نوع التراب الذي يليق، ثم تعرف أيضا كيفية خلطه وعجنه وكيفية وضعه وأين؟ فتتحول من جرّاء ذلك يداها الناعمتان نسبيا إلى أيد خشنة تمنح صورة شنيعة لأنوثتها المنكسرة أصلا ها هنا، لكنها لا تعير لذلك أهمية، مادامت تخدم أسرتها وأهلها وترضي ضميرها فتجدها تتباهى أمام النساء الأخريات بتعدد مهامها، هذا إضافة إلى نشاطها المعتاد كجلب الماء يوميا من العيون فلا تراها إلّا وجرار الماء مملوءة ومحمولة على ظهرها، وهي تتلوى بين المنعرجات الصاعدة حينا والهابطة حينا آخر. « تحمل كل امرأة قربة من

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 111.

(2) المصدر نفسه، ص 114.

جلد الماعز الأسود فوق ظهرها مشدودة بالحبل وفي إحدى الأيدي دلو من الحديد أو النيلون، كنّ جميعا يرتدين فوطة من القماش الرخيص المزركش وسراويل نسائية مدورة مترية »[1]. هذا مشهد الفتيات وهن عائدات من العيون مثنى وثلاث ورباع، هكذا تظل الفتيات القرويات متسلحات دوما بالقوة والصبر والتحدي، فعجيب أمرهن، إذ هنّ في إصرار دائم على مقاومة المكان بل وتطويعه وترويضه أيضا، بما يعود عليهن بالنفع والفائدة، وهذه الصورة القوية والحية للفتاة القروية انطبعت في نفوس كثير من الشباب وتحولت إلى مصدر إعجابهم بهن بل إلى مصدر إلهامهم، ممّا يحرك حتى مشاعر وأحاسيس الرعاة فتفيض قرائحهم فينطق الناي بأعذب الألحان أمام قطعان الغنم! فكم من فتاة تزوجت في القرية وهي على تلك الحال من البساطة والعوز وقلة الحاجة، لكن جمالها ألهم شباب القرية، كما ألهمهم لباسهن التقليدي وبعض الحلي التي تزيدهن بهاء، ولا حرج إن بدا بعضُ اللّباس متسخا، فالقرويون يعيشون تقريبا نفس الظروف ويعانون من محنة المكان، لكن أشياءهم طبيعية وحياتهم عادية، وهذا ما يقلل من الإحساس بالقساوة والمعاناة. وعن هؤلاء الشباب المفعمة قلوبهم بالحب العذري يقول الكاتب: « يتبعن الفتيات بشعرهن الأشعث المجعّد الذي لم يسرح هذا الصباح.. أو ربما لم يلمس المشط هذا الشعر الأسود الحالك المعشعش بالقمل الذي وجد فيه كل أنواع التغذية للنمو والزواج والتكاثر منذ أيام، ترتدي الفتيات فساتين طويلة تتجاوز الركبتين.. انحدر الركب النسائي، وانعطف عبر درب ثانوي بين سيقان الشعير الذي لم يحصد بعد »[2]، وأمام هذا الركب النسائي تظل نظرات الشباب ترافق ذلك السرب في إعجاب وحب وتحفظ وخجل وهنّ يتمايلن فرحا وإعجابا أمام أبناء قريتهم في إعجاب ونشوة وإغراء.

ففي هكذا مشهد تتلوى أنوثة الفتاة هاهنا في القرية، ورغم تواضع حالها فهي تتزوج في الغالب هنا وتنجب أولادا وتقاوم وتفلح الأرض مقتنعة بقدرها في هذه الروابي والهضبات والجبال والوديان، فكم من مآسي عرفتها المرأة في القرى والأرياف

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 111.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

فالقرويون لن ينسوا تلك الذكريات المؤلمة في مسار حياتهم، فعن بعضها يقول الكاتب في مأساة امرأة قروية « انزلقت وغرقت في البئر.. كانت في موكب الزفاف فوق حصان أصيل، توقفوا لشرب الماء .. اقتربت من البئر وسقطت داخله وماتت غرقا يالها من حكاية غريبة ظريفة ومؤلمة. منذ ذلك الحادث.. اشتهر البئر بعين العروسة»[1]. فحتى في أجمل لحظات عمر المرأة، نجدها تتعرض إلى المخاطر والهلاك، فينقضي الحدث ويستحيل إلى ذكرى وقصة تتداولها الألسنة، فكلما يمرّ أحدهم من هذه البئر ينتابه الشعور بالخوف والتوجس، فإذا بمثل هذه الأماكن تغدو فضاءات موحشة تقلق سكان القرى وإن ألفوها، تمتزج فيها لحظات الخيال والخرافة وكثرة القيل والقال وتغدو في سجل الأساطير، ينقلها جيل عن جيل والكل يعلق ويزيد ويضخم الحدث. هذا جانب من حال المرأة في القرية حسب ما ورد في رواية «على جبال الظهرة» لمؤلفها الأستاذ الروائي "محمد ساري"، واقع ارتبط بالأرض، كما ارتبطت الأرض بالمرأة هنا فكلاهما بمثابة ملح الطعام للآخر، وكلاهما أيضا يحملان دلالة الشرف والكرامة الإنسانية، وتؤشران على تعلق الإنسان بقريته، بمكانه، رغم ما فيه من قهر وحيف ومشقة في الحصول على الزق في تضاريس وعرة بين المنحدرات والمرتفعات والوديان وانكسارات جغرافية تجمع بين المتعة والخوف.

أمّا عن واقع الطفل في هذه القرى فهو ليس أحسن حظًا من أمه أو أخته أو قريبة له فالمعاناة نفسها في هذه الأماكن، فالقرية أبت إلّا أن تقسو عليه أيضا، فكان على هذا المخلوق الصغير أن يتكيّف في مثل هكذا واقع، إذ غالبا ما يقوم الأطفال هنا بمهمة الرعي دون تردد أو رفض، فتراهم بمعية مواشيهم يجوبون الوديان والهضبات والأحراش بأجسام شبه عارية، وفي ملابس رثّة، لكن بعيون يقظة وهمّة عالية وبكثير من المسؤولية أيضا. «نعم يا عمي أحمد الشمس محرقة في النهار، لذلك يستحسن لي أن أرعى الغنم باكرا وأدخلها عندما تضطرم الحرارة في نهاية الصباح.. تكلم الطفل بسرعة وهو يحرك القضيب بين أصابعه... كان يلبس قميصا أحمر متسخا

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 25.

بالغبار وشعره أشعث ومجعّد.. كان الطفل مغبرا من رأسه إلى أخمص قدميه »[1]. هذه يوميات جلّ الأطفال في القرية سيّما بعد إحالتهم على العطلة الصيفية لمن كان يتمدرس خلال السنة، إذ تنتظرهم مهمة الرعي ومهام أخرى، وهم تحت تصرف آبائهم وأمهاتهم، وربما لغيرهم أيضا فلا يحق لهم الرفض وهذا من قواعد وأخلاق القرية « نعم يا عمي أحمد... قال لنا المعلم: لا تعودوا قبل نهاية الصيف إنها العطلة الكبيرة »[2]. إنّ الطفل الراعي متعوّد على اصطحاب الغنم، بل كلّهم مجبرون على ذلك يصارعون الدروب الوعرة، يسوقون أغنامهم والتي تصدر منها الرائحة الكريهة، فتزيد الأطفال صورة قاتمة. « يتعالى ثغاء الغنم وطنين القراد المنكمشة في الصوف النتن الملوث بالغبار والروث وبقع من الوحل الذي لا زال لم يجف بعد »[3]. هذا مشهد الغنم الذي يتكرر كل يوم، يرافق يوميات الأطفال الرعاة، بل يلامس أجسادهم شبه العارية، فكأن بالقرية انتزعت من هؤلاء براءتهم وطفولتهم، وما يجب أن تتميز به من لحظات للّعب والمرح والمزاح، فقفزت بهم الأيام إلى رجولة قيصرية، ورغم ذلك تشاهد بعضهم وهو في المراعي يتمرغ في التراب مع أترابه، وربما يبني أيضا بيوتا من الطين ويقوم باللعب في حين انكبت أغنامه على التهام الحشيش. «بحث الطفل وسط التراب، جمع عدة أحجار ووضعها أمامه سطّح مساحة مربعة من الأرض وراح يلعب بالأحجار يرتبها مثنى وثلاثى ورباعى، يرميها إلى أعلى مستوى عينيه ويتلقاها قبل أن تصل إلى الأرض»[4]. هذه صورة الطفل القروي وهو يلعب مع أقرانه أو بمفرده حين تعوزه الحاجة، ولا بأس إن خرج إلى الحقول راعيا، فرغم هذا التكليف الشاق فهو يبدو سعيدا بهذه اللحظات، ولا تهمّه هيأته أو لباسه أو حتى جسده، ما دام أنه يلعب مع سائر أقرانه، وإن استراح من الرعي، ستراه يركض في الأزقة والحارات، لاعبا حينا وملبيا نداء الأسرة حينا آخر، كأن يرسلونه إلى الحانوت أو حراسة أخيه أو أخته في المهد أو قضاء حاجة ما. « انطلق الطفل مسرعا ينطّ فوق الأحجار والأدغال القصيرة حتى

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 103.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، ص 113.

دخل من الباب الخارجي إلى الساحة التي تتوسط أربعة بيوت متقابلة، مكث قليلا ثم خرج وفي يده قطعة قماش يمسح بها أنفه وعينيه »[1]. فنلاحظ أن مساحات اللعب قليلة أو منعدمة في هذه القرى، ما عدا تلك الأزقة التي تتوسّط أو تجاور البيوت، ورغم هذه المحنة الطفولية تجد الرجال وحتى النساء ينهرون هؤلاء باستمرار مع الصراخ في وجوههم ويمنعونهم من اللّعب بين البيوت بحثا عن راحتهم خاصة وقت القيلولة، وقد أرهقهم العمل اليومي، فلم يعودوا يطيقون صيحات الأطفال المزعجة وركضهم المتواصل بين الأزقة والحارات. وفي ثنايا الرواية يطلعنا الكاتب تكملة لما سبق، على وجه آخر للطفل هاهنا، فهو وإن لم يقم بالرعي فتجده أيضا يمدّ يد العون لأبيه في خدمة الأرض، فلا مجال للراحة أو الاسترخاء. « لا يتجاوز اثنتي عشرة سنة ويعمل كالكبير في المزارع خاصة، نسمع دائما في الإذاعة من يقولون بأن الأطفال مكانهم في المدرسة أو في مراكز التكوين... لكن أين هي المدارس.. معظم الآباء أخرجوا أبناءهم من مدرسة سي بلقاسم، لم أربح شيئا نفس القربي ونفس الملابس المرقعة »[2]. هذه صيحة أحد القرويين، تنهد بها من الأعماق وهو يفند ما يسمع في وسائل الإعلام بينما الواقع لا يزال على حاله والأطفال هنا رهائن لهذه الأمكنة المحدودة والمغلقة الآفاق.

وحين يشب هذا الولد التي ضاعت أحلامه في هذه المرتفعات ويستشعر في نفسه القوة والنماء، تتبادر إلى ذهنه فكرة الهجرة كما ذكرنا سالفا، شأنه شأن شبان القرية، فتظل عيونهم تقفز إلى المدن بحثا عن وظيفة حتى وإن كان الأجر زهيدا. « آهٍ على شبان هذا اليوم.. كلهم يريدون العمل في المدينة... الفتيات الحسناوات يمشين عاريات في الشوارع! أنا أسكن بعيدا من هنا »[3]. هذه قناعات جديدة أخذت تدب في نُفوس وأذهان الشباب بعد الاستقلال، بعدما تيقنوا أن البقاء في القرية هدر للوقت، هدر للعمر. إنّ هذا التفكير أخذ يتداوله حتى بعض الكبار الذين يفكرون بدورهم في

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 113.

(2) المصدر نفسه، ص ص 131-132.

(3) المصدر نفسه، ص 104.

الرحيل إلى المدن، أو حتى خارج الوطن، وعلّتُهم في ذلك متابعة وضمان تمدرس أبنائهم أولا وتحسين ظروف عيشهم ثانيا. « لكن يا سي محمد الوقت تغير وأخذنا الاستقلال، لا لنعود إلى الجبال نعيش كالوحوش، بل يجب أن نرحل إلى المدينة ليذهب أولادنا إلى المدرسة... يتعلمون ليصبحوا معلمين ومهندسين وأطباء، أنا عشت عيشة الوحشة والذل والاستغلال لا عليَّ كبرت الآن وتعلمت الحفر كالحيوان »[1]. هذه بعض من إرهاصات الوعي أخذت تغزو عقول القرويين. فقد ملّوا من الظروف المعيشية القاسية في هذه القرى. ثم أليس من حق هؤلاء أن يتذوقوا ثمار الحرية والإستقلال؟ بعد نضال مرير واضطهاد وسنوات الجمر. فمن حق ابنائهم أن يرتادوا المدارس ومن طموحهم أيضا أن يصبحوا إطارات وموظفين مستقبلا، ينفعون وطنهم ومجتمعهم وينقذون قراهم من مخالب الفقر والخصاصة، وقد يغيرون من حال أهاليهم في هذه الأرياف والمداشر الموحشة، سيما وأنّ بعض الأهالي في هذه القرى اقتنع أن خدمة الأرض ليست بالأمر الهين، فهي الشقاء الأبدي. « كلهم يهربون من عمل الأرض ويذهبون إلى الدّيانسي (وهي شركة وطنية للبناء) يعمل «مانوفر» (أي عامل بسيط) وبعد سنوات قليلة يصبح بحرفة يضرب المال برجله »[2]. ومن هذا القناعة بقي العيش في جنبات القرية محصورا لدى كبار السن من الرجال الشيوخ وللأطفال والنساء ولا حيلة لهم غير ذلك. أما الشباب، فلقد رحلت أفئدتهم إلى غير هذه الأرياف والقرى وقد ملوا من كآبة المكان ومن أجواء القرى الخشنة فهي دوما تذكرهم بكل أوجه المعاناة. « يقطر العرق على كل الأجسام ويطلق رائحة مقرفة، ترابية مختلطة مع بعض الحشرات التي التصقت باللحم والملابس، معظم الرجال من الشيوخ أو من الصغار جدا. أما الباقون فكلهم هاجروا هذه الجبال الغضارية »[3]. ميممين أوجههم شطر المدن وما تحمله من نسمات التحضر والانعتاق والتحرر من قيود الماضي أو الحاضر التعس. لقد ذكرنا سابقا «الدّيانسي» وهي شركة نشأت حديثا وفتحت أبوابها لتشغيل مئات العمال بعد الإستقلال وظلت مطمح كثير من القرويين، وانطبع لدى

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 128.

(2) المصدر نفسه، ص 132.

(3) المصدر نفسه، ص 133.

السكان والأهالي أن الظفر بمنصب في هذه الشركة أو غيرها يجلب مالا وسعادة وأريحية نفسية بل حتى مكانة اجتماعية مميزة، فأصبحت هذه الشركة على لسان الشباب الكلّ يريد الظفر بمنصب فيها سيما وأنّ شروط الالتحاق بها ليست عسيرة، ثم أنها تتموقع في الجزائر العاصمة، المدينة التي رحلت إليها قلوب هؤلاء.

وفي هذه الأثناء أيضا يستدعى كثير من الشباب البالغين السن القانوني سواء في القرى أو في المدن لأداء واجب الخدمة الوطنية، فإذ بالقرية تخلو من شبابها شيئا فشيئا. « ذهب ابنه إلى الخدمة الوطنية وبقي وحيدا، قال لي في الأسبوع الماضي بأنه تلقى رسالة من عنده، من نقاوس في ضواحي باتنة... لكنه سيتعلم أشياء كثيرة ولا أظنه يعود ثانية إلى هذه الجبال الغضارية»[1]. لقد اقتنع الأهالي بضرورة التحاق أبنائهم لأداء هذا الواجب، إنه فرصة ثمينة يتعلمون خلاله كثيرا من الأشياء بما فيها الحرف اليدوية، وربما ستكون لهم فرصة أيضا للولوج إلى المدن بعد التمرس والتجربة وتبادل الرؤى والأفكار مع كل الشباب من ربوع الوطن، لقد كانت الخدمة الوطنية لكثير من الشباب فرصة للإفلات من قيود القرية وعاداتها وتقاليدها البالية في نظر هؤلاء، والتي تذكرهم دائما بالمآسي. « لو تنطق هذه الجبال لقالت ما نسيت منه الكثير، القصف، الكمين، الجوع، العرى، الثلج... طردنا فرنسا... فرحنا كثيرا... حالي لم يتغير انتظرت حقي بصبر لكن شيئا لم يصل »[2]، فرغم التوجس من هذا الواجب الوطني، فإن الشباب لم يقصروا عن أدائه، والسلطة تلهث أيضا في هذا الظرف التاريخي لتكوين جيش قوي يرفع هامة الوطن عاليا، وفعلا لقد شارك هؤلاء في مشاريع البناء والتشييد كالسّد الأخضر وطريق الوحدة الإفريقية وبناء القرى الزراعية، وهي المشاريع التي تألقت بها الجزائر في سماء المغرب العربي بل حتى في الوطن العربي.

ورغم هذا كله استمرت آهات وتأوهات وصرخات سكان القرى بعد الاستقلال. فكم كان حلمهم في أن تتغير أحوالهم وأحوال قراهم، لكنهم أصيبوا بنوع من الإحباط على الأقل في هذه المرحلة الأولى من الاستقلال. إذ أن هذه الأمكنة بقيت على فقرها

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 102.

(2) المصدر نفسه، ص 108.

فاصطدم هذا الواقع المؤلم مع لهفة السكان في تنوير حياتهم ولو نسبيا. « هذه الأرض تحتاج إلى الماء... إلى كثرة الآبار... ترابها مختلط بالأحجار الصغيرة لا تنتج كثيرا... عجيب! هذه الجبال وسكانها... بعد سنوات لا نجد رجلا واحدا هنا كلهم رحلوا وخاصة الشباب »[1]. والأكيد أنّ معظمهم اقتنع أن الأرض في هذه الجبال لم تعد قادرة على تلبية طلباتهم من حيث مردودها الفلاحي القليل باستثناء الزيتون. فالقروي أدرك أنه يشقى ويشقى دون الحصول على الغلات المأمولة « هذه الأراضي تفتقر إلى الماء، لا نغرس إلا البصل الذي يشرب من ماء المطر في البداية... أما الخضر الأخرى ... ماء البئر لا يكفي حتى للشرب والاغتسال »[2]. إنّ موارد القرية الضئيلة وخاصة الماء صيفا لم يعد يكفي السكان سواء للشرب أو لسقي ما يزرعون أو لمواشيهم. فأينما أدرت وجهك تقابلك صور المعاناة والمأساة والخراب الذي خلفه المستعمر، خاصة على مستوى العمران والبناءات. غير أن بعض المحظوظين من الأهالي وعلى قلتهم احتالوا واستولوا على المساكن التي خرج منها المعمرون فاستقروا في المدن الكبرى مثل العاصمة وأخذوا ينصحون غيرهم من التعساء بالبقاء في الأرياف والقرى، وهذا الأمر استحال إلى سخرية بين السكان القرويين. « استولى على فيلا قَد الدنيا في المدينة ويريد له أن يذهب إلى كوخ في قرن الدنيا. لا ماء ولا طريق ولا حنين ولا رحيم...لا نسمع إلا نعيق الغربان تلف في الفضاء أيام الخريف.. والثيران تحرث في الأرض الحجرية بصعوبة »[3]. إن الهوة عميقة بين أولئك وهؤلاء، لكن لكل قدره وحظه ونصيبه ثم إنّ أرض الله لا بدّ لها أن تعمّر ولو بنسب متفاوتة.

لكن القرية في عيون أبنائها فهي وإن كانت مصدر فخر لهم وعزة وهوية وانتماء إلا أنها بقيت رمزا للمعاناة مما جعل الدولة في هذه الحقبة بعد الاستقلال تطلق مشروع الثورة الزراعية، فعليه يتقرر بناء القرى النموذجية هنا وهناك عبر التراب الوطني. لتظهر قرى جديدة غير تلك التي ألفها السكان والأهالي إنها قرى بمفهوم التمدن (القرية

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 125.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، ص 129.

المدينة) غير أن تسميتها لا تزال «القرية» فهي تحتوي على قدر معين من الإمكانات ولعل أهمها تلك المرافق العمومية التي ظلت هاجس القرويين في قراهم التقليدية كالمدرسة والمركز الصحي والفرع البلدي وبيت الشباب وكذا مسجد تعلو قبته سماء المكان، وهذا ما يفتقد إليه السكان في قراهم، إنه عمران جديد لم يألفه السكان في القرى والمداشير والأرياف. وفي هذه الآونة من تاريخ الجزائر يشير المؤلف إلى جهود الطلبة الجامعيين الذين كلفتهم الدولة بشرح حقيقة مشروع الثورة الزراعية وذلك عبر حملات تطوعية سيما أثناء عطلهم المدرسية، علما أن بناء هذه القرى أسند إلى شباب الخدمة الوطنية عبر ربوع الوطن، فاقترب الطلبة إلى الفلاحين والقرويين لشرح أهداف هذا المشروع وتقريب مصطلح القرية النموذجية. فرحّب القرويون بذلك، واقتنعوا أنهم سيبقون في خدمة الأرض لكن في إطار جماعي، منظم ومسؤول، مقارنة بحياتهم في القرى الجبلية « الثورة الزراعية مليحة يا المولود، يتكلمون عنها دائما في الإذاعة. الهواري يدشن القرى الاشتراكية كل شهر ويوزع المفاتيح والأرباح... وصل الطلبة عندنا إلى الدار يشرحون أهميتها وأهدافها... لو إني أقدر على العمل لسجلت نفسي للاستفادة... آه... »[1]. إنها ثقافة جديدة بدأت تدب في عقول الأهالي، وقناعة فرضت نفسها على أنقاض قناعات قديمة لم يعد لها مكان فاستأنس الفلاحون بالأرض الخصبة ولامسوا مرافق جديدة لم يعهدوها من قبل. فبدت لهم القرية في ثوب جديد لم يألفوه من ذي قبل، ومهما سجل عن هذه القرية المدينة من مآخذ ونقائص وانتقادات إلا أنها لطفت كثيرا من حياة القرويين، وفتحت عيونهم على حياة جديدة، فيها الاستقرار والاستفادة من الشبكة الخدماتية التي عزّ وجودها في قمم الجبال وسفوحها. لكن رغم هذه النقلة الحضارية في حياة الأهالي، فإن قلوبهم ظلت مشدودة إلى قراهم الأصلية، فهي في قرارة أنفسهم عزّهم ومفخرتهم ومهد طفولتهم وشبابهم، ومصدر هيبتهم وحصنهم المنيع أيام الثورة التحريرية، فبقي السؤال الذي يحيرهم كيف يجرؤون اليوم على مغادرتها وبالأمس القريب كانت ملاذهم... لكن ما عساهم يفعلون، فوتيرة الحياة لا تبقى ثابتة راكدة، والتحول سنة الله في خلقه. وكان لابد من التكيف مع

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 134.

المعطيات الجديدة، ومن جانب آخر ينتقل بنا الروائي "محمد ساري" ليطلعنا على بعض الجوانب الروحية والدينية عند القرويين في قراهم ومداشرهم، فرغم محاولة تمسكهم بالعقيدة الإسلامية السمحاء فكرا وعملا فإنّ بعضهم لم ينج من بعض التفكير الخرافي والأسطوري، وكذا المعتقدات والطقوس الخاطئة، في هذه الأماكن المعزولة. «اتجه الجميع إلى المرابط لزيارة الضريح، غرفة كبيرة، واسعة مبنية بالأحجار وسقف من القرميد الأحمر المستطيل. ذلك هو البيت الذي يحتوي ضريح سيدي (أمحمد وعلي)... تقدم الجد وقبّل الضريح بشفتيه... متمتما بكلمات وعبارات الرحمة وطالبا المغفرة والنجاة لابنه؟ يا سيدي (أمْحمد وعلي) تقبلْ زيارتنا ودعوتنا واستجب لنا...»[1]. فالملاحظ أن هؤلاء القرويين وعلى سذاجتهم وبساطتهم وجهلهم يعتقدون أن مثل هذه الأضرحة يمكن التبرك بها، كما أنها تستجيب لدعواتهم بحثا عن الاطمئنان النفسي المفقود سيما عند النساء، فهن حريصات على هذه الزيارات لأغراض ومآرب كثيرة بدءا من الرغبة في الإنجاب إلى تقوية علاقتهن مع أزواجهن وإلى ترصد فرص وحظوظ للتألق في قلوب أفراد العائلة سيما الأزواج، والرغبة الملحة في الحضور الدائم في بيت الزوجية، لإسكات صوت العجائز المستبدات دائما، فعلى المرأة أن تبذل قصارى جهدها لفرض وجودها بين خضم هؤلاء جميعا، فلهذا فهنّ أكثر ترددًا على هذه الأماكن.

«... وتبعته النساء الثلاث تقبّلن الضريح مدمدمات بدعوات طويلة متيقنات بأن الولي سيستجيب لهنّ وأنه في الإستماع »[2]. وما يثير الانتباه أن الرجال أيضا يرتادون هذه الأماكن ويطمئنون إلى هذه الأضرحة، في توسلاتهم وتضرعاتهم وتبركاتهم بها. ففي هذه القرى والمداشر تكثر هذه المواقع الروحية، وكثيرا ما يزدحم عليها الأهالي أثناء زيارتها. والكل يتمتم بكلام غير مفهوم، « يتأملون الضريح وعيونهم تلمع بالرحمة والشفقة والأمل... تغمرهم نشوة روحية كأنهم تخلّصوا من ثقل

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص ص 14-15.

(2) المصدر نفسه، ص 15.

كان على ظهورهم »[1]. فبهذه القناعة، يهرع القرويون إلى هذه الأمكنة خاصة في أوقات الشدائد، وحين تضيق بهم الدنيا، ويعلمون يقينا أن هذه الأضرحة وهؤلاء الأولياء الصالحين ما هم إلّا همزة وصل بينهم وبين ربّ العالمين، لكن الخصاصة والعوز وقلة اليد وانعدام الإمكانات وكذلك المستوى الثقافي المتدني، جعلهم يستعينون بهذه الطقوس، إضافة إلى الجهل الذي عشّش في هذه الأماكن. وفي هذه الفترة من تاريخ البلد، وفي سياق آخر يلفت الروائي "محمد ساري" انتباه القارئ إلى مكانة القبور في القرى فأظهر لنا أنها أماكن محترمة، مبجلة تستحق التقدير فهي المثوى الأخير للأموات والأحياء. فكل واحد يلقى مصيره هاهنا عاجلا أم آجلا، فحقيقة هذه الديار قناعة راسخة لم تبرح أذهان الأهالي أبدا. « مشينا وراءها إلى مقبرة سيدي أمعمر والجلالة تخترق صمت الهجير الثقيل، ما لي وما لهذه الذكريات الكئيبة كأن الدنيا كلها ظلام »[2]. هكذا يأخذ القرويون أمر الجنازة بجدّ لكن هذا لا يمنع أن تصادفك بعض القبور القديمة وقد أكل الحشيش والنبات حواشيها وجنباتها بل وطمس شهودها، فتنتابك الحسرة والأسى على ما آلت إليه هذه الأضرحة ورغم ذلك فإن المشي في الجنائز لدى سكان القرى سلوك مترسخ عندهم منذ القدم. بل أكثر من ذلك فهو واجب لا مفر منه، والسهرات الجنائزية أمر ثابت، دأبوا عليه دون تردد. هكذا هو شأن القرية في أفراحها وفي أقراحها. « دفنّا المرحومة في مثل هذا اليوم منذ عامين... الحرارة مرتفعة أذهلت الرجال الذين جاؤوا لدفنها بتنا معها سبع ليال وهي تحتضر ونحن ننتظر سقوط الورقة الأخيرة كأنها اقترفت ذنوبا كثيرة »[3]. إن هذه المشاركات الوجدانية بين الأهالي لهو تعبير صادق عن أصالة القرويين وصورة من صور التآزر والتضامن فيما بينهم وخاصة في مثل هكذا مناسبات حساسة ومؤلمة، ثم إن العلاقات بين السكان وإن شابتها بعض الخصومات، فهي متأصلة ومتجذرة فيما بينهم وإن تعكرت فهي سرعان ما تعود إلى مجراها الطبيعي، فالقروي سريع الغضب لكنه سريع التنازل عنه وله القابلية لقبول الآخر والتآزر معه في السّراء والضّراء.

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 15.

(2) المصدر نفسه، ص 122.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وفي أعماق هذه المناطق من القرى والمداشر، يستوقفك عديد من التقاليد والأعراف، ظل القرويون متشبثين بها سواء الدينية الروحية كإحياء المولد النبوي الشريف أو عاشوراء أو ذبح العقيقة أو إقامة (تمشرط) أي الوزيعة أو التطوع لبناء دار لأحد المعوزين، فلا صعوبة التضاريس أو قساوة العيش أو حتى تلك الدروب الضيقة استطاعت أن تؤثر على هؤلاء، فسكان هاته الجبال لازالوا متمسكين بكثير من القواعد والأعراف رغم تلك الطبيعة التي أبت إلّا أن تمارس سلطتها على الناس جميعا، سيما في فصل الشتاء حيث يزداد تعنتها في محاصرة البيوت بالثلوج لأزيد من شهر، علما أن معظم القرى يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر ما يربو عن 900 متر. ومن جهة أخرى يحدث في هذه القرى بعض التجاوزات والخصومات خاصة مع الذين يتجرؤون على التمرد على أعراف القرية، فيخلون بنظامها أو يبدون عدم الانضباط للسلوك العام الذي أقرّه كبار القرى في ثجماعث، فالسكان حريصون على أمن القرية.

ولابد أن نشير كذلك إلى أن ذاك الانضباط الذي يميز القرويين سيما تجاه عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم، رسخته فكرة «ثاجماعت» هذا الهيكل التنظيمي الذي يحرص على بسط احترام القانون العرفي في القرى.« ثاجماعت التي تطبق قانونا عرفيا يُعدُّ بمنزلة دستور القرية، ينظم شؤونها بالحرص على تفعيل مختلف أشكال التضامن بل إلى فكر تنويري هو غاية التنظيم »[1]. فبفضل هذا التنظيم الاجتماعي تمكن السكان القرويون من فرض النظام العام الذي استوجب على الجميع احترامه كبيرا كان أم صغيرا، رجلا كان أم امرأة، سواء في الأفراح أو في الأقراح، فلا إفراط ولا تفريط في المبادرات والتصرفات والسلوكات التي يسنّها هذا الهيكل، علما أن تركيبة «ثاجمعت» خضعت إلى مشاورات وحوارات وفرز للممثلين فيها من ذوي الرأي السديد والحكمة الرشيدة وكثير من الخبرة والتجربة، تلك هي بعض المقاييس التي يجب توفرها في من يمثل هذا النظام السلطوي وغالبا ما يكون من كبار القرية، وقد يضم أيضا بعض الشباب مع مرور الوقت، وبذلك يلتقي الجيل القديم مع الجيل الجديد، فنجد هذا يدعو إلى المحافظة على القديم وذاك يدعو إلى ركوب قطار التجديد، فتحدث الوسطية

(1) جريدة الخبر، روبورتاج (نوارسوكو)، مرجع سابق، ص ص 12-13.

عموما. ثم إن هؤلاء جميعا يسعون إلى هدف واحد وهو خدمة مشاريع القرية، وفك النزاعات التي تعصف بالأهالي فيما بينهم لسبب أو لآخر، وكذلك فرض النظام العام على المكان وتأطير كثير من المناسبات الدينية والوطنية إلى مبادرات التضامن وغير ذلك، ليبقى السكان وإن اختلفت آراؤهم وتباينت مواقفهم جميعهم في خدمة مصالح قريتهم والتباهي بمشاريعهم التي ينجزونها بين الفينة والأخرى، ويكون ذلك محلّ اعتزاز وفخر أمام سكان القرى المجاورة أو تجاه أبناء القرية المتواجدين في المدن والمهجر، فهكذا وإن تشعبت الآراء واحتدمت النقاشات فإن السكان القرويين يجنحون إلى السلم فيما بينهم على أمل أن يحولوا قراهم إلى أمكنة للدفء والسلم والسلام.

الأنموذج الثالث: القرية في رواية «أتصمت العصافير» لـ "محفوظ خليف"

لما تصفحنا هذه الرواية وقرأنا بدايتها فقط، ألفيناها مناسبة لعملنا هذا فلم يكن اختيارنا لها من باب الصدفة أو لشيء من هذا القبيل، لكن يرجع ذلك إلى كونها حاضنة للمكان وعلى وجه الدقة القرية كفضاء واقعي، أرّخ لكثير من الأحداث وكشف عن واقع هذا المكان بعد الاستقلال، حين وضعت الثورة أوزارها، ثم لا بأس إن التقى الواقع بالمتخيل، تصريحا أو تلميحا، ذلك ما أبدع فيه الروائي الأستاذ "محفوظ خليف". ففي ثنايا الرواية يستوقفنا مؤلفها على كثير من الواقع الاجتماعي للسكان في هذه المرتفعات والهضبات والسفوح التي أحنت ظهرها للجبال الشامخة الشاهقة، والتي أذاقت المستعمر ألوان الويل والقهر. وممّا يشر إليه، واقع المرأة، سيما العجوز منها وهي تكابد الكبر كما تصارع المكان « تلكم هي "فطوم" الظهر المحدودب تركبني فوقه وتقف أمام الشويهات، تدندن بكلام، لا أذكر منه إلاّ النغم الحزين »[1]. فمن خلال هذه الصورة نلحظ مشهد امرأة قروية عجوز، أحنت السنون ظهرها، ورغم ذلك جعلته مطية لحفيدها، تهزه وتشغله وتؤنسه، ليترك أمه تقبل على أشغال البيت أو أشغال خارج البيت كالاحتطاب أو صنع الفخار أو مساعدة الرجل في خدمة الأرض. وهذا ديدن العجائز في القرى، فلا مجال للراحة أو التقاعس، وزيادة على ذلك غالبا ما يقمن هنّ بأنفسهن بحراسة الماشية في المرعى، إذا استدعت الظروف ذلك وعزّ من يتولى هذه المهام من طرف الرجال ولا يجوز لهن الرفض أبدا أو حتى إبداء الحرج.

وأنت تمرّ بجانبهنّ لا تسمع لهنّ إلاّ كلاما غير مفهوم، يبدو حزينا، كأن بعضهنّ تبكي حاضرها التعس وتتذكر شبابها الضائع في هذه التضاريس الموحشة وهنّ متيقنات أيضا أن أيامهن معدودة، ورغم ذلك فهن مجبرات على السعي الدؤوب والمشاركة في الحياة العملية التي لا تعرف التوقف، وعلى مدار فصول السنة، خاصة في الشتاء، فهو فصل المتاعب، برد يلسع الأجساد وثلوج تغطي المكان، في ظل انعدام الإمكانات، « تغرق بالوحل أيام الشتاء فتعسر الحركة وتقصد فطوم بعودها

(1) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، إشراف: ربيعة جلطي، ط1، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، 2005، ص5.

النحيف كوخ التبن تملأ قفة الحلفاء تبنا »[1]، فلا تنثني المرأة القروية في تلبية حاجيات الأسرة، بما في ذلك الماشية الرابضة في الاصطبلات حين يتعذر عليها الخروج إلى المراعي في أيام الشتاء القاسية، فلا يهنأ للمرأة بال حتى ترى هذه الدواب في أحسن حال، إذ تتفقدها باستمرار وكأنها أعضاء في طاقم الأسرة، فيجب الإحسان إليها، فهي قبل كل شيء رفيقة حياتهم وأنسهم، فلا يجب البتّة التهاون أو التقاعس في رعايتها وفي ذلك أجرٌ قبل كل شيء.

وفي السياق نفسه يطلعنا المؤلف على وضع الرجال الكبار في السن وما يعانونه من ويلات في هذه القرى والمرتفعات، فلا المكان يرحمهم ولا سنّ الشيخوخة فلا تسمع منهم إلا السعال والأنين، لكن ذلك لا يمنعهم أبدا في ضخّ روح الحياة بين أبنائهم وأحفادهم، وتقديم كل نصائحهم وتوجيهاتهم، ليكون هؤلاء وأولئك رجالا على الدوام يقاومون، يجابهون، يصارعون ولا يخافون. « في الليل الثقيل كان الشيخ يتمرغ في سريره وقد أنهكه الربو، شخير وعرق وسعال وإذا دخلت عليه كانت عورته مكشوفة»[2]. هكذا حال هؤلاء الكبار، أمراض العصر وأمراض الكبر ولا حيلة لأبنائهم إزاءهم، فالعين بصيرة واليد قصيرة، فالفقر يلف المكان وزفرات الأسى والحسرة والألم تعصر أفئدة الأبناء نحو آبائهم أو أجدادهم هؤلاء الذين أفنوا أعمارهم في خدمة الأرض ورعي الماشية والسهر على غرس المبادئ والثوابت في هذه القرى. « البندقية تنام إلى جواره فوق السرير، يسعل، يبصق في إناء »[3]. فالملاحظ هنا شيخ طاعن في السن يُلِحّ على رجولته والبندقية ملاذه، ومظاهر التعب تحوم به، سعال، فبصق في الإناء فكأن به عاجز عن الحراك في ظلّ انعدام الإمكانات، في وحشة المكان وظلمة الدار وكبر السن، لكن قوة إيمانهم بالقضاء والقدر منحهم عمرا آخر، وتجاربهم وخبراتهم في الحياة ظلت مدرسة أبدية لأبنائهم ولذويهم يأخذون العبر والدروس ويستلهمون معاني الرجولة وروح التصدي.

(1) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، مصدر سابق، ص ص 119-120.

(2) المصدر نفسه، ص 62.

(3) المصدر نفسه، ص 57.

هذا شيء من واقع هؤلاء القرويين بمختلف فئاتهم في فصل الشتاء وهم متشبثون بالمكان الذي يطبعه البرد والثلج على ضوء قنديل خافت، وموقد يلتهم الحطب في نهم والدخان يملأ أفق البيت، وبجوارهم دوابهم، تراهم يتسلون بأصوات اجترارها للأكل تارة ولأصواتها ونداءاتها فيما بينها تارة أخرى، وتقابلك أيضا صورة أحد الشيوخ صاعدا هابطا، ملاحظا، متفقدا وهو يحاول قهر شيخوخته، وكأنه لها رافضٌ « تذكرت أنه لم يعد كما كان... رأيته عند العتبة كالتمثال، القهوة والعصا والسيجارة والشرود »[1]. لكن هؤلاء الكبار في القرى، تجدهم يكنون كلّ الوفاء والحبّ لكل أمكنة القرية، بما فيها مداخلها التي لابدّ أن تكون مؤمنة، وهذه قناعة راسخة لديهم، فهي بوابات لحماية شرف المكان، فيحرصون على معرفة من خرج ومن دخل خاصة فتبصرهم والعصي دائما بين أيديهم، فبها يذودون عن شرف الأسرة وشرف القرية بل وسمعة المكان وربما لهم في هذه العصي مآرب أخرى، ولا بأس إن رافقتهم السجائر، وكأنهم يدافعون بها عن أنفسهم، وهم شاردو الذهن أحيانا، يفكرون في العواقب ويتألمون باطنيا لقرب مغادرة هذه الأمكنة التي عشقوها وأحبوها وما بدّلوا عنها تبديلا، ففي كل بقعة هاهنا ذكرى وعبرة وتجربة ناجحة أو فاشلة، لتبقى تلك المراعي والحقول جزءا من حياتهم والمواشي والدواب أنيسهم الدائم، فبها يعبق المكان ويتألق فكل شيء في القرية يحدث نغما، وحتى لحظات الصمت فلا بدّ من الاصغاء إليها. فكم شقّ على هؤلاء أن يبتعدوا عن هذه الأمكنة التي قضوا فيها جل أعمارهم، فشاخوا فيها وبقوا رغم السن والكبر والأسقام متشبثين بكلّ بقعة في قراهم، وينيرون دروب أبنائهم في هذه الدروب والمسالك والتضاريس القاسية.

ثم عاد المؤلف لعرض حال الأولاد في القرية من جديد، وكأنه لم يشف غليله للحديث عنهم، أولئك الذين تتلاشى أحلامهم في هذه الأماكن الموحشة، وتذوب طفولتهم في رجولة لم تنضج بعد لكنها مفروضة عليهم قبل الوقت، لمواجهة الصعاب ومساعدة الأهل على حمل أوزار المكان وقساوة العيش. « متى تدع الخوف فتصير رجلا فتتزوج، كنت أخاف الليل، أخاف الذئاب... وكان جدي يحاول أن يصنع منّي

(1) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، مصدر سابق، ص 59.

بطلا، كان يقسو عليّ من غير هوادة، يعلمني كيف أغسل ثيابي وكيف أخيطها »[1]. يحدث كل هذا قناعة من الكبار أن القساوة تصنع الرجال، فظلوا ينصحون ويوجهون هؤلاء الصغار لتحمل أعباء المكان. ففي هذه الأجواء المرعبة وفي رحم اللّاتجانس بين الصغار والكبار، ينشأ أبناء القرية في مواجهة الصعاب دون تردد، فلا يحق لهم الخوف أبدا، بل بالعكس، فكان لابد لهم من الصبر والمقاومة والإقبال على مختلف الأشغال خارج البيت أو داخله، فلا شيء يمنعهم من الاعتماد على أنفسهم في كل كبيرة وصغيرة، فحتى خياطة الملبس وغسلها، لا يفسد للودّ قضية، فعلى الرجل أن يحترف كل شيء ليواجه صعوبة الظروف وخشونة الطبيعة، وأن يعرف الأمكنة والظروف المحيطة بها، ليس على مستوى القرية فحسب بل حتى خارجها. فمن هذا المنظور، يسعى بعض الآباء والأجداد إلى تعليم أبنائهم أو أحفادهم كيفية الذهاب إلى السوق وظروف التسوق والتصرف ها هناك، وكيف تسوقهم الضرورة إلى شراء المؤن لمدة أسبوع، بذكاء وفطنة وحذر شأنهم شأن الكبار، فعليهم أنّ يتعلموا من الآن هذه المهام بعد أن يعجز آباؤهم عن ذلك، فيتعلمون كذلك قيمة السلع وكيفية تخزينها لأيام أو حتى لشهور، حين تزمجر الطبيعة بالمكان وتعصف الثلوج بالقرى والمداشر، فإذ ذاك يستحيل الخروج حتى إلى خارج القرية وما بالك والمجيئ إلى السوق. « نشتري مؤونة أسبوع من قهوة وسكر وزيت وغيرها، ثم نعرج على مقهى متطرفة... ونعود إلى البيت على البغلة الشهباء... محملة بأغراض الأسبوع، يردفني خلفه وينخرط في حديث متشعب مع جماعة من المتسوقين يقطعون به الطريق »[2]. هكذا يتم التناغم بين الكبار والصغار في كل شأن من شؤون الحياة، وهكذا يتم نقل التجارب والخبرات بين هؤلاء.

فبهذه المبادرات، يتكوّن الأبناء ويتدربون على الصعاب، ولا بأس إن صارعوا المكان، ثم إنّ مصاحبة هؤلاء لآبائهم إلى السوق، يعتبر تجربة إضافية لمسيرة حياتهم فقضاءُ يوم كامل بين الرجال في ثنايا السوق والاحتكاك بالبيع والشراء والمقايضة

(1) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، مصدر سابق، ص ص 11-12.

(2) المصدر نفسه، ص 12.

وحتى الاحتيال المبرر ولحظات الحذر والتوجس، يضيف كلّ ذلك إلى الأبناء دروسا في الرجولة. وفي الطريق أيضا وأثناء العودة، نلاحظ أن الولد يتبعُ البغلة المحملة بالمؤن من الوراء ماشيا، يتلوى في الدروب بمشقة وجهد، دون أن تصدر منه شكوى فالأهم أنه تسوّق كالكبار وظفر بقهوة أو مشروب أو بلمجة في آخر المطاف، جزاء جهده اليومي وجزاء المرافقة. وفي يوم الغد، يلتحق هؤلاء الأبناء بأشغالهم المعتادة في حنايا القرية، سيما الرعي، ولا يزالون على هذه الحال وأفئدة آبائهم تعتصر تحسرا عليهم، لكنهم ما عساهم يفعلون، فالوضع العام مزرٍ، وجميع القرويين يتقاسمون تقريبا نفس الأوضاع، والطبيعة قاسية على هؤلاء وأولئك. « مسح على رأسي ومنحني العصا وسقت الغنم يتبعني كلبنا «سحاب»... عند الأصيل سقت الغنم إلى الزريبة وإحساس عميق من الحزن يقبض مجامع قلبي »[1]. وبهكذا أشغال يصير الولد في القرية رجلا قبل ظهور معالم الرجولة على جسده، كما أشرنا سالفا، وهذا طموح عزيز عند الآباء والأجداد والأمهات والجدّات، وقد يصل الأمر بالكبار إلى التعنيف والمعاملة القاسية مع الأبناء، اعتقادا منهم أنّ العنف يصقل التجربة الإنسانية، ويكسّر الخوف من المكان، كما يقوي همم هؤلاء. « الرجل لا يسقط على أنفه، الرجل يقف حتى ينكسر... والرجل ينام لوحده إذا لم يكن متزوجا »[2]. هكذا ترسم صورة الرجل في ذهن الابن، هكذا يُهيئ لمهام ثقيلة تتجاوز سنّه ولا يحق له أن يبدي امتعاضا لذلك وفي مقدمة هذه المهام الرّعي، فالولد هنا رهن إشارة والده أو أمه بالقيام بهذه المهمة دون تأفف أو تردد كما أسلفنا « أيها الشقي خذ العصا واذهب، أدر تلك النعجة المجنونة، آخُذُ منها العصا راكضا نحو النعجة .. وأعود لاهثا .. ولزمت الفراش ذات عشية، فخرجت مع جدي بالغنم وعندما عدنا مساء كنّا قد تأخرنا »[3]. فبهذه الكيفية يتلقى الابن الأوامر بصرامة، ورغم ذلك ينعت بالعاصي أو الشقي أو العاق أحيانا من لدن أقاربه، بل وحتى في أثناء مرضه لا يعفى من هذه المهام، فأين طفولة هؤلاء؟! وأين حظهم من اللهو واللعب والمرح؟ أم أن ظروف المكان حرمتهم من كل ذلك؟ ومن

(1) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، مصدر سابق، ص ص 8-9.

(2) المصدر نفسه، ص ص 20-21.

(3) المصدر نفسه، ص 05.

كثرة تردد هؤلاء على المراعي، تجدهم يعرفون كل الممرات والمسالك والدروب الصاعدة أو الهابطة في قراهم ويحفظون تفاصيلها أيضا. « وصعد بي الدّرب الملتوي كالثعبان بين الأشجار والأحجار إلى الجهة الأخرى أخدود سحيق في قاعه جثة حيوان متعفنة تنخرها الغربان والنسور »[1]. كما يعرفون الحقول والمراعي وخبايا هذه الأمكنة ويعرفون حدود حقولهم مع جيرانهم.

أكثر من ذلك يعرفون أيضا الكهوف والمغارات في هذه التضاريس والانكسارات الجغرافية، إمّا كحتمية، إمّا من أجل الفضول. « كان الكهف يفغر فاه يغشاه السكون والأزل .. رأيت الحجارة الكالحة والعتمة في الأقصى تشتد حلكة الكهف يتحلزن في قلب الصخرة الهائلة كجرح غائر »[2]. إن هؤلاء يتمتعون بروح التحدي والشجاعة والإقدام، فلقد علمتهم هذه القرى كيف يتصرفون وكيف يواجهون فلا الخوف يثني من عزائمهم ولا العجز أو الاستكانة، بل أكثر من ذلك تجدهم يغامرون وعلى المخاطر يقبلون « سألتهم عن الكهف الذي يحكى عنه في جبل الزيتونة، فقالوا إنه مسكون لا يقربه أحد، وأن الشموع توقد به ليلا ونصحوني بعدم الذهاب »[3]. فبين الحقائق والأساطير والخرافات، يتشعب الحديث، وتمزج المتعة بالخوف، وما فهم الكبار أو الصغار حقيقة هذه الأماكن إلا ما كان يروى لهم عن أجدادهم. ويلاحظ القارئ أن هذا الإصرار على ارتياد تلك الأماكن الصعبة من طرف هؤلاء الأولاد يعبّر أيضا عن رغبتهم في التسلق إلى عالم الرجولة التي آمنوا بها رغم حداثة سنهم، ثمّ لا يبالون بالمخاطر أبدا. « وتلمس أصابعي جدران الكهف، طحالب ميتة وحجارة صلدة وظلمة تتكثف »[4]. وبالفعل يقبل بعض هؤلاء على اكتشاف هذه المغارات والكهوف كمبادرات فردية، وقد لا ينتبه إلى ذلك آباؤهم أصلا، طالما أنّ هؤلاء منشغلون في حقولهم صباح مساء. فيقضي هؤلاء الأطفال بعض أيامهم في البراري بين الكهوف والوديان مكتشفين، مستطلعين، هائمين وكأن بهم يتلقون هاهناك دروسا في الشجاعة والجلد

(1) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، المصدر السابق، ص ص 60-61.

(2) المصدر نفسه، ص 61.

(3) المصدر نفسه، ص 60.

(4) المصدر نفسه، ص 61.

والصبر « أسندت ظهري إلى الحجر فعوى ذئب في الجهة البعيدة عواء مديدا جائعا»[1]، لكن هذه الأصوات تعودوا عليها فلم تعد مصدر توجس أو خوف. فمن خلال هذه الشواهد التي ساقها صاحب الرواية، ندرك جليا أن الطفل في القرية يُعامل نفسه أو من طرف الآخرين كرجل وذلك بفعل الظروف القاسية التي تحيط به من كل الجوانب، فلا الأسرة ترحمه ولا المكان، ولا يجوز له أن يخاف من الأمكنة مهما كانت أو أينما تواجدت في ثنايا القرية، فحتى المقابر التي يطالها الإهمال، وتغدو موحشة يرتادها الأولاد من دون خوف « اتجهت إلى مقبرة القرية كانت محاطة بسياج من أشجار السرو العالية، يغشاها السكون والعشب اليابس والحصى، تشقها ممرات ضيقة صنعتها الأقدام بين القبور ... كنت أتفحص القبور وأتهجأ شواهدها، بعضها كان مهملا »[2]. لكن رغم هذه المناظر المرعبة، تجد هؤلاء كبارهم وصغارهم يتشبثون بالمكان، فللقرية أيضا سرّها، سحرها، جمالها، ولهذه الديار المتلاصقة بعضها ببعض جاذبية وحميمية، لا يدرك صداها إلا أهلها « كان يشدني شيء ما إلى البيت الذي نشأت فيه رغم علمي أني كنت فيه حفيدا كاذبا إلا أن البستان والجدول والزريبة والشمس الناهضة خلف الجبل وأشياء لا تحديد لها كانت تذوب في دمي وتشيع فيَّ الحنين حدّ الهوس والبكاء .. فإذا كان اليوم عطلة مسحت المكان طولا وعرضا في هيام ووجد »[3]. هذا انطباع بعض الأطفال خلال العطلة المدرسية وكلّهم شوق وحنين إلى دروب قراهم، شأنهم شأن تمسك آبائهم بهذه الأماكن.

إن تعلق القرويين بالبيوت التي تربوا فيها ونشأوا بين أحضانها، تعلق لا يضاهيه شيء آخر فهي على الدوام تذكرهم بالطفولة، بالدفء الأسري، وتذكرهم أيضا بأحلامهم وآمالهم وآلامهم، رغم المعاناة التي كانت تحفل بها هذه الأمكنة. « هذا البيت يتنفس، في البداية يكون درعا ثم يتمدد لما لا نهاية وهذا يعني أننا نعيش في داخله الأمان والمغامرة بالتناوب »[4]. بهذه الصورة تتأصل صورة البيت في نفوس

(1) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، مصدر سابق، ص 61.

(2) المصدر نفسه، ص 43.

(3) المصدر نفسه، ص ص 56-57.

(4) غاستون باشلار، جماليات المكان، مرجع سابق، ص 70.

الأبناء وكأن سحرا غريبا يشدهم إليه. « هذا البيت هو المقاومة الإنسانية، إنه الفضيلة الإنسانية وعظمة الإنسان »[1]، ففي هذا المكان تنضج عاطفة الابن إلى بيته وأهله ويزداد تعلقه بكلّ أمكنة القرية التي حفرت في ذاكرته لقطة أو لمسة أو حدثا استحال إلى ذكرى.

ففي هذا المكان المتواضع تتقوى أجساد الأبناء وتزداد مناعة، بين أفراد الأسرة وسكان القرية يتعلمون الإحسان والخير ومساعدة الآخر، وحب العمل والابتعاد عن الأنانية المفرطة وكل هذه السلوكات قيم ما فتئت القرية تتمثلها في أهلها النّزاعين إلى العيش الجماعي، حتى وإن بدت الطباع خشنة. ويتعلمون كيف يحبون أيضا مكونات المكان، وكلّ ما يحيط بالبيت يبقى عزيزا حتى عند هؤلاء الصغار، بما في ذلك اصطبلات المواشي والدواب، فهي شيء هام في حياتهم ووسطهم القروي. « أدخل الزريبة، أملأ رئتي برائحة غنمها .. أجول في البستان .. أقصد العين .. أقوم هنا وهناك، تقودني خطواتي إلى الجبل الآخر، إلى البيت »[2]، هكذا ترى هؤلاء في سعي دائم، يرتادون كل الأمكنة ويتنسمون عبقها.

فمن هذه الفضاءات ومحتويات البيت والقرية، ومن شذاها تشحذ همم هؤلاء وتستقوى رجولتهم، لمواجهة ظروف الحياة القاسية في هذه الجبال والمرتفعات، سلاحهم الصبر على المحن والألفة والقناعة والرضا بما قدر لهم مع آبائهم وأمهاتهم، وفي سياق عكسي يطلعنا المؤلف على هاجس آخر ظل يقلق الأهالي، ألا وهو عدم تمكن الأولياء من تمدرس أبنائهم، إمّا لعوزهم وقلة إمكاناتهم أو لبعد المدارس عن مقر سكناهم أو لانعدامها أصلا، ففي هذه المرحلة من عمر الجزائر أي في البدايات الأولى للاستقلال، سعت الدولة إلى إنشاء المدارس لمحاربة الجهل الذي رنَّ لسنوات بفعل الاستعمار الغاشم. « وحدقت في عيني جدي ذلك المساء، فكان بهما الذبول. إنّ الحّدة القاسية المترقرقة في عينيه تواترت، قال لي بصوت هادئ خال مّما كنت أعهده فيه من اندفاع وإصرار، سأدخلك غدا إلى المدرسة، وهزتني المفاجأة، فصحت أصحيح

(1) غاستون باشلار، جماليات المكان، مرجع سابق، ص 66.

(2) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، مصدر سابق، ص 57.

ياجدي؟ أدخل المدرسة »[1]. فبمثل هذا الطموح، يقبل الأبناء القرويون في هذه الظروف الصعبة اجتماعيا وطبيعيا، على الدّراسة وإن حرم بعضهم لظرف مادي، أو لبعد موقع المدرسة، ممّا يصعب على الأبناء اللّحاق بها، سيما البنات، فهن الأقل حظّا في هذا الجانب، قناعة من المجتمع أن البنت مصيرها الزواج في آخر المطاف فلا داعي لهدر الوقت، أو دفع نفقات المدرسة سيما وأنّ الحالة الاجتماعية لا تزال مزرية لكثير من الأسر في هذه القرى المتناثرة فوق الجبال أو في سفوحها، فالطبيعة هاهنا قاسية وموارد الرزق نادرة، ممّا صعّب على القرويين حياتهم المعيشية. « في الليل كان جدّي يتربع فوق حصيرة جرداء جالسا القرفصاء أمامه مجمرة متوهجة فوقها إبريق شاي .. وكان الجمر يتوهج والإبريق يخور »[2]. فالمشهد يوحي بالخصاصة والحرمان، لكن قلوب الأهالي تنعم براحة البال، مطمئنة راضية بقضائها وقدرها متشبعة بأصالة المكان، فالقرية هي مصدر عزتهم وفخرهم، وهي مكان الأجداد، هي صوت التراث يرن في آذان جيل بعد جيل، إذ أنّ كل هضبة أو واد أو مرعى أو منحدر أو شجرة، أو أخدود، ينادي أن لا مكان لكم إلا هنا، فالرحيل والهجر والنأي عن هذه الأمكنة، قد يستحيل إلى عقوق وخيانة لأمانة أسلافهم، وما على الأهالي إلا التشبث واكتشاف أسرار وجماليات المكان. « كانت القرية تجذبني إليها بسحرها بأطفالها، بضبابها الصّباحي الفضّي وخضرتها الغامقة، أقف لحظات مشدوها لا أعرف كم مرّ من الزمن إذا ما أصبح الضباب يلفّ القرية بغلالته الشفافة »[3]. فكم هي رائعة هذه المشاهد القروية، رغم قساوة تضاريسها، وكم هي قريبة إلى أفئدة الأهالي كبارا أو صغارا، نساءً، وربما كسرّت هذه المناظر من وحشية المكان وخشونة العيش فتلطف الأجواء وتنسي الهموم.

ولعلّ هذا التمسك والتعلق، هو مكمن البقاء والاستمرارية، كم هي لحظات السعادة، ما فتئت القرية تحكيها لأبنائها، فتمتلئ نفوسهم غبطة. « تركبني نشوة

(1) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، مصدر سابق، ص 25.

(2) المصدر نفسه، ص ص 33-34.

(3) المصدر نفسه، ص 14.

غامضة فأودّ لو أركض بلا توقف، لو يخلق لي الله جناحين فأطير مع العصافير أحوم حول القرية »[1]. فهكذا تكبر لحظة اندماج القرويين بقراهم، ففي هذا الصمت تجدهم يصغون إلى جماليات المكان ولا بأس إن كسرته من حين لآخر أصوات الماشية والدواب ممزوجة بأصوات الفلاحين وألحان الرعاة معلنة عن سرّ الحياة هاهنا فهذه الصور الجميلة البريئة لا تزال متماثلة أمام أعين السكان، بين الحقول والمراعي والوديان الجارية وبين أشجار التين والزيتون التي تشكل مصدر رزق للأهالي، فيبذلون قصارى جهودهم لخدمتها والإحسان إليها، فأعطوها عنايتهم وحبّهم فمدّتهم الأرزاق الوفيرة. « الغنم ترعى كعادتها في هدوء .. وأنا أرقب نحلة تغوص في قلب زهرة بين رجليّ ... مؤخرة النحلة ترتعش، الزهرة ترقص، تحط فراشة بديعة .. وأجدني مدفوعا من طاقة في بحر من الحقول تحركني نشوة عذبة، لم أكن لأتعب يومها ولو قطعت بحارا »[2]. إنه تناغم أصيل بين الإنسان والمكان ومحمولاته، قصة حب كبيرة ظلت ننسج بينهما على مرّ الزمن وإن شابتها بعض الردود الفعلية الهائجة والحادة أحيانا بفعل تراكماتها.

وفي هذا الديكور القروي الجميل الأخّاذ، تمكنّ القرويون سيما الشباب والأبناء من نسيان محنة المكان أحيانا، وهم يجولون ويصولون في هذه الطبيعة الساحرة. ومن الصور الجميلة التي تبهر الشباب أيضا تلك الفتيات القرويات اللائي ينزلن إلى عيون الماء وعلى ظهورهن قلل من طين أبدعت النساء في صنعها، فهاهنّ مثنى وثلاث ورباع يرتدن العيون وعيونهن ساحرة، فتطير قلوب الشباب فرحا ولا بأس إن تحركت غرائزهم المكبوتة في هذه التضاريس. « ثم إذا امرأة تقف عندنا وتطرح قلتها عن ظهرها، لقد جاءت تأخذ الماء من العين، شدّني إليها منديلها الأصفر والكحل الأسود في عينيها، فتعلّق بها نظري »[3]. مناظر تشد إليها قلوب الشباب وفي نفس كل واحد طموح وآمال عريضة للظفر بها كزوجة. ففي هكذا مشاهد، تكبر نشوتهم، ومن ثمة

(1) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، مصدر سابق، ص 14.

(2) المصدر نفسه، ص 15.

(3) المصدر نفسه، ص 16.

يعود التعلق بالمكان من جديد، بعد زوال لحظات السخط والتذمر والشكوى من نفوس هؤلاء، غير أن حال المرأة القروية عموما يبقى مزريا، فهي الخادمة الراعية دوما لشؤون الأسرة، داخل البيت أو خارجه، فبقلبها الحنون وعاطفتها الصادقة، تبذل قصارى جهدها لمدّ يد العون لأمها، لأبيها، لإخوتها، أو حتى للآخرين، أنوثتها احتجبت في هذه المرتفعات والسفوح، فما عليها إلا أن تنتظر حظها وقدرها لتزفّ إلى بيت زوجها من غير رجعة، وتلك هي أمنية الآباء والأمهات، فالمجتمع رجولي وكلمة الأنثى تتوارى باستمرار في كنف الأخلاق والتربية الصالحة وإن سادها القمع أحيانا. «ربما يختلف الصراع الذي تعيشه المرأة عن ذلك الذي يعيشه الرجل، فالأخير معنيٌّ بالسلطة التي تؤهله لاكتساب مجده الرجولي وبأية طريقة كانت، فيما المرأة تشرع في اكتساب السلطة نفسها عن طريق آخر، الهيمنة الأنثوية والإغراء »[1].

غير أنّ هذه الهيمنة التي ذكرها الروائي الأستاذ "محفوظ خليف" قد تتلاشى بين مجتمع محافظ، الكلمة فيه للرجل أولا وثانيا وثالثا، أضف إلى ذلك معالم الجهل التي تحوم في المكان، فالكل منشغل في خدمة الأرض لافتكاك الرزق بأي ثمن، فكيف للمرأة أن تمارس أنوثتها في مثل هكذا مجتمع سلطة الرجل على المكان وعلى شيئيات المكان بارزة المعالم، ورغم ذلك تبقى المرأة جنبا إلى جنبه في حله وترحاله، كربة بيت، كزوجة، أو كخادمة في الحقول، وتتكلف بالماشية والدواب في كثير من الأحيان فأنّى للفتاة في هذا الزخم اليومي أن تفكر في إغراء الشباب أو إظهار محاسنها، غير أنّ البعض منهنّ تحاول إثارة شباب القرية ولو عن بعد، وهنّ صاعدات أو هابطات من وإلى عيون الماء أو الحقول، لكن ذلك يتم خفية عن كبار القوم، وكأن تلك الحركات والسلوكات والتصرفات رسالة إلى شباب القرية يسعين من ورائها للزواج منهن بدلا في التفكير في الهجرة والجري وراء الأوروبيات خارج الوطن.

وفي سياق آخر من الرواية يستوقفنا مؤلفها الأستاذ "محفوظ خليف"، عند التفكير الخرافي الذي ما فتئ يسبح في المكان ويأخذ به الكبار والصغار عن جدّ، فتراهم

(1) محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، المتخيّل الروائي، سلطة المرجع وانفتاح الرؤيا، ط1، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، الأردن، 2015، ص 4.

يتداولونه ويقيمون له حسابا إلى درجة التوجس من بعض الأفكار الخرافية، التي تفعل فعلتها عند الصغار خاصة. « كنت أكره الغربان السود تحوم على مقربة منّي ثم تحطّ بعيدا على هضبة حمراء، كنت أكره الغربان أودّ لو أمسك يوما غرابا فأحرقه »[1]. فبهذه النظرة الخرافية التشاؤمية، يتعامل الأولاد مع هذه الطيور، ولا شك أن هذا الاعتقاد أخذوه من الكبار، فظلّ هاجسهم. « يخيّل إليَّ أنّ الغراب رجل شرير وأنّه حينما ينعق إنّما يريد أن يقول شيئا ما شيئا لا أعرفه بالضبط، لكنه كريه لا يطاق»[2]. إنّ هذا التفكير الذي يجنح إلى عالم الخرافة، من شأنه أن يزيد الأبناء هاهنا في هذه التضاريس الموحشة، قلقا وخوفا، غير أنّ الآباء يصرون على طرد الخوف من نفوس أبنائهم. ففي هذا التناقض الرهيب ينشأ الصغار وأذهانهم مشتتة حائرة بين الرغبة والقوة والصبر والتحمل وبين دواعي الخوف والقلق، ورغم كل ذلك يبقى الأطفال رهائن هذا المكان، ما بوسعهم أن يفعلوا، فالقرية بيتهم الأول والأخر. « أذهب إلى القرية كل صباح ألعب مع الأطفال ولكن من يرعى لك الغنم يا جدي »[3]. هكذا يفكر الطفل القروي، وهكذا يحسّ بالهمّ الجماعي، وبهذا الوعي يكبر أمل الطفل في هذه القرى والأرياف، وتكبر صلته بأهله وذويه، ومن ذلك يظل حنينه قائما أبدا مع كل أشياء قريته. وتظل هذه الطيور محلقة في السماء وفي تلك الآفاق الرحبة تتبادل نسمات الحياة، غير أنّ الإنسان هو عدّوها يصطادها، يلهو بها، يسجنها بل يقتلها أيضا. «لا لا يا سعد، لا أحد يقتل فينا العصافير إلاّ نحن »[4]، فالعصافير هي هؤلاء الأطفال الذين يزيدون القرى جمالا.

(1) محفوظ خليف، أتصمت العصافير، مصدر سابق، ص 13.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) المصدر نفسه، ص 25.

(4) المصدر نفسه، ص 164.

الفصل الثالث

اللغة والأسلوب بين الحقيقة والمجاز

(بعض الروايات أنموذجا)

الفصل الثالث

اللغة والأسلوب بين الحقيقة والمجاز

(بعض الروايات أنموذجا)

أولا: رواية «الأرض والدم» لـ "مولود فرعون".

ثانيا: رواية «ابن الفقير» لـ "مولود فرعون".

ثالثا: رواية «يوميات بلاد القبائل» لـ "مولود فرعون".

رابعا: رواية «على جبال الظهرة» لـ "محمد ساري".

خامسا: رواية «الحريق» لـ "محمد ديب".

إنّ القارئ أو بالأحرى الذي يمارس فعل القراءة في ثنايا هذه النماذج الروائية المصطفاة في هذا البحث، يستنتج وبكثير من الإقناع العلمي أنّ النصّ الروائي الجزائري المكتوب إبّان هذه الحقبة التاريخية أي أثناء الثورة، وحتّى قبلها وبعدها، قد استطاع أن يستنطق الواقع اليوميّ الذي كان يحياه الفرد الجزائري على أكثر من صعيد، سيما الجانب الاجتماعي منه، ومن ثمّة تقرّبت الصورة عن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنّفسية التي سادت السكان والأهالي في تلك الآونة، ممّا جعل القارئ يستكشف خبايا هذه النّصوص التي تحمل هموم أصحابها وهموم المكتوب عنهم، « ذلك أنّ القارئ بمجرّد أن يعطي رأيه فيما يقرأ أو يقف موقفا معيّنا سلبيا كان، أم إيجابيا إزاءه فإنّه في كلتا الحالتين يُعتبر كاشفا سرّه لمنصوصه»[1]. فهذا النّص المدوّن بالفرنسية ورغم ما يحمله ذلك من تأويلات وقراءات نقدية، إلا أنه يتضمّن محمولات عدّة كخطابات ورسائل تجسّد آلام وآمال وأوجاع الجزائريّين في وطنهم وهم تحت وطأة ظروف تاريخية قاهرة، وربّما سكت ذاك النّص عن الكثير من الأمور باعتبار الفترة حرجة سياسيّا، وقنوات الاتّصال منعدمة فعاش الأديب الأمرّين كونه مضطهدا كسائر شعبه وكونه يخاطب مجتمعه بلغة غريبة عنه، ورغم ذلك تحدّى وكتب ونطق كما كشف لنا عن سياسة المستدمر المعتدي وبالمقابل أوقفنا عند أمل الشعب في الانعتاق والتحرر والوعي بالنضال.

ونعتقد من جهة أخرى أنّ النّص الأدبي مهما كان كاشفا للوضع، ومهما كانت قدرة صاحبه على الإفصاح، يبقى غير مجبر أن يقدّم كل التّفاصيل والحيثيات. « إنّ النّص يتماثل أوّل ما يتماثل في شكل دال من الدّوال، لكنّه دالّ صامت، ليس بمقدوره أن يقول لنا شيئا وإنّما كل ما يقدر عليه أن يلتفظ صوتيّا أو بصريّا أو خياليّا »[2] وبالفعل، فإنّ هذه النّصوص التي قمنا بدراستها وتحليل مضامينها، ألفيناها وهي تبطّن مخزونا معلوماتيّا يتأرجح بين النّظريتين الواقعية والخيالية لمؤلّفيها، ومن ثمة تتشكّل هاتان في ذهن القارئ، فتتّضح الصورة حول المكان والأحداث والشخصيات « وأمّا

(1) عبد الجليل مرتاض، في عالم النص والقراءة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 35.
(2) المرجع نفسه، ص 11.

الشخوص فإن الكاتب في الأغلب يختارها من الوسط الشعبي وهذه التركيبة لمستوى الشخوص تعطينا مستوى الحياة الاجتماعية الجزائرية »[1]، فحينما نقرأ عن الراعي مثلا وهو في تلك المرتفعات والمنخفضات في القرى والأرياف، فإن صورته تحضر أمامنا وإن لم نرها بأعيننا، كما تتجسّد في خيالنا تلك الحالة المزرية التي تسود الأهالي في تلك التّضاريس الوعرة بدءًا من لباس الرّاعي الرّث الخشن إلى رائحة جسده النّتنة التي تنبعث منه بحكم قساوة الظّروف التي يحياها، غير أنّه يتحدّى، يقاوم ويطاوع الطبيعة برجولته وصبره وتشبّثه بمكان أجداده وآبائه، فما تردّد أو تأخّر أو تراجع أو انحنى للطبيعة القاسية، إن هذه الصورة انطبعت أو يمكن لها ذلك في ذهنية القارئ.

ومن أجل تجسيد هذا الواقع القرويّ، لجأ أصحاب هذه الأعمال الروائيّة إلى طرائق السّرد والوصف والحوار، كأشكال لغويّة تجلّت في نصوصهم، ممّا يجعل القارئ يتمتّع بهكذا لغة، سَلسَة، واقعية، متداولة، بسيطة، وهو يرحل في سرديات متتابعة اطّلع من خلالها على حيثيّات الأحداث وأطلعنا عليها كذلك. « يُعدّ السّرد عالما مركّبا من النّاس والأحداث والأحاديث والأفكار »[2]، ولا شك أن هؤلاء الروائيين الجزائريين أتقنوا جيدا هذا المسار اللغوي، وساروا على نهجه، ممّا قرّب أعمالهم إلى القُرّاء.

فعلى منوال هذا الحكي اتّضحت لدى القارئ أحوال الناس في قراهم، وكذا الظّروف المحيطة بهم وما ينسجونه من وقائع في هذه البيئة القاسية وفي هذه التّضاريس الوعرة والتي تنام بين جنباتها هذه القرى والمداشر، ولا بأس إن عثر القارئ على بعض الفراغات والفجوات أثناء سرد الأحداث، إذ يلجأ الرّوائي أحيانا إلى تركها عن قصد أو من غير قصد، وما ذلك إلّا بصمات فنّية محضة، وكأنّ به يستنفر بذلك خيال القارئ ليدفعه إلى تصوّر الأشياء غير المذكورة، « فالقارئ يكمل بخياله ما كان ناقصا في النّص بناءً على معرفته »[3].

(1) العربي دحو، إطلالات مقاربة للآداب الجزائري الحديث، دار الهدى، الجزائر، 2011، ص 162.

(2) عبد الرّحيم الكردي، السرد ومناهج النّقد الأدبي، مكتبة الأدب، مصر، 2004، ص 115.

(3) المرجع نفسه، ص 120.

وربّما أشرنا في بحثنا هذا إلى بعض الشواهد في هذا السياق، انطلاقا من النماذج الروائية التي انطلقنا منها في دراستنا هذه، والأكيد أننا سنركز على الألفاظ الحاملة للمكان سيما القرية باعتبارها محور بحثنا، وكذلك على الصور الفنية التي وظّفها هؤلاء للكشف عن القرية وما تخفيه من مآسي وما تخزنه أيضا من أسرار وجماليات أبدعها الله في هذه الأمكنة.

أولا: رواية «الأرض والدم» لـ "مولود فرعون".

حين نتصفّح رواية «الأرض والدّم»، لـ "مولود فرعون" تقابلنا لفظة القرية كمصطلح محوريّ، ورد في عديد المشاهد لا يمكننا حصرها جميعا، بل نكتفي ببعض النّماذج الحاملة لهذا المكان (القرية):

- وهما يدخلان الشارع الرئيس **للقرية**. ص 05. (عتبة القرية).
- هنا في المسجد الواقع بمدخل **القرية**. ص 106. (مصابيح الله في الأرض).
- أدرك أهل **القرية** بأن قاسي في وضعية حرجة. ص22. ← (القرية والأهل).
- فرفضو الشراء أو اقتراح عروض مناسبة. ص 22.
- إنّها **قرية** بها مدرسة صغيرة. ص03. ← (القرية والمدرسة).
- فتوقظ فضول الناس وتحرك خمود **القرية**. ص 04. (السكون هو الموت).
- ينبغي أن نعترف من الآن بأن **القرية** بشعة جدّا. ص03. ← (اعتراف).
- بالنسبة لكل سكان **القرية** . ص 112.
- لتتأكّد الأجنبية بأنّ **القرية** مازالت تتمسّك به. ص08. ← (القرية في عيون الأجانب).
- وصل الأثاث على الحافلة الوحيدة **للقرية** . ص 33.
- تتكوّن **القرية** من مجموعة منازل. ص09. ← (مكونات القرية).
- والمنازل تتكون من ركام أحجار وتراب.
- فإنّ مظهر**القرية** يستمرّ في التغيّر شيئا فشيئا. ص10 ← (تمظهر القرية).
- ولكن الحقيقة لا يعثر عليها إلا في بيته وداخل **قريته**. ص 09.
- وطبيعة بعض الشباب الذين تفتخر بهم **القرية**. ص47. ← (موقف القرية من أهلها).
- تحاذي عائلة آيت معروف الساحة الكبيرة **للقرية** . ص 130.

- افترض عامر أن يجافيه أبناء **قريته** وأن تقسو عليه آراؤهم. ص46. (ارتباط الإنسان بقريته).
- لقد رآه كل أفراد **قريته** الذين زاروا باريس. ص 13. ← (عيون القرية خارج القرية).
- لماذا نسي **قريته**. ص14.
- لماذا لم يفكر في حقوله وفي بيته ...
- حقل يقع بمدخل **القرية** ومزروع بأشجار التين. ص20. ← (حواف القرية).
- كان أهل **القرية** يلتقون في الطّريق. ص15.
- لا ينبغي أن تعرف **القرية** بأن لدينا مالا. (لا للبوح).

هذا إلى غير ذلك من الشّواهد... وكلّما ذكر الروائي لفظة "**القرية**" إلاّ وأنبأنا من خلالها بحالة معيشية عمرانية أو اقتصادية أو اجتماعية إلخ... لسكان القرية. والذين ظلوا متمسّكين بقراهم رغم ما يبدونه من نفور إزّاء المكان بين الفينة والأخرى كأن يقول: « ينبغي أن نعترف من الآن بأن القرية بشعة جدّا » « وندلف بحسب الموسم أما وسط الغبار أو وسط الأوحال نصعد ونصعد ونتعرج بجنون »[1]، فيتّضح لنا من خلال هذين السياقين تلك الصورة القاتمة التي انطبعت في نفوس بعض الشباب.

وكسائر رواياته الأخرى، نجده في بعض المقاطع لا يذكر القرية صراحة بل يُشير إلى ألفاظ تدل على محتوياتها أو أشيائها ومحمولاتها، فحتّى وإن سكتت لفظة القرية، فينطق ما يوحي بها، وهذه شواهد عن ذلك، علما أن هذه الألفاظ لها من الدلالة والإيحاء ما يعرفنا على أن المكان قرية.

- إنّ أوّل **قطعة**... كانت قطعة **تمازيغت حقل** كثر حوله الطّامعون. ص20.
- أشجار **التّين** ذبلت. ص21.
- لقد بعت **المشمل**. ص21.

(1) مولود فرعون، الأرض والدم، مصدر سابق، ص 3.

- ورأسه في **قلنسوة البرنس وجرابه** الجلدي.. يختفي تحت قندورته. ص21.
- صار **القرميد** يجلب من المدينة. ص11.
- موضوع فضول سواء في المقهى أو في **تاجماعت**. ص 11.
- وفي صباح الغد، رأيته يسرح **حماره** للذهاب إلى السّوق. ص25.
- زاوية تفضي إليها طريق **جبلية** ملتوية. ص03.
- وفجأة وجد نفسه وحيدا على **الحصيرة**. ص 104.
- ويلتقين فيما بينهن مثلما يلتقي الرجال في **تجماعت**. ص 26.
- حيث فلاحة الحقول هي الشغل الشاغل للجميع. ص 106.
- فحينما يعود القبائلي إلى جبله بعد غياب طويل يبدو له الوقت الذي قضاه بعيدا عنه كالحلم. ص09.
- لكمومة **طاحونة** يدوية. ص 27.
- إنّ **الرتاج الخشبيّ** المنخور ليس إلّا مصراعا واحدا لذا ينبغي إصلاحه. ص06.
- تبدو الساحة صغيرة، تتراكم فيها الأوساخ إنها أقرب **للاسطبل**. ص 06.
- بلغ سمعها صوت ارتطام **العجين** بداخل **القصعة**. ص 31.

فنلاحظ انطلاقا من هذه الإيحاءات أن القرية هي الحاضرة كمكان محوريّ في هذه الرّواية، فلفظة **تمازيغت** تدلّ على قطعة أرض أو حقل غالبا ما يكون مميّزا لدى صاحبه، لكونه استراتيجيّ الموقع وقريبا من الدّار أو أرضا مسطّحة قابلة للحرث، أو مساحة لغلّات وأشجار كثيرة وقد يحدث أن يمنحها الوالد لأحد أبنائه المعوزين سيما البنات منهم ولا يحق للآخرين الاعتراض على ذلك.

ولفظة **المشمل** غالبا ما تدلّ على قطعة أرض مشتركة بين العائلة الكبيرة، لم ينلها التّقسيم بعد فهي ملك للجميع إلى حين. وقد تقسّم عرفيّا، فيجوز لصاحب

النّصيب بعد ذلك، أن يتصرّف فيه كما يريد حتى وإن حوله إلى قطعة للبناء، طالما أن القطعة لم تعد مشملا.

ولفظة **البرنس**، هذا اللباس الذي يميّز السّكان القرويّين عن غيرهم ظلّ دائما رمز الأصالة، لا يمكن الاستغناء عنه سيما في أيام الشّتاء الباردة، أو في المناسبات الدّينية والاجتماعية، وهو أيضا رمز للرّجولة، فالشّاب الذي يرتديه إنّما يترجم قوّته ونضجه ويُعلم عن رجولته حتى قبل الأوان. تجتهد نساء القرية في نسجه مهما كلفهن من أمر، بل يتنافسن فيما بينهن في إعداد البرانيس المنسوجة ونوعيتها أيضا.

ولفظة **الحمار** تتجاوز ذلك الحيوان الأليف المعروف في القرية، فهو السّند الحيويّ للساكن القرويّ، لا يمكنه الاستغناء عن خدماته، فلقد آنس القرويين عبر الزّمن فنقل لهم غلّاتهم وأرزاقهم من الحقول البعيدة المترامية في الوديان والسّفوح، ونقل مواد البناء أثناء تشييد منازلهم كما اتّخذه القرويّون وسيلة للتنقل إلى الأسواق التي تقام مرة في الأسبوع في مقر البلدية عموما، وسخروه في مختلف الأغراض، فلا تخلو عائلة جبليّة قروية من هذا الأنيس الجميل، حتى أن مربطه غالبا ما يكون قريبا من مضجع أفراد العائلة، فصوته كان دائما رمزًا للحياة وللدفء الأسريّ في هذه القرى المعلقة في قمم الجبال.

ولا يزال مصطلح **تجماعت** يفرض نفسه في الرّواية، ولقد أشرنا إليه في النّماذج السابقة، فهي دائما تشكل سلطة القرية ولسان حالها، لها هيبتها وحصانتها فكلمة رجالها مسموعة وأمرهم مُطاع، طالما يخدم الصالح العام ويسهر على شؤون الأهالي ويعزز الروابط والعلاقات ويقوي اللحمة ويفكّ النزاعات.

ولاحظنا لفظة **الرتاج الخشبيّ** فيُقصد به ذلك اللّوح الذي يركّب على عتبة الدّار إنّه الباب ذو مصراعين خشبيين تآكلا من شدّة القدم، وغالبا ما يتطلب إصلاحهما بين الفينة والأخرى، يغلق هذان من الدّاخل بمغلاق بسيط وعمود حديدي في الفوق ممّا يزيد الباب إغلاقا وإحكاما واطمئنانا. ولإيصال هذه السرديات اللغوية، وجدنا المؤلفين ينوعون في طرائق التعبير، فكان للسّرد وللوصف وللحوار حضور مكثّف في هذه الرّواية (الأرض والدّم)، ولعلّ كثافة الأحداث والأفعال والحركات، وتعدّد الأزمنة

والأمكنة والأشخاص أدّى بصاحب الرّواية إلى استحضار هذه الآليات اللّغوية، وهي الأنسب إلى الجنس الرّوائي « علما أنّ اللغة ظاهرة حضرية وفكرية ووسيلة لإختزال الوقت من شأنها أن تنتج المجال للفكر »[1].

وكان للفعل حضور واضح، ولعلّ ذلك يدلّ على أن القرويّين ظلّوا يوقعون على حياتهم في هذه القرى بعزم وتحدّ وتجدّد دون تردّد أو تراجع أو تواكل أو التّباكي على تلك الظّروف المزرية فبقي الأمل يعلو وجوههم على الدوام، فنمط العيش في القرية خاصة يقتضي السعي والحركة والانتشار في الأرض والابتغاء من رزقها، ومن الأمثلة عن الأفعال:

- نسير أول الأمر عبر نهج مرصوص بالحجارة، **نصعد ونصعد ونتعرج** بجنون. ص 03.
- **سدّت** العجائز باب المنزل. ص 05.
- **تخطّى** الرجل عتبة منزله البائس. ص 07.
- **ما زالت** أمّى **تستطيع** أن **تعتني** بعنزة. ص 08.
- حينما **يعود** القبائلي إلى جبله. ص 09.
- إنسان **يصارع** باستمرار. ص 09.
- لماذا **نسي** قريته؟ ص 14.
- لماذا لم **يفكر** في حقوله، **نسي** الأحباء والأعداء. ص14.
- كاد **يخرج** من الذاكرة الجماعية. ص14.
- **يئست** أمه من انتظاره، **يلوم** نفسه. ص 14.
- **أضحى يحب، يكره، يقلّد ويغار، يؤمن ويتصرف**. ص 14-15.

(1) مصطفى درويش، تشكل الذات واللغة في مفاهيم النقد المنهجي الأمر للطباعة والنشر، 2008، الجزائر، ص159.

- **اكتفى** بعضهم بالذهاب للعمل في مستثمرات الفلين والبعض الآخر **انخرط** في حفر المناجم والأكثر اقداما منهم الذين **تجرأوا** على عبور البحر .. **يواجهون** مجازفة كبيرة. ص 58.

فهكذا تتم عملية السرد في حلّ العمل الروائي، لأنه الأكفأ على نقل وتقريب صورة القرية وسكانها. « ومن أجل أن يظل العمل السردي مفتوحا على مركز الأحداث فإن محور اهتمام الساردين بجملتهم .. يتعانقون، يتآلفون »[1]. إنّ تتابع هذه الأفعال المضارعة خاصّة في عملية السرّد ينبّئ بحراك واسع تعيشه القرية رغم ضيق أفقها وحصر أمكنتها، فإنّ أهلها يتميّزون بالحيويّة والنّشاط وحبّ الحياة والبقاء، فتظلّ أصواتهم تملأ المكان وصداها تتموّج بين هذه المرتفعات والجبال والسّفوح رغم أنّ الجبل عمومًا يوحي بالدّهشة والخوف والضّياع والعزلة، لما له من رهبة خاصة، لكنّه يمنح أيضا القوّة والصّلابة والتّحدّي وينشر الجمال للطبيعة وللسّاكنة. « الجبل مكان للضّياع والفقد... الجبل ارتفاع وحاضر ونهاية تبثّ فيه الروائح والأصوات»[2]. والجبل هنا هو هذه القرى التي تعلو فوق قممه أو تنام تحت سفوحه وبين جنباته، فالجبال هنا تحمي هذه القرى والكل يتبادل الأنس ودفء المكان.

فلاحظنا أن لفظة الجبل ظلّت تتردّد في مختلف هذه النّماذج، فهو دليل القرويّ ومعلم جغرافي رافقه على الدّوام، ولاشكّ أن كل حركة في هذه المشاهد تنبض بالحياة وتطارد الموت والفناء فنلاحظ هذه الأفعال مثلا: نسير، نصعد، نتعرج، يصارع يتصرّف، يواجهون ... كلّها تنبئ بطرد التّخاذل، فالقروي ظلّ دائما ينزع إلى الأمام وكأن ركونه إلى السكون والثّبات يجرّه إلى الموت والاستكانة والخضوع لطبيعة لا ترحم وظروف اجتماعية قاهرة، فألف النشاط الحثيث والسعي الدؤوب إلى آخر رمق من حياته.

---

(1) عبد الجليل مرتاض، البنية السردية في الإبداع الروائي، رشيد ميموني نموذجا، ديوان المطبوعات الجامعية، 2016، ص 166.

(2) حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي، قراءة موضوعاتية جمالية –دراسة–، ديوان المطبوعات الجامعية، 2011، ص 62.

ولهذا المكان أيضا مرادفاته، غير أنّها تسبح كلّها في فلك القرية، فيذكر صاحب الرواية "مولود فرعون" المكان متشظّيا في هذه التّسميات:

- **زاوية** صغيرة من بلاد القبائل. ص03.
- **طريق** جبلية ملتوية. ص03.
- فوق **هضبة** كالسّاقية. ص03.
- وسط الغبار، أو وسط **الأوحال**. ص03.
- نتجاوز **المنعرجات** الخطيرة. ص04.
- يكون الدخول إلى قرية **إغيل نزمان**. ص04.
- وهما يدخلان **الشّارع** الرئيس للقرية. ص05.
- وهذه **الأكواخ** الصّغيرة المتّسخة. ص06.
- يدخلون **زقاقا** مظلما. ص06.
- **ومنزل** كمومة... لم يتغيّر فيه شيء. ص06.
- تبدو الساحة إنّها أقرب إلى **الإسطبل**. ص06.
- تتكوّن القرية من مجموعة **منازل**. ص09.
- ركام **أحجار** وتراب وخشب.. ص09.
- إنّ أقدم بيوت **إغيل نزمان** تحمل ثقل القرون. ص10.
- **المقهى، تجماعت**. ص11.
- يعود إلى فلاحة **الأرض**، ذاهبا كل صباح إلى **الحقول فأسه** على كتفه. ص13.
- لم يتأخر في الاستيلاء على **تيزغران** آخر ما تبقى لقاسي. ص 24.
- قطعة **تمازيغت**. ص20.
- مزروع أشجار **التين**. ص20.

- السبالة العمومية. ص27.
- لقد بعت **المشمل**. ص 21.
- قلنسوة البرنس. ص 21.

فمن خلال هذه الإيحاءات من الأمكنة تجلّى لنا أن القرويّ بطبعه يولي أهميّة قصوى للمكان الذي يعيش فيه، خاصة البيت فهو البدء والنهاية وعصب حياته وسرّ وجوده العائليّ. فالبيت يأويه ويأوي أسرته ويأوي بعض دوابه ويأوي رزقه ومعاشه، فلا يتوانى الرّجل في مراجعة الأشياء بين أركانه، وزواياه، وكذا محتوياته، وربّما كانت المرأة أكثر عناية بهذا المكان الحميمي. « البيت هو ركننا في العالم، إنّه كوننا الأول»[1]، فبهذه القناعة تعلّق القرويّون ببيوتهم وعلى تواضعها وبساطتها، فظلّوا دائما يتعهّدونها بالإصلاح والتّرقيع والتّرميم والتوسيع إذا اقتضت الحاجة لذلك فلا مجال للتراخي أو غض الطرف عن هذه البيوت. وإلى جانب البيت نجد: الجبل، الهضبة الأكواخ، الإسطبل، تمازيغت، الأرض. وكلّها أمكنة جوارية، حميمية أيضا، يقضي فيها القرويّ وقته فلّاحا كان أم راعيا أم قرويّا وكفى، فهي أنيسه ومصدر رزقه ورمز أصالته وسرّ بقائه ها هنا.

(1) غاستون باشلار، جماليات المكان، مرجع سابق، ص 36.

ثانيا: رواية «ابن الفقير» لـ "مولود فرعون":

وردت في رواية «ابن الفقير» لمؤلّفها "مولود فرعون" بعض المقاطع السردية غامضة كأن نقرأ في الصّفحة رقم 32 قوله: « ولدت في عام البركة 1912؟ » غير أنّه لم يُشر أو يذكر أو حتّى يلمّح لسرّ هذه التّسمية، فلماذا أطلق على هذا العام هكذا؟ ماذا حدث فيه ولماذا هذا التّاريخ بالضّبط؟ أم أنّ الكاتب ترك الفراغات من باب استفزاز خيال القارئ وتنشيطه، وكأنّه يدعوه إلى تقفي أثر هذا الحدث والبحث في مجرياته أو في بصماته التاريخية.

وفي مشهد سرديّ آخر يقول: « أمّي كانت تعاني مرضين أو ثلاثة، كانت تتكلّم كثيرا عن هذه الأمراض ولكن لم نكن نراها » (ص83). غير أنّ المؤلّف لم يذكر كذلك نوع هذه الأمراض صراحةً، ولو أنّ القارئ بإمكانه أن يتخيّل بعضها تبعا لقساوة الظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة في تلك الحقبة كانتشار الطّاعون، فهكذا نجد في بعض هذه الرّواية ما يدعو خيال القارئ إلى تصوّرات ذهنيّة لأحوال النّاس آنذاك انطلاقا من لفظة أو جملة أو استفهام أو تعجّب أو فراغ سردي معيّن وفي الجوانب اللغوية. ورجوعا إلى عالم الألفاظ يهمّنا في هذا البحث دائما حضور **القرية**، فهذه اللفظة بمحمولاتها وبمدلولاتها تردّد ذكرها في أكثر من موقف صراحة أو تلميحًا وسنورد بعضا من الشّواهد اللغوية التي استوعبت هذا المكان ومحتوياته.

- إنّ العائلات الفقيرة في **القرية** تعيش. ص21.
- مسكن أهلي يوجد في الشمال أقصى **للقرية**. ص23.
- عندما بنيت في **القرية** أول رحى للزيت. ص85.
- الآن أصعد إلى **القرية**. ص181.
- في الهواء المكشوف خارج **القرية**. ص65.
- كلّ النّاس في **القرية** يتكلّمون خيرا عن فورولو. ص174.
- مؤذّن قرية **القبائل**. ص172.
- مصحوبا بأعيان وبمرابطين من **القرية**. ص 51.

- حماس الشّباب **القرويّين**. ص170.
- إنّ **للقرية** ثلاثة أحياء. ص 16.
- ما من صناعة **القرية**. ص63
- في **القرية** بعد العام الجديد. ص176.
- المقى الغربي يوجد خارج **القرية**. ص 16.
- رعاة **القرية** كانوا يمارسون الكشافة. ص170.
- ... عن حياة المراهقين الشاقة في **القرية**. ص 161.
- أهله وسكان **القرية** فهموا. ص 178.

ومن جهة أخرى، نعثر في ثنايا الرّواية على ألفاظ توحي بالقرية دون ذكر اللفظة نفسها ومن الشّواهد الدالة على ذلك:

- كانت خالتيّ تشتغلان **بالطين والصوف**. ص 61.
- على قمّة، ربوة. ص14.
- الشواري التي حملت العنب. ص51.
- في الشّتاء سلّات مليئة بالبلّوط، دخان الكانون. ص20.
- كلّ ماعون له طراز خاص. ص63.
- ... هي الوحيدة التي تفتح وتغلق إكوفان... ص31.
- بعنا الحمار وخروفا. ص 136.
- الفناء كان عامرا **بالفخّار**. ص 61.
- تكون خالتي قد نزلت إلى الكوخ وأنّ الراعي تراجع. ص 127.
- رأيت **برنوسا** معلقا إلى**خشبة** مسمرة في الجدار. ص 126.
- اسطبل، الروث، الدّواب. ص 17.
- تشتمل على إيكوفان. ص 20.

- الكانون يوجد في مكان ما. ص 20.
- تتسلق لأخذ حصّة التين أو تملأ غربالا بالشعير. ص 31.

مع العلم أن مصطلح «إكوفان» يعني صناديق من الطّين تحفر في جدران البيت وفيه تُحفظ المُؤن درءً للشّتاء الطّويل القاسي، وغالبا ما تكون هذه المؤثثات تحت سلطة ربّة البيت أو عجوز الدّار في مصطلح القرويّين، تسهر تلك أو هاته على حسن تسيره وفقا لمتطلبات اليوم « جدتي هي الوحيدة التي تفتح وتغلق إكوفان، لها طريقة خاصة ولها أسرارها »[1].

أمّا «الشواري» فهو محمل يوضع على ظهر الدّابة وتوضع فيه مختلف الحمولة من خضر وفواكه وغير ذلك، يُصنع من القماش أو من نبات السّرو وقد يُصنع أيضا من الحديد، وإذ ذاك يصلح لوضع الصّناديق عليه وظل هذا الشواري يلازم الحمار يوميا من وإلى الحقول أو السوق.

وفي الرّواية أيضا تستوقفنا قنوات تعبيرية متعدّدة تتشظّى بين الوصف والحوار وربّما امتزجت هذه الأشكال التّعبيرية في سياقات واحدة، لتكشف عن حدث ما أو تقرّب حالة معيّنة، لتتراءى القرية أكثر تجسيما ووضوحا أمام عيون القرّاء أو أخيلتهم.

يقول صاحب الرّواية واصفا ساردا:

- وكنت أضمّ نفسي إليها خائفا. ص 69.
- بكت أمي لما آلت إليه حالة الأسرة. ص 121.
- مساكنها ملتصقة واحدة تلو الأخرى على قمّة ربوة. كأنّها فقرات ضخمة لوحش من وحوش ما قبل التّاريخ. ص14.
- ولدت في عام البركة. ص 32.
- نظرت إلى نانا فوجدت وجهها شاحبا. ص 108.
- أمسية شتاء ممطرة، الطرق وحلة. ص 109.

(1) مولود فرعون، ابن الفقير، مصدر سابق، ص 31.

- هذه المساجد تشبه المساجد المجاورة، من الدّاخل أرضيّتها مُسمّتة وحيطانها مبيّضة بالجير... إنّه فراغ حزين من شدّة البساطة... يبدو الشّيوخ الذين يتوجّهون لأداء الصّلاة فيها وكأنّهم ينتمون إلى عصر منقرض. ص16.
- أمي لم تعتبر نفسها منهزمة. ص 79.
- الغرف الصغيرة تمثل ببساطة مثلثا بدون أن يكون لها تناسق. ص21.
- الأم والأولاد يدخلون حزينين إلى دارهم، العائلة كلها تبكي في هدوء. ص148.
- ياله من يوم حزين قضيناه ... الآن نحن أمام مصيبة كبيرة. ص 120.
- كنّا نرى عضلات وجهها ترتعش ... أجفانها تتحرك ... لاحظنا دموعا تنساب ولكنها دموع باردة. ص 113.

فمن خلال هذه الشّواهد التي التحم فيها الوصف والسرّد، يمكننا أن نفهم ولو بعضا من أحوال سكان القرية سواء في ظروف عيشهم أو حتى أجواءهم النفيسة، دون الولوج إلى المكان، فالمقاطع توحي بواقع القرى والأرياف، على بساطة حياتهم وتواضع إمكاناتهم، كما تطلعنا هذه السرديات والأوصاف على الجانب الرّوحي والدّيني وعلى بساطته أيضا، والذي ظل يميّز الأهالي في هذه الجبال والمرتفعات وفي تضاريس اللغة دائما، نجد لجانب الحوار حضورا ملفتا في ثنايا هذه الرواية يتسم بالعفوية والبساطة والتلقائية، سلس موحي، معبّر أيضا عن واقع هؤلاء القرويين وهذه أمثلة منه:

- قالت الأم: الثيران ليس لها شيء هذه الليلة، أتعرف ذلك؟
- ليس بإمكانك أن تعمّر كيسا هذه الأمسية؟ ص 132.
- إنّني مريض. ص 132.
- ألم تتحسّن باعتمادك على عصا. ص 132.
- سيعطون لهم حمّصا قالت أمي، بكل تأكيد، نحن فقراء. ص 51.
- أدع أخي يعوّضني هذه الليلة. ص 133.
- هل تريد أن أضغط على مكان ما يؤلمك؟ ص 133.

- لا إنّني أتألّم في كل مكان. ص 133.
- أتريد أن تأكُل عنقودا من العنب؟ أم تريد الكسكس باللّبن؟ إنه منعش. ص133.
- جبّته موسخة (قالت أمي) يجب انتظار الغد لأغسلها. ص 71.
- بسرعة بسرعة قال أبي لأمي إغسليه. ص71.
- ابتعد صرخ عمي، نركبك على حمار.
- نعم الآخرون سيفعلون مثلنا. ص 48.
- قالت الأم إنها جنون، أبوكم يصارعهم منذ ساعة. ص 133.
- أرأيت قال الأب . ص 154.
- نعم ردّ عليه فورولو. ص 154.
- لا أيها الرئيس. ص 168.
- جيد كلمني قليلا عن عائلتك. ص 168.
- جيدا، ها هو الأن الجرح أضاف وهو يفتح قميصه. ص 154.

من خلال هذه العيّنة من الحوار بين شخصيّات الرّواية، تتجلّى لنا هموم وانشغالات الأهالي القرويّين، في هذه المرتفعات والسّفوح، فالمعاناة متشعّبة وخصوصا تلك الأمراض التي ما فتئت تفتك بهم في ظلّ انعدام الإمكانات. ثم لا حيلة لهم إلّا اللّجوء إلى الاستطباب التّقليديّ والاعتماد على الأكلات الطبيعية المستوحاة من رحم الطبيعة، ولاشك أن طبق الكسكسي يظل رفيق القرويين في غذائهم.

ويظهر الحوار أفضلية الذكر على الأنثى أثناء الولادة.

- تحسين أنك ثقيلة؟ قالت أمي – إنني أحس تمزقا في الكلى. ص 108.
- الطّفل الأول لا يُنفخ البطن، سترين أنّك بعد ذلك تصبحين جميلة. ص 108.
- قالت الأم: المهم أن يكون **طفلا**. ص 108.

فالمولود الذّكر عند المرأة القرويّة حدث بارز لا يضاهيه المولود الأنثى، وقد تأكّد لنا ذلك من خلال هذا الحوار، الذي تُخالطه العامّية أو اللهجات المحلّية بين الفينة والأخرى، باعتبارها قناة تواصل وتفاهم وذات طابع جماهيري بسيط ومألوف، ويؤدّي رسالته في التّفاهم بين الأفراد، مهما كان مستواهم الثقافي، ثم إن هذه العامية هي لغة أهل القرى توارثوها أبا عن جدّ.

« بقي أنّ بعض الرّوائيّين قد ينجرّون وراء الاتّكاء على أنّ الحوار يكتسب واقعيّته من العامية على اعتبار أنّها اللغة التي نتكلّم ونتواصل بها فيما بيننا في حياتنا»[1].

وقد لاحظنا أنّ الرّوائيّ "مولود فرعون" قد أطلق العنان لحوار شخصيّاته، وتجنّب خنقها لغويّا ليجعلها أكثر تحرّرا، فكان البوح كبيرا، ممّا أتاح لها وضع اللّفظ المناسب في سياقه المناسب. « إنّ الشخصيات هي التي تختار هذا الحوار »[2]، والأكيد أنّ الكاتب أدرك عن وعي ودراية وتجربة ذلك المستوى الثّقافي والاجتماعي لشخصيّات عمله الفنّي، وكأنّ به يراقبها من بعيد ويتتبّع حواراتها بكثير من الرّضا، « إنّ الحوار هو كلام الشّخصيّات أكثر منه كلام المؤلّف »[3]، ومن هذا تظهر مصداقية اللغة. ثمّ سرعان ما يعرج المؤلّف إلى جماليات السّرد والوصف والحكي من جديد والغاية من ذلك تقريب صورة القرويّ إلى القارئ، ليطّلع على أوضاعه وحياته ككلّ، إلى درجة يُتخيّل إليه أن القارئ يتواجد بجنب تلك الشخصيّات فيقول: « إنّ الكسكسي هو الطّعام الوحيد لنا... ليس بإمكاننا أن نعدّ كل يوم كبشة حمّص... إنّنا جبليّون، جبليّون أشدّاء كثيرا ما كانوا يقولونه لنا... ربّما كانت المسألة مسألة وراثة... الفرد القويّ يعيش ويتحمّل » (ص84)، فمن خلال هذا السرّد الذي يتخلّله الوصف تتبين لنا بعض من الجوانب النفسيّة للإنسان القرويّ، إذ أن قدره هنا التسلح بالصّبر والتّحمّل بين جنبات هذه الجغرافية المنكسرة الرّهيبة وإن بطّنت جمالا وسحرا لا يدركه إلا هؤلاء المتمسكون

(1) نجم عبد الله كاظم، مشكلة الحوار في الرّواية العربية، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2007، ص 29.

(2) المرجع نفسه، ص 28.

(3) المرجع نفسه، ص 63.

بالمكان، هذا المكان الذي وكأنه يُنازع البطل بطولته: « إنّنا جبليّون » (ص 84) ولا بأس إن التحم المكان بالإنسان، فكلاهما يشكلان القرية هاهنا. فالجبل مكان وفي قممه وأسافله ومنحدراته تتعانق التجمّعات السّكانية، متّحدة أفرادها، ولهم قابلية رهيبة للعيش مع بعض، فلا مجال للتفرّق والانفراد مع ما يلازم ذلك من طبيعة قاسية وخصامات تحدث باستمرار تقريبا، لكنها سرعان ما تنطفئ.

من هنا تظل «القرية» ترقد في ثقة واطمئنان متّكئة إلى الجبال رُموز العلياء والشّموخ، « إنّ ما يشدّنا في هذه الرواية هو المكان الذي يكاد البطل الرئيسي للرواية... إن عبقريّة المكان المتمثّلة في تلك البيئة تجلّت بصورة واضحة وصريحة على صفحات الرواية »[1].

ويقينا فإنّ القرية فرضت نفسها في رواية ابن الفقير لمولود فرعون، كمكان استراتيجي ظلّ يساير أحداث الرواية بل يحرّكها حتّى تبدو أحيانا وكأنّها قد حجبت بعض الشّخصيات أو حدث بينها توافق وتداخل وذوبان. « إنّ المكان توحّد في الشّخصية كما أنّ الشّخصيّة توحّدت في المكان فأصبح من الصّعب علينا انتزاع أي طرف من الطّرف الآخر في تلك الرواية »[2]، وتبقى هذه الأطراف متشابكة في العمل الروائي « إن تلاحم المكان والزمان والحدث الإنساني يعمق الرؤية الحقيقية لجمالية المكان »[3]. ومن الشّواهد اللّغوية الدّالة على ذلك التّناغم بين المكان والإنسان.

- « لا يهمّ أن يكون لكل حيّ جد... إنّنا منذ زمن بعيد نُقيم أعراسنا بين خروبات حيث أن قصّة القرية صارت واحدة كالتي لإنسان واحد». ص17.
- إنّ ظروفنا الاجتماعية واحدة لأن كلّ قبائل الجبل يعيشون حياة على نفس الطريقة. ص 18.

(1) أحمد فضل شبلول، الحياة في الرّواية: قراءات في الرّواية العربية المترجمة، دار الوفاء للدنيا للطباعة والنّشر، مصر، 2001، ص 66.

(2) المرجع نفسه، ص 67.

(3) صالح ولعة، المكان ودلالته في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف، مرجع سابق، ص 187.

- إنها سعادة أن يكون لك جيران يساعدونك، يقرضونك، يغيثونك.. إننا نخشى العزلة مثل الموت. ص 17.
- كل أطفال القرية يتعلّمون مبكّرا أن لهم مكانا في الجماعة. ص43.
- تمثل تيزي تجمعا سكنيا، مساكنها ملتصقة واحدة تلو الأخرى. ص14.
- على كل حال في تيزي نتعارف، يحب أو يغار بعضنا بعضا، نعيش حسب الممكن ولا توجد فينا طبقات. ص ص 22، 23.

ولعلّ هذا الانسجام الفنّي بين المكان والشخصية ينبّئ عن صدق هذا العمل الروائي وقدرة صاحبه على التوغّل في المكان واستنطاق أحداثه والكشف عن بواطن شخصيّاته « فالشخصية التي ترى النور تتنفس المحيط الذي تعيش فيه »[1].

ومن جهة أخرى لاحظنا أنّ للخيال حضورا بارزا في هذه الرّواية، تجسّد معظمه في طموحات وآمال القرويّين لمّا يكبر السّخط والتّذمّر عندهم، فإذا بأحلام اليقظة يطلق لها العنان، فتُسافر بأصحابها إلى الرّغبة في الولوج إلى المدن والعيش في كنفها، حيث الحراك والحيويّة وضوضاء النّاس وأضواء المحلّات والشّوارع، ولقد تجسّدت هذه الطّموحات المتخيّلة في اللغة المجازية التي استوقفتنا في عديد الشّواهد فحينذاك نُلفي الكاتب قد جنح إلى استعارات وتشبيهات وكنايات وهي مطلب فنّي كأدوات لغويّة تضفي جمالا للنّص، وتكسر شوكة الواقع المرير أو تخفّف من جفافه ونمطيّته، ولا بأس إن أوردنا بعض النّماذج الدّالة على ذلك من خلال ما ورد في هذه الرّواية:

- منراد معلّم متواضع في بلاد القبائل يعيش وسط عميان. ص08.

فقد ورد المجاز المرسل في قوله: بلاد القبائل، إذ ذكر الكلّ وأراد الجزء (القرية) في علاقة كلية، وقوله: وسط عميان: كناية عن الجهل الذي ظلّ يسود هذه القرى والمداشر.

(1) صالح ولعة، المكان ودلالته في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف، مرجع سابق، ص 196

- إنني أرى أحلاما مزعجة. ص 109.
- إن الموت يحصد بسهولة أناسا في عنفوان الشباب. ص 112.
- الريح تدخل البيوت من شقوق الأبواب. ص 125.
- إن السائح الذي يجرؤ إلى التوغل في قلب منطقة القبائل. ص 13.
- إننا نسخر من الغرور. ص 17.

فمن خلال بعض من هذه المجازات، تقرّبت لدينا صورة السّكان الأهالي، ممّا يجعل القارئ يغوص في إيحاءات وتأويلات ودلالات كثيرة، ويذهب بخياله إلى تصوّر أوضاع أخرى للقرويّين، بواسطة هذه الصّورة المجازية فالأحلامُ شخصت وأزعجت والموت يحصد والريح تلج البيوت...، ولابأس إن عثرنا على بعض الصور المؤلمة في هذه الأماكن، فهي أيضا من جماليات المكان، ما دام القرويون قد ألفوها، فلن ينثن الروائيون من استحضارها « ولعل هؤلاء أرادوا أن يقلدوا الشاعر الفرنسي الشهير "بودلير" الذي كان يرى أن الجمال قد يمثل في شم الجيفة كما يمكن أن يمثل في شمّ الوردة النضرة العبقة »[1].

وفي شأن مساكن القرية فعل الخيال فعلته في قوله: « مساكنها ملتصقة على قمّة ربوة كأنّها فقرات ضخمة لوحش من وحوش ما قبل التّاريخ » (ص14)، ففي هكذا تشبيه رائع، راح المؤلّف يضيف لنا باستراتيجيّة خيالية، مدى تلاحم الأهالي فيما بينهم من حيث المسكن والجوار حتى تمثلها فقرات في عمود فقري، كل حلقة فيه تحاذي الأخرى في انسجام وترتيب وتعاقب وتكامل ضمانا لاستمرارية البقاء. فالقرية في هذه الآونة الحرجة من تاريخ الجزائر، تستدعي ذلك التآلف والتّلاحم والتآزر بين سكّانها لمقاومة ظروف تاريخية وطبيعية صعبة، كما يُقاوم الجسم مرضا خطيرا فوردت الصورة رائعة رغم بساطتها.

وعن بعض الأنهج قال صاحب الرواية: « النهج ضيّق حتى صار وكأنّه في سجن من حجارة إنه يختنق لولا أنه ينفتح حينا على اليمين » ص14، فصورة التشبيه

(1) عبد الملك مرتاض، نظرية النص، ط2، دار هومة، الجزائر، 2010، ص 109.

أسقطت على الدّرب، فتخيّله الروائيّ مكانا في قبضة الحجارة والتي هي سجن، والأكيد أن الصورة تترجم ضيق المكان في تضاريس القرية، هكذا هي الدّروب، لا يفسح المجال للمرور فيها بأريحية، ممّا جعلها دوما محلّ نزاعات وشكاوي لا تنتهي وذلك مدعاة إلى تعكير ولو مؤقت للعلاقات الاجتماعية بين السكان والأهالي.

وقد نتساءل هنا لماذا استخدم الروائيّ "مولود فرعون" لفظة «النّهج» بدل الدّرب فالتّسمية الأخيرة هي الأقرب إلى واقع القُرى في هذه الجبال، لضيق الممرّات وصعوبة المسالك، إذ أنّه عادة ما تُطلق تسمية النّهج على طريق واسع أو مكان يوحي ببعض من حياة المدينة، أو أن هذه الأخيرة ربما استهوته أثناء دراسته بها لسنوات، ممّا رسخ في ذهنه هذا المصطلح.

وفي مشهد لغويّ مجازيّ آخر: « إنّ أمّي ألفت الآلام والصّمت، إنّها تشبه شجر البلّوط... الذي ينبت في أطراف الطّريق ويصرّ على الإنبات » (ص112). فلقد ورد تشبيه رائع، جسّد لنا المؤلّف من خلاله وبخياله إصرار الأمّ وتحدّيها المحن، شأنها في ذلك شأن شجر البلّوط الدّائم الورق والذي لا ينحني لأهوال الطّبيعة. والجامع بينهما الثّبات والقوّة في البقاء والنّماء والعطاء، فالصّورة التقطت وبكل بساطة من الحياة البسيطة للقرية، وهي من وحي الطبيعة ودون تكليف، إنه مشهد يراه القروي يوميا في أحضان المكان، بل ويتعامل معه في حياته الاقتصادية.

وفي صورة أخرى: « إن عمل الصّوف يشبه عمل النّمل» (ص67)، عمد الكاتب إلى استحضار طرفيّ التّشبيه من مكوّنات القرية. فالصّوف حرفة القرويّات والنمل من محتويات المكان، فكان وجه الشّبه بينهما العمل الجماعيّ والإصرار على الأداء والاتقان أيضا. وكلا العملين يحمل دلالة استشرافية، فالصّوف تنسج منه الألبسة لمواجهة الشّتاء القارس في تلك الجبال. والنّمل يدّخر الرّزق لنفس الحاجة، هكذا تجلت إحدى الصّور الشّعرية التي تلاعب بها خيال الرّوائيّ "مولود فرعون" في تتبع جماليات الأجزاء ورد الوصف في قوله: « وجهي مخترق بخطوط طويلة، عيناي حمراوان جفناي منتفخان...» فالقرية فعلت فعلتها في أجسادهم وتركت بصمات الوحشة والقساوة والخوف، ممّا يجعلهم يجنحون إلى التّجمّع والجوارية إن كان على مستوى المساكن أو

على مستوى الحقول، أو في قطع الأرض وحتى في «تجماعت» حين يلتقون ويتدارسون شؤونهم، فالإنسان مدني بطبعه على رأي العلامة ابن خلدون.

وفي مقطع وصفيّ آخر: « عندما اجتمعوا للعشاء، كل واحد منهم أدرك الفراغ عندهم انطباع أن العائلة صارت صغيرة أكثر من الأمس لوجود الرجل الشاب الذي يساوي لوحده ثلاثة أو أربعة أشخاص » (ص161-162). ففي هذه المجازات اللغويّة ورد قوله اجتمعوا للعشاء فالعلاقة محليّة أي اجتمعوا في المكان الذي حلّ به العشاء وفي إدراكهم للفراغ كاستعارة مكنيّة، فمن خلال هذا الطرح البياني تقرّبت لدى القارئ صورة القرية التي ما فتئ أهلها يتجمّعون، فالفراغ موحش والمكان يُسعد أيضا بأبنائه وينبذ الفراغ، فكأنّ بالبيت يتحسّس خروج بعض ذويه، إنّه هاجس المكان، « فكلّ مكان يشكّل في حدّ ذاته موضع استقرار شخصيّته فيه، يندمج ويحسّ بانتمائه إليه فهو مكان مفتوح أليف وفي الطّرف النّقيض نجد عداء واضحًا لمكان ما كالسّجون والأقبية»[1].

فهكذا تنسج علائق متينة بين الفرد والجماعة بمكان معيش، حتى يبدوان جسما واحدا، والمؤلّف النّاجح يستطيع بفنّه أن يفعّل تلك الصّورة حين يرسمها بالكلمات ويحيلها إلى وصف رائع، فيوهم القارئ بواقعية الأحداث فعلا.

(1) محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، المتخيّل الروائي، مرجع سابق، ص 147.

ثالثا: رواية «يوميات بلاد القبائل» لـ "مولود فرعون".

لقد لاحظنا ونحن نعيد تصفح هذه الرواية من حيث الأسلوبية أنّ الكاتب وظف مصطلح القرية في أكثر من موضع ربما تجاوز ذلك أربعين مرة، وإن لم يذكر القرية صراحة فإنه ذكر بعض مؤشراتها ومحتوياتها ومؤثثاتها وكان ذلك رائعا، وسنورد بعض الشّواهد الدّالة على ذلك:

- لم أكن ممّن يحملون أيّة ضغينة **لقريتهم**. ص07. ← التعلق بالمكان.
- تعلم **قريتي** بأنّني تغرّبت كثيرا. ص07. ← حسرة على المكان.
- كانت **قريتنا** شديدة الحساسية. ص08. ← نبض المكان.
- وكان **للقرية** مئات العيون. ص10.
- إن **قريتي** تغمرني بعناية خاصة. ص 11.
- قد تكون تجماعت في مدخل **القرية**. ص17. ← تأطير المكان.
- معلم **القرية** يعيش بين ذويه. ص 132.
- وستجد نفسك مرغما.. وأنت تغادر **القرية** مجددا. ص 09.
- إنه من **القرية** سوف يشعر بالراحة. ص 133.
- إن معلم **القرية** موجود بالفعل وليس شخصية افتراضية. ص 133. ← بوادر العلم.
- هناك مكان قريب من **القرية** ملك للجميع. ص129.
- لأن الحلم قد يغادر القرية وينتقل **للقرية** المجاورة . ص 49.
- جميع من في **القرية** يشغله مشكل الحطب. ص98. ← دفء المكان.
- إنّ أفراد **قريتنا** لم يحلموا هذا الحلم . ص 49.
- عقد اجتماع **للقرية** من أجل تمشرط. ص50. ← قداسة العادات.
- يتهيأ لنا أن **القرية** كلها قد خرجت مرحة للاستجمام. ص 115. ← عبق المكان.

- فتراهم يتصرفون كعموم الناس في **قرية** يحتاج كل واحد منها إلى التسامح. ص 34.
- لا يوجد في **القرية** إلا أسرة واحدة. ص 35.

وسنكتفي بهذه الشّواهد المحمولة للمكان (القرية) صراحة، بغضّ النّظر عن ذكر المؤلّف لأشياء القرية ومحتوياتها أو قرائن لغوية تدل على القرية دون ذكر المكان تحديدا، ونحاول ذكر أمثلة عن ذلك:

- **تجماعت:** وهي هيكل تنظيميّ غالبا ما نجده في القرى، يؤسس على قناعة وتراض وإجماع بين سكّان القرية عمومًا ويضم عادة الأنضج سنّا، يتّسمون برجاحة العقل وسداد الرأي، وهم ذوو التّجربة في أمور الحياة، فيتولّون تسيير شؤون القرية تحت سلطة قوانين عرفيّة، توكل إليهم مهام متعدّدة كفضّ النّزاعات بين الأفراد أو الجماعات، أو التّفكير في شؤون القرية أو في تشجيع روح التضامن بين الأهالي في السّراء والضّراء. واللفظة ثجماعت تدلّ على الجماعة وعلى الاتّفاق ولمّ الشّمل وتوحيد الرّؤى وإن تشعبت الأفكار وتعددت الأهواء وتضاربت المصالح.

- **تمشرط:** وتُسمّى أيضا الوزيعة وهي يوم شعارها اللّحم للجميع، غير أنّها تأخذ أبعادا أخرى، لتصبح فرصة لتلاقي أهل القرية المقيمين أو غير المقيمين فيها، وفي هذا اليوم الحاسم تجمع الأموال المتبرّع بها، في هبة تضامنية رائعة يستوي فيها الغنى والفقير ومن جهة أخرى يساهم الجميع في ذبح الثّيران التي تحضر سلفا في هذا اليوم لتذبح ويوزّع لحمها على أنصاب حسب تعداد كل عائلة، توضع على شكل كومات يصطلح عليها «ثخامين» أي البيوت، في جو حميمي مفعم بالسعادة والفرح والحيوية، كاد أن يكون عرسا، وفي ختام هذا المحفل القرويّ تطلق الأدعية لله تعالى لأن يرزق الأرض والعباد ويشفي المرضى ليعود المغتربون سالمين، يجري كل هذا في جو حماسي تتعالى فيه أصوات الصغار والكبار بينما تعكف النساء على إعداد لوازم الطهي واستقبال اللحم.

ومن المظاهر الحياتية الأخرى التي تطبع المكان وتوحي بأجواء القرية:

- **العجوز وحمل الحطب:** « جميع من في القرية يشغله مشكل الحطب» ص 98. إن اقتناء الحطب من أهمّ انشغالات سكّان القرى، فهو الوقود الدّائم في غياب وسائل الطّبخ والتّدفئة في هذه التّضاريس الوعرة، وغالبا ما تُسند مهمة حمله، ونقله إلى الدّار أو جوانب الدّار، على ظهور النساء عموما « لكن العجائز هن اللواتي يتكفلن به » ص 98. بعد أن يكون الرّجل قد قطعه من الأشجار اليابسة وتركه حزما على الأرض لتتولّى المرأة كما أسلفنا نقله ووضعه أكواما في حارة الدّار، أو فيما يصطلح عليه أعشيو باللغة المحلية، وحين يكثر، ترى المرأة جيئة وذهابا وهي تحمل هذا الحطب دون تردد أو إظهار العياء وفي عينيها هول الشتاء.

- **أعشيو:** هذا، بيت تقليديّ يُصنع غالبا من صفائح الحديد القديمة، ليوضع فيه الحطب والتّبن وبعض أدوات الفلاحة كالمحراث والفؤوس والأكياس والحبال وغير ذلك من مستلزمات الفلاح القروي.

ويدّخر الحطب لأيام الشّتاء، شأنه شأن الغلّات والأرزاق والمؤن الأخرى، وكلّما كان وفيرا اطمأنّت العائلة وضمنت دفء الشتاء القارس في أريحية لا توصف وأمل عريض في قضاء أيام الشتاء الطويلة بأقل عناء.

ثمّ أشار الكاتب إلى: **الرّاعيات**، ثم **المنهل، حبات التين، الينابيع، المعزة، الرعاة، سلة الروث**، ثم **الحقول، الفلّاح، الدّروب**، وذكر «**تيغيلت**» هذه الأخرى مصطلح محلّي يوحي بمكان مرتفع في القرية، يشرف على المنخفضات (ص128) يتموقع في الأعالي، تصلح أراضيه للرّعي عموما، وهو في فوهة الرياح باستمرار وكان هذا المكان رمز القوة والانتصار لدى الأهالي، إذ كانوا يشرفون منها على رصد العدو الفرنسي وتتبع حركاته.

هذا ونجد في ثنايا الرّواية نقلا صريحا لواقع السّكان القرويّين، تعمّده الكاتب مباشرة، لكنه أيضا كثيرا ما يلجأ إلى النّقل المتخيّل في كثير من المقاطع، عبر قنوات التعابير المجازية والتي تترك في نفسية القارئ صدى كبيرا يجعله وكأنّه زار المكان أو

لامسه أو رآه، كقوله: « تعلم قريتي بأنّني تغرّبت كثيرا وعشت بعيدا عنها... تتلقّاني في كل مرة بلقاء غاية في البساطة، مثلما تتلقّى أبناءها الذين غادروها صباحا وعادوا إليها من الحقول مساءً »... (ص07)، ففي هذا المقطع نلاحظ تشخيصا للمكان (القرية) بل وأنسنته، ففي المجاز اللغوي (تعلم قريتي) ذكر المكان وقصد أهله، تتجلّى الصّورة الشعرية الرّائعة، فالقرية تحسّ وتشعر وتتألّم وترفض وتعاتب، كما تحنّ إلى أهلها حتى أن المكان يبدو شخصا قائما بذاته.

وقوله: « كانت قريتنا شديدة الحساسية ولعلّني أصدر هنا حُكما قاسيا عليها ولكنني في واقع الأمر أخمن أنها كذلك » (ص08)، إن هذا المجاز يفصح أيضا عن ذلك التجاوب الحاصل بين الإنسان والمكان، فكلاهما يعيش بالآخر وللآخر. فهكذا تظلّ شخصيّات الرّواية متعلّقة بالأمكنة الدّافئة المحتضنة لآلامهم وآمالهم رغم ما يصدمهم منها من قروح وأوجاع، وظلّ هذا الارتباط الروحي يجسّد أيضا صعوبة الإنسان القرويّ أن يغادر قريته بسهولة وقد أمضى فيها طفولته وشبابه، رغم أن الرّغبة في التّجدّد تظل مبطّنة في نفوس العديد من الشباب خاصّة، طالما يسمعون بالهجرة إلى خارج الوطن.

وحينما نتكلّم عن شخصيّات الرّواية نجد في مخيالها كوامن وطموحات لم يسع المجال لترجمتها واقعيّا: « فلقد كان البطل مسكونا بتأمّلات باطنية تعكس رغباته الدّفينة في البحث عن ملجأ آمن وتوق دائم إلى احتضان الأمان... دلالة على ارتباطه الجذريّ بماضيه حيث الطّفولة والأمان »[1]، ومن الأكيد أنّ دفء وأمن وراحة بال الساكنة القروية تتجلى يوميا على أرض الواقع، في جنبات قراهم بين ذويهم وأهلهم رغم المعاناة وشحّ الإمكانات، ريثما تكبر آمالهم وتنضج وتستحيل إلى أحلام ثمّ إلى الرّغبة في تحقيقها رغم قلة التجربة تبقى تلك الآمال عند هؤلاء عريضة في الوصول إلى مبتغاهم، وفي مقدمتها الهجرة إلى ما وراء البحر، ومن هذه الشخصيات الفاعلة في هذه الرواية: **العجوز** وقد أحسن المؤلف وصفها ووصف ظروفها وهي بين مخالب الشقاء، فمن وصف جسدها المنهك إلى وصف لباسها « إن تلك العجوز التي تلتقون

(1) محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، المتخيّل الروائي، سلطة المرجع وانفتاح الرؤيا، مرجع سابق. ص 105.

بها مرتدية جبة دون أكمام وفوطة باهتة الألوان من شدة الغسيل هي صورة الشقاء ... واهنة العظام قد تفلق كليتيها من ثقل الحمل وقد تضمّ شفتيها ليصبحا أخدودا مستطيلا يضاف إلى الأخاديد العمودية في الوجه الشاحب من ثقل السنين »[1]، لقد وفق الكاتب في وصف حال العجوز حتى وكأنها أمام القارئ ماثلة أمامه، وأكثر من ذلك قد يذكره هذا الوصف بأمه أو جدّته وهما ليستا بعيدتين عن تلك العجوز الواردة في النص الروائي.

الراعية: وصفها الكاتب أنها تحب مهنتها هذه، كما تحب الماشية التي ترعى بها راضية بقدرها، مطمئنة البال، صبورة، متحدية، قوية بمعنوياتها خاصة. « إن المعزة بالنسبة إلينا ليست بقرة الفقير ولكنها معزة الجميع، إن المعزة لا تضايقنا في المسكن»[2]، ونلاحظ أن لغة الراعية تناسب مستواها لفظيا، لكنها تنبئ عن نضج في الأفكار فما أرحب صدرها وأوسع بالها! إنها صورة للإنسانية الحقة، هكذا ارتأى المؤلف تقديم صورتها للقراء. وكأن بهذا المؤلف يدعوهم إلى تبني هذا الفكر الإنساني الخلّاق، سيما في هكذا بيئة قاسية جغرافيا واجتماعيا واقتصاديا، فمن خلال لغة هذه الشخصيات، نفهم لغة المؤلف التي تعمّد أن تكون مناسبة للبيئة الريفية القروية وهي الأقدر على نقل محتويات المكان، كقوله:

ثاجماعث: وهي مكان يجتمع فيه سكان القرية يوميا، لمناقشة أمور القرية وحل المشاكل المطروحة، ولتبادل أطراف الحديث في السياسة أو في غيرها وهي خاصة بالرجال دون النساء.

ثاجماعث أوفلا: تعني الأعلى وهي كلمة أمازيغية متداولة في هذا المكان.

تمشراط: وهي الوزيعة، وفيها تشترى العجول وتذبح ويقسم لحمها إلى كومات صغيرة توزع على سكان القرية تبعا لعدد أفراد كل العائلة، وغالبا ما تكون في المناسبات

(1) مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، مصدر سابق، ص 100.

(2) المصدر نفسه، ص 102.

الدينية أو تضرعا لله أن يرزق الأرض والبعاد بالمطر إذا طال هطوله، وفي هذا اليوم أيضا تكبر فرحة الجميع بأكل اللحم الذي عزّ حضوره لدى أغلبية الأهالي.

ثيغيلت: وهي مكان مرتفع في القرية، تعادل الهضبة أو القمة في الجبل، وقد أصرّ القرويون على بناء سكناتهم في مثل هذه التضاريس، بحثا عن الحرية ورفضا للرضوخ والانحناء، فالمكان يذكرهم دائما بالعلياء والتحرر ورفض السيطرة.

أقُوذُو: ويقصد به مزبلة القرية، هكذا اصطلح عليه، وهو غالبا ما يشوه منظر المكان ويسيئ إلى الطبيعة العذراء، هذه عينة من الألفاظ التي تدور على ألسنة القرويين وكل لفظ له ايحاءاته ودلالاته، ألفاظ يتقنها الجميع سليقة وفطرة، وهي قاموس لغوي خاص بمثل هكذا مكان، يترجم محتويات واقعية تحيط بالساكنة بل هي جزء من حياته اليومية.

والملاحظ في هذه الرواية أيضا أن السرد والوصف هما السائدان كأنماط تعبير وبدا الحوار قليلا جدّا لأن المقام قد لا يتطلبه كثيرا، وهذه بعض من مقاطع للسرد وللوصف كما وردت في النص الروائي:

السرد:

- الراعية تحب معزتها كثيرا. ص 102.
- إن المعزة لا تضايقنا في المسكن كثيرا. ص 102.
- كاتب هذه السطور معلم قبائلي قضى في سلك التعليم خمس عشرة سنة. ص132.
- وفي كل يوم ثلاثاء يعقد حداد الحدوات ورشته تحت شجرة من أشجار البلوط ص 80.
- إلى المنهل الصافي تتجه بناتنا للنزهة وكلهن سعادة. ص 111.
- ثاجماعث مكان مخصص للرجال ص 17.
- يكون الخريف مرادفا للدرس والحصاد. ص 124.

- إنها ملك عام لا حيازة فيه الأمر. ص 17.
- تُحترم المسنات في الينبوع. ص 116.
- إن الرجال لا يتوجهون إلى الينابيع هذا ما حكمت به القاعدة، قاعدة عرفية متواضع عليها تنقل من جيل لآخر. ص 114.
- وترافق المعزة في بعض الأحيان الأم عندما تذهب لإفراغ سلة الروث. ص105.
- سيعقد اجتماع يوم غد من أجل توزيع الأعباء. ص 52.

الوصف:

- إن البنات ألطف من الذكور، إنهن لسن جريئات ولكنهن دقيقات. ص 107.
- إن تلك العجوز مرتدية جبة باهتة الألوان من شدة الغسيل، واهنة العظام وقد تضمّ شفتيها ليصبحا أخدودا مستطيلا. ص 100.
- تزدحم عشرات الخراف مقرونة صفين صفين، رؤوسها متقاطعة. ص 86.
- جلود جديدة ملطخة بالدماء والتراب بقرونها الهزيلة. ص 86.
- ويعود البائعون والمشترون إلى ديارهم فرحين أو متذمرين. ص 87.
- ... لذا فإن اللحم يعدّ بالنسبة إلينا شيئا كماليا. ص 89.
- ...فهي (أي القرية) تستقبل العائدين إليها ببرودة وبلا اكتراث. ص 08.
- كانت قريتنا شديدة الحساسية. ص 08.
- تأمل بذلتك الجميلة. ص 09.
- وجدت أزقتي ضيقة ومتسخة. ص 10.

هذه بعض من مشاهد الوصف والسرد، وظفها الروائي لينقل إلى القارئ طبيعة المكان وحيثيات القرية من محتوياتها وظروفها ومؤثثاتها، إلى جانب بعض من مقاطع الحوار التي كشفت عن طبيعة الشخصية الروائية، ومن بعض الحوار:

- إن قمحك ليس جيدا.
- ردّ عليه صاحب القمح قائلا: إن السوق واسع ويمكنك أن تختار منه ما تشاء. ص 77.
- أعلم، آخذ منك مكيالين.
- أنا أبيع وأنت تشتري
- ثم قال له: أفضل العملة الورقية. ص 78.
- ادفع لي دون مناقشة
- صاح شاب من الخارج: بل يهمنا. ص 70.
- أجابه أحد الوجهاء: اغلقوا أفواهكم. ص 71.
- استأنف الرئيس قائلا: هو على صواب.

وخلاصة القول وجدنا في هذه النماذج الثلاثة لـ "مولود فرعون"، أن لفظة القرية وردت في أكثر ما يربو عن مائة مرة، ولفظة البيت أو المنزل أكثر من مائة وخمسين موضعا كذلك، وهذه الفضاءات كلها كانت وستبقى محل اعتزاز القرويين، إذ تظل أفئدتهم معلقة بها، فرغم قساوة الطبيعة وعنف الجغرافيا، استطاعت نفوسهم أن تبث الجمالية على هذه الأمكنة، وتجسد ذلك في الشخصيات التي تشغلها على الدوام، فمن خلال هذا التشابك اللغوي بين المكان والشخصية والظروف المحيطة، يتركب النص الروائي وينمو « النص هو عملية ...إنه تلازم باللغة بوصفها نظاما »[1] فلا شك أنّ النصوص تفهم من لغتها ألفاظا وعبارات وصور فنية من وحي البيان والبديع، غير أنّ على القارئ أن لا يكتفي بالقراءة، بل عليه أن يمارس فعلها ليصل إلى أعماق النص فلا يكفي أن تعرف الطريق إلى النص بل الأجدر أن تعرف متاهاته لتكتشف جمالياته وإن أرهقك، تلك هي لذة الفهم وهذا ما تنشده الشعرية في مثل هذه الأعمال المختلفة التي تعطي للنصوص أبعادها الحقيقية، فإذ ذاك تتحقق الغاية المرجوة منها، فتحدث

(1) زتسيسلاف واورزيناك، مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، تر: سعيد حسن بحيري، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، 2010، ص 62.

نشوة القراءة التي أكيد أنها تتجلى في ذلك التطابق بين الواقع والأمكنة والأزمنة والشخصيات، يضاف إلى ذلك كله عمل الخيال، الذي يضيف على الواقع نكهة خاصة فينصهر الخطاب في علامات لغوية لتحقق المقصد والغاية.

رابعا: رواية «على جبال الظهرة» لـ "محمد ساري"

وإذا انتقلنا إلى أنموذج آخر وهو رواية «على جبال الظهرة» للأستاذ الروائي "محمد ساري" نجد المكان حاضرا في عمله، سيما القرية، إذ يتراءى للقارئ انطلاقا من العنوان ما يوحي بالقرية «جبال»، فهذه اللفظة تحيل القارئ قبل التّوغل في القراءة إلى النزول في تضاريس وعرة، ومنحدرات، ومرتفعات، وتلال، وسفوح، وهضبات وبالأحرى ريف ومداشر وقرى، يصارع أهلها قساوة المكان ويتّحدّون الطّبيعة القاسية بكلّ صبر وأناة ورضا بقدرهم، فلا جغرافية المكان تثنيهم ولا ظروف البلد المفروضة في تلك الآونة الشّرسة من تاريخ الجزائر استطاعت أن تحدّ من طموحهم وتهزّ تشبثهم بالمكان مهما قسا وتعنّت. « يغطّي الضباب قمم جبل سيدي (أمحمّد وعلي) في هذه الرّوابي الجرداء... بلغ فصل الشتاء ذروته والجوّ مريع لا يرحم »[1]، ثمّ يقول أيضا: « مازالت نيران الحرب مشتعلة بل هي في أشدّ اضطرامها وليست رداءة الطقس هي التي تؤخّر المجاهدين أو تمنعهم من الاستمرار في المقاومة لتحرير الأرض »[2]، هنا تلتقي قساوة الطبيعة بقساوة المستعمر، لكن رغم ذلك كله، كان الإصرار على البقاء من طرف هؤلاء القرويين.

وكغيره من الرّوائيّين في هذه المرحلة التاريخية، عمد صاحب "على جبال الظّهرة" إلى توظيف لفظة القرية في عديد المواقف والشّواهد، وسنورد بعضا منها سواء المذكورة صراحة أو ما يوحي بالمكان أي (القرية)، ولاحظنا أن إيحاءات المكان أكثر من ذكره صراحة.

- كانت تسكن في **قرية** صغيرة. ص13.
- بعد هذه الكارثة رحلت من**قريتها**. ص14.
- يقع محتشد المعتقلين على غرب **قرية** مناصر. ص18.

(1) محمد ساري، على جبال الظهرة، مصدر سابق، ص 07.

(2) المصدر نفسه، ص 07.

- في هذه **الروابي** الغضارية الموحلة يركب رجل حماره وينحدر عبر درب وعر. ص08.
- وجدوا أنفسهم على قمة تلّ في **سفح جبل** يقع **كوخ**. ص11.
- عبر الدّرب **الجبليّ** الملتوي. ص08.
- تنبعث من **الكوخ** رائحة نتنة، رائحة **الزبل والروث**. ص11.
- يقطر الماء من **السّقف**. ص11.
- يخلو الكوخ من أيّة نافذة أو كوّة. ص12.
- لو تصعدون إلى هناك، إلى قمّة الجبل. ص16.
- روت الأمّ أخبار الدّوار والمداشر المختلفة. ص21.
- تقع البيوت المتراكمة في قمّة رابية. ص101.
- عندما وصلت الثّورة إلى جبال الظّهرة. ص24.
- انبلج الفجر على هذه الجبال النائية. ص101.
- تعرف جيدا الطريق المؤدي إلى قمة الجبل. ص16.
- أي طريق آثار ودروب ضيقة صنعتها الماعز والحيوانات البرية التي تعيش بمنحدر الجبل. ص16.
- مكثت هناك مستأنسة بوحدتها تعيش حياتها الشقية في هذه الجبال الغضرية. ص17.
- تتصلب القرابى بسقوف مغطاة بالديس وحيطان مطلية بالطين المختلط بالروث. ص 7-8.
- يستحسن لي أن أرعى الغنم باكرا. ص 103.
- ينحدر الغنم في الدرب .. يترك وراءه خيوطا من الغبار. ص 103.
- الطريق منقطع في أيام المطر والثلوج. ص 104.

- إلى متى أبقى في هذه الجبال الجرداء. ص 104.

هذه عينات من دلالات المكان وهي كثيرة في ثنايا الرواية، غير أنّ لفظة القرية لم ترد بكثرة، لكن ما يوحي لها أكثر، فذكر الجبال، التّلال، الهضبات، الدّروب الأودية، الرّوابي، الأكواخ، رائحة الرّوث، الدّوار، المداشر، الماعز، الغنم، القرابى... ولعلّ هذه الألفاظ المشحونة بالمكان أو بمحتوياته ستكون أكثر تأثيرا على القارئ مقارنة بلفظة القرية لوحدها، فالظروف المحيطة بالمكان أكثر تأثيرا على المكان نفسه في كثير من الأحيان.

وظل السرد سيّد الموقف في هذه الرّواية أيضا كسائر الأعمال الأخرى، ومن خلاله أطلعنا الكاتب على الواقع المعيش للقرويّين، إذ يعانون من وطأة المكان وسوء الحال ورغم ذلك فلقد تشبّثوا بهذه الفضاءات المفتوحة حتى النخاع، ومن المقاطع السّردية الهامة نذكر بعضا منها:

- سلّم الجدّ وجلس قرب الموقد.. كان يرتعش من البرد.. أزال عنه القشابية الثّقيلة المبلّلة. ص12.
- يقطع عشرين كيلومترا كل صباح ليصل إلى المزرعة. ص 114.
- يخلو الكوخ من أية نافذة أو كوّة. ص12.
- الغرفة مظلمة ما عدا نور خافت ينطلق من جمر. ص12.
- يقع محتشد المعتقلين على غرب قرية مناصر. ص18.
- عرفت آنذاك أن الجيش الفرنسي قد وقع في الكمين. ص24.
- صعدت النّساء على الدّرب متمايلة تحت ثقل أواني المياه المبلّلة. ص121.
- عمل العجوز حتى أنهكت قواه ولم يقدر على مواصلة العمل. ص 48.
- كانت القهوة تغلي فوق المواقد في كوز قديم. ص15.
- جلست الوكيلة توقد الجمر بروحة من الدوم اليابس. ص 15.

- يصل الماء إلى ركبتي الرجل... يتبع الحمار خائفا من الهدير ومن فوقه الزوجة التي استسلمت للدعاء. ص 11.
- تتصلب القرابى بسقوف مغطاة بالدريس. ص7.
- في الصيف يقوم السكان بإصلاح ما تحطم من البيوت. ص 114.
- هدر المياه مخيف. ص 10.
- كانت المرأة الهرمة تنتظرهم عند عتبة الكوخ. ص 11.
- خديجة المسكينة .. تعمل وتكدّ كالأخريات. ص 114.

ففي هكذا مواقف سردية، يوقفنا الروائي على معالم حياة القرويين، ليس من الجانب الإجتماعي فحسب، بل حتى من جوانب العمران والتهيئة، كأن يذكر خلو الكوخ من النافذة أو تعدد الكوات في جدرانه، باعتبارها مخازن صغيرة، توضع فيها شيئيات النساء سيما العجائز منهن.

وبين ثنايا السرد تتسلل مشاهد الحوار بين شخصيات الرواية، وبفضلها أيضا تتقرب إلينا صورة القرية وهموم ساكنيها، وما في نفوسهم من آلام وآمال، « فليست اللغة وحدها هي القادرة على التعبير الجميل بل وأنّ الصمت الأخرس كثيرا ما يكون حوارا صامتا »[1].

- الحرية تؤخذ بالعنف والقوة والاتحاد: قال أحدهم. ص52.
- إن عمله هذا حدث فردي لا يجدي كثيرا. ص52.
- لعله قد التحق بالجبال. ص52.
- إنه هرب هذا هو المهم. ص52.
- ليتني كنت في مكانه. ص52.
- تفضل ماذا تنتظر، أهرب. ص52.

(1) عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص 80.

- ليست العملية سهلة بهذه الصفة. ص53.
- أتذكر جيدا يوم مجيئنا إلى الجزائر.
- اذهبوا إلى مراقدكم. ص 53.
- أين هي هذه المراقد وهذه الأسرة. ص 53.
- هذه أول وآخر مرة، يامونكبيتان.. سنشدد الحراسة.
- نتمنى ذلك.
- هل اكتشفتم من ساعد العجوز في عمله؟ ص 56.
- قام بها وحده.
- سكت.. ولكنه تابع تخيلاته وقال: لا يستطيع الإنسان أن يقف ضد مصيره فهو حتمي. ص60.
- صباح الخير يا عمي أحمد. كيف حالك؟ اسمع راك معروض للعرس. ص120.
- وأجاب ... لكن يا عمي موسى. ص 121.

ففي هذه العينة من الحوارات، تتجلى لنا بعض رغبات وهموم وانشغالات القرويين بين الرغبة في الثورة على الأوضاع السائدة وبين الاستسلام والرضا بالقضاء والقدر والتمسك بالمكان والأرض غير أن الوعي يكبر شيئا فشيئا، ومع الزمن سيتحول إلى وعي ثم فعل.

- يجب أن نتحزم ونحارب حتى آخر أنفسنا. ص46.
- نجح الفيتناميون في إخراج فرنسا من بلادهم، فلماذا لا نستطيع نحن بدورنا أن نطردها؟ ص 46.
- كان الفيتناميون أقوى واستحقوا الانتصار. ص 45.

وهناك بالتوازي حوارات تنبئ عن الأوضاع الاجتماعية:

- صباح الخير يا ولدي، استيقظت مبكرا. ص102.
- وفي مقطع آخر: سأطهو لك طعاما تأكله يا عمي أحمد. ص123.
- سكتت والابتسامة لم تغادر ثغرها. ص123.
- لا تتعبي نفسك، الجو ساخن لا يحتاج إلا إلى الأكل البارد. ص123.
- اذهب عند أمك تغسل لك وجهك المتسخ. ص113.
- أجاب الطفل: ذهبت أمي إلى البئر. ص 113.
- لكن قل لي أخرجتم من المدرسة؟ ص103.
- نعم يا عمي أحمد.. قال لنا المعلم: لا تعودوا قبل نهاية الصيف. ص103.
- الثورة الزراعية مليحة يا المولود. ص134.
- نحن فقراء يا عمي أحمد كيف لا نحب الثورة الزراعية. ص134.

إجمالا إنّ هذه الحوارات تجنح إلى العفوية والتلقائية والبساطة، وتنمّ عن تواضع القرويين في عيشهم وهشاشة تفكيرهم في هذه المرتفعات والمنحدرات، حوار ينبئ عن تلاحم أفراد الأسرة الواحدة في هدوء وسكينة وفي بعضها نقرأ ذاك التناغم بين الرجل والمرأة في عديد المواقف رغم ما لمسناه من خشونة طبع الرجل إزاء المرأة (لا تتعبي نفسك) حوار يكشف اعترافا بالآخر، اعتراف بجميله، بأتعابه اليومية على امتداد النهار داخل البيت وخارجه، فهذه العبارة تثلج صدر القارئ الذي ألفى المرأة في القرية دائما في عين الإعصار. ثم أليس من الأجدر على الرجل والمرأة أن يتعاضدا على تحملّ محن الحياة وهموم المكان وصعوبة الحصول على الرزق في هذه التضاريس الصعبة إضافة إلى الظروف السياسية التي تعصف بالمكان والعباد في هذه الآونة.

ولا تخلو لغة الكاتب كذلك من مقاطع الوصف هذه الآلية اللغوية التي تلازم السرد، لنقل واقع القرية، وهذه بعض العينات منه:

- يضحك بكلامه مهما كان **جدّيا** أو **مأساويا**، شاشيته **الحمراء** التي إنقلب لونها إلى **سواد** لقدمها، زادت من هذا الشاب البدوي **الخشن**. ص45، 46.
- من المستحسن لنا أن ننام نحن متعبون. ص46.
- ...وسافر ببصره بين الأصدقاء **الجالسين** في صمت **متمددين** على الإسمنت **البارد**، أعاد بصره إلى المطر **المتهاطل** والرياح التي قوّت جلبة الأغصان المتحركة. ص24.
- أتذكر جيدا ذلك اليوم **المشؤوم**،...أه ياله من يوم **مظلم**... لأنه أقعدني هنا **مكتوف** اليدين، عوض أن أكون وسط الإخوة في الجبال كعضو حي. ص24.
- ورغم ذلك لم أكن خائفا. ص24.
- وجدت زوجتي مستيقظة تنظر في قلق واضطراب. ص24.
- ... آثار ودروب ضيقة.. بين أشجار الصنوبر والأدغال الشائكة والصخور الضخمة. ص16.
- وبسبب عدم وجود الملابس والأغطية الكافية تستنجد بالموقد الفحمي الذي يساعدها على احتمال مرضها المؤلم... استسلمت للأمر واعتبرته عقوبة من الله لذنب ارتكبته في يوم ما. ص 14.
- عاشت كل حياتها متلهفة، مظلومة. ص14.

ففي تتابع النعوت وتراصف الأحوال نقرأ التعاسة التي تلف المكان وفي داخلها قرويون صابرون ثابتون، وقانعون أيضا.

وفي بعض المواقف يستوقفنا حوار داخلي لشخصية من شخصيات الرواية، كأن يكلم الواحد نفسه بحثا عن الآخر أو تنفسا عن مضائق الحياة أو هروبا من واقع مرير أو تحيينا لحاضر مثقل أو من باب استباق النظرة إلى مستقبل مجهول.

- أنتم فلاحون صغار.

- الدولة تساعدكم، تعطيكم القروض. ص123.
- كأن لدينا مزارع المتيجة نزرعها بالتراكتور[1] ونحصدها بالمشينة. ص123.
- آه على هؤلاء الطلبة الطيبين الجاهلين لأوضاعنا واحتياجات هذه الأرض الجرداء. ص123.
- كيف يمكننا أن نحرث بالتراكتور في منحدرات تصعب للثيران نفسها. ص123.
- أين هو الطريق. ص124.
- هم أنفسهم وصلوا إلينا مشيا على الأقدام أوقفوا السيارة في أسفل هذه الجبال. ص124.
- لولا ابني الذي يعمل في الفاكه لما ذقنا هذه الطماطم. ص125.
- هذه الأراضي تفتقر إلى الماء. ص125.
- لا نغرس إلا البصل. ص125.

هذه عينة من همسات يطلقها رجال القرية دون أن يتفوهوا بها، نقرأ فيها همومهم وهموم السكان كلّهم، بعضها يصطدم بالواقع المرير وباستحالة إحالتها على الواقع فالرجل المتحدث هنا تلفه الحسرة وهو يتمعن في كلام الطلبة المتطوعين، كلام لا يعدو أن يكون أضغاث أحلام وتسويفات ذات طابع سياسي، فكيف لجرارة أن تصل إلى هذه المرتفعات والطلبة أنفسهم لم يعثروا على الطريق إلى القرية إلا بشق النفس فبهكذا حوارات، تقربت إلينا صورة القرية وصورة القرويين الذين تتقاسمهم انكسارات المكان وخيبات للأمل ومشاريع لم تتحقق بعد أو صعب تجسيدها ميدانيا في ظل انعدام الإمكانات، علما أنّ الوطن لم تندمل جروحه بعد من آثار الاستدمار الفرنسي.

(1) لفظة "التراكتور" فرنسية وتعني الجرار وكذلك "المشينة" فرنسية وتعني الآلة.

وفي لغة الروائي الأستاذ "محمد ساري"، تتشظى عديد المجازات مما منح للعمل الروائي جمالا وتأثيرا، ولعلنا سنعرض أمثلة عن ذلك:

- يحوم الصمت والسكون حوله (استعارة مكنية). ص127. حدث تشخيص للصمت والصورة تلائم سكون المكان.
- اسمع مواويلهم تتحدى التعب والحرارة. (مجاز مرسل علاقة جزئية). ص129.
- انصرف يجرجر رجليه في الدرب. (كناية عن التعب والمرض والكبر). ص127.
- غمرته نشوة منحت له الخفة والنشاط. مجاز لغوي (استعارة مكنية). ص127.
- لا نسمع إلا نعيق الغربان تلف في الفضاء أيام الخريف (استعارة مكنية). ص129.
- بعض الرجال لا يفهمون إلا بالقزول (كناية عن القوة والعنف)... ص129.
- وضع يده على خصره (مجاز مرسل علاقة جزئية أطلق الجزء وأراد الكل)... ص130.
- تنزلق رجلاه في الصندلة المطاطية البالية السوداء (كناية عن الفقر المدقع). ص130. والصندلة نوع من الحذاء.
- علمتني الثورة أشياء كثيرة (استعارة).
- الوقت تغير لا لنعود إلى الجبال نعيش كالوحوش (تشبيه). ص128.
- حفظت الوكيلة الدروب الملتوية واستأنست بها (تشخيص للدروب) على سبيل (استعارة مكنية كان بها إنسان يؤنس به). ص16.
- يبدو الهواء كاللّهيب الناري. (تشبيه). ص127.
- ارتفع صوت أجش يطلب لماء (مجاز مرسل علاقة كلية). ص131.

ولاحظنا أن غالب هذه المجازات حدثت فيها أنسنة المكان وتشخيص أشيائه ومحتوياته، وبهذا الزحم المجازي قرب إلينا الكاتب نغم الحرية ونغم الخبز الذين ظلّ يكتب عنهما بحثا عن نفوس القرويين الثائرة في هذه الجبال والمرتفعات، وهكذا يتحول النص الروائي إلى وثيقة تاريخية أيضا.

« ولئن كان الشعر هو ديوان العرب فإن الرواية الآن هي ديوان الحياة المعاصرة... بل إنني أرى أن الرواية الجيدة قطعة من الحياة أو الحياة نفسها »[1]. ففي هكذا إبداع يتوهم القارئ واقعية الأحداث وإن كان معظمها واقعيا فعلا فباجتماع الواقع والخيال تتولد جمالية النص وشعرية المكان.

ومن جانب آخر استوقفتنا في هذه الرواية بعض الألفاظ وهي في الأصل فرنسية او تركية او اسبانية خرجت عن الاستعمال الفصيح، فأخذت مجرى اللغة العامية للدلالة على مواقف وأمور شتى. ارتأى صاحب الرواية توظيفها هكذا لتقريب الدلالة فأرادها أن تستعمل استعمالا خاما كما وردت على ألسنة الشخصيات الواردة في هذا النص الروائي ورودا شعبيا ونذكر بعضها:

- يذهبون إلى الديانسي. ص132.
- مانوفر. ص132.
- ميزرية كحلة. ص132.
- التراكتور. ص134.
- الحاج بولمحاين. ص133.
- بقينا 6 أشهر دون أن نرى دورو. ص134.
- اشترينا البالات. ص134.
- كل واحد يملك دزينة من الأولاد. ص134.

(1) أحمد فضل شبلول، الحياة في الرواية، قراءات في الرواية العربية والمترجمة، دار الوفاء للدنيا للطباعة والنشر، مصر، 2001، ص 5.

- طبقا من الدوم. ص140.
- لا تحسبها بالمشينة. ص135.
- يعمل تحت تصرفات الباترون. ص27.
- فوجئنا بسيارة الجيب. ص27.
- يتردد عويل النساء داخل عرصة الدار. ص142.
- نصفها يرمى في التوسة. ص153.
- كانت مربعة على الحصيرة. ص159.
- كان العجوز يتمتم بصوت عال: أشش، أش. ص112.
- ظهرت تدروش على الناس منبئة بمصيرهم. ص140.
- قضيت خمس سنوات في الداخلية. ص104.
- وقف قرب شجرة الباكور. ص105.
- أزال عنه القشابية الثقيلة المبللة. ص12.
- تتصلب القرابى بسقوف مغطاة بالديس. ص7.
- من يأتي برومية من فرنسا. ص159.

وسنحاول تحليل هذه الألفاظ حسب سياقها الروائي:

لفظة ديانسي (DNC) وهي شركة وطنية للبناء، الوحيدة التي كانت تشغل مئات الناس (في العاصمة) ولها فروع في بعض المناطق، وساهمت في إطفاء شوكة البطالة زمنا.

مانوفر: وهي لفظة فرنسية (Manœuvre) وتعني العامل البسيط اليومي الأجير والذي يقبل كل الأشغال ولا يجوز له أن يتمرد أو يرفض أو يبدي رأيا ولو إلى حين.

ميزيرية: وهي لفظة فرنسية (Misère) وتعني المشقة والمحنة وصعوبة العيش توحي بالفقر والجوع.

بولمحاين: صفة أطلقت على الرجل المتعود على هموم ومشقات الحياة ومنها المحنة.

دورو: رمز إلى قطعة مالية وتعني القليل القليل من الأجر، لم يعد لها وجود في يومنا هذاغالبا ما توحي عند منحها لأحد بالمهانة.

البالات: وتعني المجرفة وهي كلمة فرنسية وتعني أداة من أدوات العمل اليدوي كالفأس والمنجل ولا تغادر أيدي العمال البسطاء على الإطلاق..

دزينه: وهي لفظة فرنسية (Douzaine) تدل في السياق على كثرة الأولاد وشحّ الموارد وتعني 12 من كل شيء.

الدوم: نبات تسقف بها البيوت القروية، ينمو في الوديان والشعاب، ومنه تصنع القفف أيضا.

الباترون: لفظة فرنسية (Patron) وتعني المسؤول قد يكون في شركة أو في مزرعة أو غيرهما. وتوحى الكلمة حسب الرواية بالاستبداد والفوقية وحتى هضم حقوق العمال في بعض الأحيان.

الجيب:(Jipe) وهي لفظة فرنسية تعني السيارة العسكرية الفرنسية وتوحى بالخوف الذي سكن نفوس الأهالي من جرّاء الاستعمار بمجرد رؤيتها.

العرصة: وتعني العمود الخشبي داخل الدار، تزيد السقف متانة وصلابة وإليها تعلق أشياء الدار كالثياب وجربة الحليب أو اللبن وبعض اللباس وكثيرا ما يكنى عجوز الدار بالعرصة.

التّوسة: وهي مبلغ مالي يعطى للعروس من قبل الأقارب والمدعوين أمام الملأ وفي جو بهيج..

الحصيرة: وهي فراش يبسط في الأرض، غالبا ما تمتلئ بالغبار والأتربة، يوحي بالعوز أيضا.

تُدروش: أي تقرأ حظوظ الناس وتتنبأ بمستقبلهم، اللفظة يعادلها في الفصيح: التنجيم.

أش: لفظة شعبية تقال لنهر الدجاج وإبعاده عن مكان ما.

الداخلية: وتعنى وضعية تمدرس التلاميذ بعد الاستقلال في النظام الداخلي لقلة إمكانات الأولياء، أي على عاتق الدولة أكلا ومبيتا ودراسة، وتأطيرا، وبفضلها تمكن ابناء الفلاحين والبسطاء من التعلم فكان النجاح حليف غالبيتهم.

الباكور: الثمرة الأولى للتين

القشابية: لباس الفلاحين والبسطاء من الناس غالبا ما تلبس شتاء وقد يألفها البعض حتى صيفا في بعض المناطق الصحراوية والهضاب العليا.

القرابة: (Gourbis) لفظة تركية تعني البيت الهش القديم المصنوع من صفائح الحديد أو من القش.

الرومية: بالفرنسية أي المرأة الفرنسية وتدّل يومذاك على القهر والاستعباد.

إن المتأمل في هذه الألفاظ العامية، يحسّ بتلك العفوية والتلقائية والبساطة التي تتدلى على أفواه الساكنة القروية، وارتأى صاحب الرواية توظيفها ليضفي على الأحداث جانبا من الواقعية ونسبة من الخيال الذي يخدم الواقع أيضا، فهكذا تتموج اللغة بين الحقيقة والمجاز صانعة عملا روائيا صادقا. « هذه اللغة التي تتميز بالانحراف والكثافة والتشتت الناجم أساسا عن الانزياح الدلالي من أنماط التعبير المألوفة من خلال الرمز والمجاز والتصوير فتضفي على المكان تلك الجمالية »[1]. وتعكس هذه المفردات المألوفة الجانب الاجتماعي الذي يسود أوساط المجتمع، فعلى سبيل المثال، يذكر الكاتب امرأة تدروش وتتقصى المستقبل فهذا دليل على وجود الشعوذة أنذاك لعوامل كثيرة. « للشعوذة أيضا مكانتها في هذه الرواية، فالمجتمع الجزائري وخاصة الريفي منه مازال يؤمن بكثير من مظاهر السحر والشعوذة والخرافات»[2]. فمن خلال لفظة واحدة يمكن للقارئ أن يدرك أمورا كثيرة عن واقع معيشي معين، مما يغنيه عن قراءة سياق بأكمله، وهذا ما يؤدي بنا إلى القول أن قراءة الرواية وعلى الأخص الأمكنة فيها، لابد أن يمارس فيها التأويل لأن المكان في

(1) الأخضر السايح، سطوة المكان وشعرية القص في رواية ذاكرة الجسد، مرجع سابق، ص 98.

(2) مصطفى فاسي، دراسات في الرواية الجزائرية، دار القصبة للنشر، 2000، الجزائر، ص 78.

صورته الفنية يتجاوز الحواس، وأشياء المكان مهمة جدا بما فيها الظروف المحيطة به، فلا يمكنه الوصول إلى حقيقته دون الالتفاتة إلى الزمن والأحداث والشخصيات، ولابدّ أن نشير أيضا إلى أن هناك كثيرا من الأمكنة لا تذكر صراحة في الرواية، فيتعمد صاحبها إلى إخفائها لغاية فنية « تهدف عملية الإضمار في مجملها إلى تكثيف النص والابتعاد عن التكرار الممل والرتابة التي تصيب الأحداث وهذا من أجل إنقاذ النص من كلّ ما من شأنه أن يحدّ من فاعليته الجمالية والحركية »[1]، ونعترف أيضا أنّ هناك أمكنة أخرى لا يعير لها الكاتب أهمية بل يذكر فيها أشخاصها « قلما يتوقف الكاتب أمام المكان لكي يعطيه حقه من الوصف وحتى عندما يحاول فعل ذلك فإنه ينسى الاهتمام بالمكان لكي يتتبع حركة الشخوص »[2]. وهذا ما لاحظناه في جل هذه الروايات التي اتخذناها أنموذجا لبحثنا هذا، إذ غالبا ما يطغى ذكر الشخص على ذكر المكان، ويظل هذا الشخص حاملا لدواعي الخير. فحينما ترد لفظة الراعي مثلا يفهم القارئ أن هناك قرية.

(1) مختار ملاس، تجربة الزمن في الرواية العربية، رجال في الشمس، أنموذجا، المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 2007، ص63.

(2) مصطفى فاسي، دراسات في الرواية الجزائرية، مرجع سابق، ص68.

خامسا: رواية «الحريق» لـ "محمد ديب".

ونحن نلج إلى ثنايا هذه الرواية (الحريق لمحمد ديب) استوقفتنا في بادئ ذي بدء سلاسة الأسلوب وانسيابيته، وبساطته، فبهذه العفوية والتلقائية يستطيع المؤلف أن يستميل القارئ إليه، بلغة متداولة، تنبئ أن صاحبها ابن الشعب وابن بيئة عانت الويلات والمصاعب عبر المكان والزمان في حقبة زمنية معينة، فهكذا طغى السرد الواقعي للأحداث ولو خالطه الخيال، مما أضفى جمالا لهذا العمل. فكأنّ صاحبه يحمل آلة تصوير على كتفه لينقل لنا مشاهد وصورا عن قرية بني «بوبلان» وتضاريسها الوعرة، في قممها والتواءاتها، وهنالك يغوص المؤلف في كشف حيثيات الواقع المعيش للسكان القرويين في هذا المكان، ولعلّنا اخترنا بعض السياقات اللغوية التي تنقل إلينا تلك البيئة الشرسة، وإن تعددت الأمكنة لكنها في القرية دائما «فالأمكنة في الرواية تتعدد وتتفاوت وفضاء الرواية هو الذي يلفها جميعا »[1]. فعن هذه الجغرافيا القاسية يذكر الروائي ما يلي:

- سفوح مثبتة في الجبل تم استثناؤها من ذاكرة العالم. ص10.
- كان الظلام الغامر الأصم ينطلق من المنخفضات. ص14.
- كان الريف يتوغل في حلكة الليل. ص15.
- تكثف الظلام تحت قمة جبال تبرز ملامحها في سماء مأساوية لا ضياء فيها ولا ظل. ص22.
- أشرق صمت الريف الخالي وفي أرضية الحجر نبت القمح قصيرا. ص134.
- أرض قفر مخللة بجبال جرداء. ص10.
- تختنق الأرض في تلك الأعالي تحت وطأة الدعل. ص10.
- عند حلول الليل حيث تغوص الأكواخ في الحلكة. ص11.
- في تلك الطبيعة المقفرة تلمع نظرات هؤلاء الأطفال. ص12.

(1) حميد لحمداني، بنية النص السردي في منظور النقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، 2000، ص 63.

- في هذه المرتفعات تحبك خيوط دراما. ص30.

من خلال هذه المشاهد اللغوية تتجلى لنا محنة المكان وخشونة الأرض، فقد أجمع الروائي على أنها أرض قاحلة جبلية ربما تصلح للرعي، وأنّ ما كان صالحا من هذه الأرض الجرداء قد يصلح لبعض الفلاحة، وأية فلاحة؟ فما استراحوا من خدمتها وما استطاعت هي بدورها أن تفي حاجياتهم، ورغم ذلك فهذه الأماكن وإن هي مقفرة لا تترجم أبدا عجز الأهالي أو خمود طاقاتهم « العجز سمة سلبية تدل على حالة الضعف تعتري المكان فتضعفه وتبلد إحساسه وتمنعه عن أداء واجباته »[1]، ورغم ذلك بقي القرويون متسلحين بإرادة وعزم ومقاومة لقهر هذه التضاريس الوعرة التي لابديل لهم عنها.

أما السياقات اللغوية الدالة على الجوانب الاجتماعية فهي متداخلة أيضا منها قوله:

- .. وكانوا يقون أرجلهم بواسطة خفاف من جلد الغنم تشد بأسلاك من الحلفاء وفي معظم الأحيان كانوا يجرون حفاة. ص11.
- كان الصبية.. يتوجهون للتسكع في جهات أخرى، كانوا يقطفون التوت ثم يأكلونها مرتعشين في ظل الخنادق. ص38.
- .. ويرمون بالحجارة كلابا مهاجمة، تجبرها الرمية على التراجع. ص37.
- إذا جاء فصل الشتاء يأوي إلى القوربي أو إلى مغارة مظلمة. ص64.
- وفي كل مكان يوجد فيه فلاحون فقراء. ص64.
- أما النساء في بني بوبلان فيحملن لون شمس العسل وهن كالذهب.. ومع ذلك فاللعنة مسلطة على رقابهن، لن تلبث أجسادهن أن تتحول إلى أجساد حمالين. ص 46.
- نعمل في حقول العنب.. ما كانش خلاص! ص46.

(1) مرشد أحمد، أنسنة المكان في روايات عبد الرحمن منيف، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، 2003، ص 41.

- انتشرت روائح طين سميكة داكنة. ص44.
- توجهت البنت إلى الغرفة المشتركة وهي في الأصح مجرد مغارة. ص35.
- كثيرا ما يتعرض الفلاحون هنا للمجاعة. ص11.
- أطفال أشبه بالجراد من شدة ما يبدون نحافا متوترين. ص11.
- اسخانا والكرش خاوية. ص47.

فمن خلال هذه النماذج أيضا ندرك حالة الفقر التي تطّبع السكان هاهنا ولم ينج من هذا الوضع السيئ لا الطفل ولا المرأة، وربما كان وضعهما أسوأ حالا، ورغم ذلك كان البقاء والتشبث والإصرار على الحياة.

أما «القرية» فنجد هدف اللفظة ذكرت ذكرا صريحا، أو وردت بصفاتها، ولعلنا أيضا سنورد بعض الشواهد الدالة على ذلك، باعتبار بحثنا يتقصّى القرية في الرواية «يعدّ فضاء القرية امتداد الفضاء الدشور ولكنه أرقى منه في أمور كثيرة... يقوم فيه السكان بحرف متنوعة »[1].

- كان الريف يتوغل في حلكة الليل. ص15.
- لم تُشكل بني بوبلان قرية ولا حتى دوارا. ص18.
- ومن وراء الطريق على دشرة الفلاحين. ص19.
- تكثف الظلام تحت قمة جبال تبرز ملامحها في سماء مأساوية. ص22.
- كان الريف يسبح في العذوبة الصباحية. ص32.
- .. وهو راع يلوذ بالجبل، ينقطع فيه عن الأنظار هائم مع قطيع الماعز. ص37-38.
- في مخرج الدرب المؤدي إلى قرية الفلاحين ينتصب كوخ المبني بالطين المرصوص مع القش. ص39.

(1) شريط أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة...، مرجع سابق، ص 40.

- في بني بوبلان.. يحدث للرجال أن يجتمعوا على مقربة من القرية. ص46.
- ولا فائدة من انعزالنا كلية في قريتنا. ص48.
- فليس في بني بوبلان شيء هام، لا وجود سوى للأكواخ، للزرايب. ص49.
- في مسالك الريف التي تعمي الأبصار يتبادلون تحية ودية. ص47.
- في جسر صغير يطل على القرية. ص57.
- .. ثم غبن في المسالك الخالية التي توصل إلى القرية. ص57.
- حفرت القرية فراغا حولها. ص303.
- وفي الخارج كانت المسالك تغور في وحل سميك أسود. ص308.
- لو سألت قدماء القرية لحكوا لك. ص108.
- شكلت القرية من وراء ظهورهم محارة ظل. ص22.
- كانت قرية بني بوبلان الأسفل متشبثة بوتد الطين. ص23.

هذه عينة من السياقات التي وردت فيها لفظة القرية أو ما يوحي بها، وكلها تجمع على تشبث السكان بهذا المكان الذي يسع للجميع «.. المكان المنفتح على الكون كله والذي يحتضن المخلوقات كلها.. أي الوجود كلّه في انسجام يعمل كل في خدمة وإسعاد الآخرين »[1].

ولم تخل الرواية من مشاهد تعبيرية تدل على التحدي والطموح والآمال للسكان القرويين في قراهم. وهذه أمثلة جسدها الروائي في هذه السياقات:

- فالفلاحون لا يغادرون بني بوبلان أبدا فإذا غادروا فإنهم لن يصلحوا لشيء بعده أبدا. ص45.
- فكلما توجه فكرنا إليه.. سيبدو لنا ركنا تحلو الحياة فيه، نتنفس فيه ريح الجبال. ص45.

(1) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مجلة عالم المعرفة، العدد 196، الكويت، أبريل 1995، ص 39.

- أصواتهم رائعة بالحنين الذي يملأها. ص45.
- فرغم هذه الملكية الموثقة.. فإنها لاتمنع الفلاح من أن يكون سيد الأرض الخصبة. ص45.
- تحيتهم مليئة بالحرارة. ص45.
- فالقوة التي تفجر الثمار والسنابل موجودة بين أيدي الفلاح. ص45.
- بني بوبلان كانت الأيام السعيدة تمضي فيها مطمئنة. ص18.
- في بني بوبلان يعيش الناس ساعات هنيئة. ص18.
- يستيقظ كل صباح بنفس شعور الروعة. ص34.
- كان قلبه ينفتح للإنبعاثات المتدفقة من الريف. ص34.
- أحس بقلبي ينفتح ويتسع، سهل من الارتياح، محيط من الرضا، جبل من الاعتزاز بل ومن الفخر أيضا من أين يخرج كل هذا؟ من أيدي الفلاحين!. ص113.
- مر الفلاحون أمامه وكلهم كرامة واحترام. ص131.
- نحن ناس القرية نقدر الرجال بحسب معارفهم ومبلغهم من الحكمة. ص135.
- ستكبر زروعنا عندما تخف الشرور على أرضنا. ص135.
- ففي بني بوبلان ترى الأوجه بسيطة ومتآلفة. ص50.
- يتوجه الفلاحون إلى العمل.. فهم قنوعون ومتزنون في أذواقهم لكن لا تطلبوا منهم أن يحنوا ظهورهم. ص50.

فمن خلال هذه المقاطع اللغوية، استطاع صاحب الرواية أين يعكس لنا شخصية القروي التي وإن أجبرتها الظروف على الانحناء تنحني هاهنا لكنها لا تنكسر، ثقة بالنفس، وصبر وجلد واعتداد بالانتماء، في تآلف وتآزر فيما بينهم، كرامتهم فوق كل اعتبار، حريصون على أداء أعمالهم بجد رغم ما يكابدونه من ويلات ومحن، كل هذا

نقله لنا الكاتب بلغة بسيطة سلسلة موحية، قريبة إلى واقع القارئ، كل مقطع من مقاطعها جاز له أن يكون إرهاصا لعمل روائي آخر.

ومن جهة أخرى لا تخلو الرواية من بعض المفردات العامية ارتأى مؤلفها إلى توظيفها ليتقرب شعبيا إلى سكان القرى دون حواجز أو موانع لغوية، ثم يجوز للأديب أن ينتقي من اللغات ما يراه مناسبا لعمله. « اللغة بالحرف الواحد مادة الأديب ويمكن القول أن كل عمل أدبي هو مجرد انتقاء من لغة معينة »[1]. وهذه عينة أيضا من تلك اللغة المتداولة شعبيا في هذه القرية وفي غيرها:

- كانوا يقون أرجلهم بواسطة خفاف من جلد الغنم. ص11.
- وفي الأعالي... كان لسان الرجل العجوز «كومندار». ص13.
- يا ازهووور! شوفي وين راني. ص14.
- غير بعيد كانت ربوة لالا ستي قد نصبت كتلتها. ص15.
- كانت تلاحق الولد بدون حائك. ص16.
- آحايْ لو علمت الأم بحدوث ذلك. ص16.
- بووووه! زهور هذا انتي. ص16.
- لم تشكل بني بوبلان قرية ولا حتى دوارا. ص18.
- استنّا اشويّ صاح أحدهم من القرية. ص21.
- رفع بحركة تهديد هرواة مهيبة. ص21.
- راك تغني بزاف. ص22.
- هي مزرعة فييار. ص23.
- والقدرة تسد تسغالا والعبابوش ابنين (أي القدرة تغلي والحلزونات حلّوة). ص25.
- نعمل في حقول العنب، أنا في مزرعة ماركوس. ص46.

(1) رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، مرجع سابق، ص 179.

- لم يعد العمل متوفرا هنا، ماكاش خلاص!. ص46
- اسخانا والكرش خاوية. ص47.
- هذا صح، هذي مليحا كاراخو (تعجب بالإسبانية). ص47.
- لا وجود سوى للأكواخ «للزرايب». ص49.
- أدَّاوْهُم لسفرة طويلة. ص59.
- نحن نؤكد أننا ما نسواوش. ص64.
- إذا جاء فصل الشتاء يأوي إلى القُوربي. ص64.
- نقطع هدرتك بالعسل. ص68.
- يا خي مهبول. ص166.
- أردت أن أقنع الأطفال بأنهم جناة كبار «زريعة الباندية». ص197.
- البيسري إيسال لي ولا أملك ما أسدد به الدين. ص212.

وسنحاول تحليل هذه الألفاظ بدلالتها وإيحاءاتها حسب سياقها في الرواية وتبعا لمن تفوه بها وللمكان والزمان والظروف. لأن اللفظة بنت اللحظة (تعكس بيئة ورغبة وهمّا وانشغالا وجوا نفسيا).

اللفظة	دلالاتها أو انزياحها
خفاف	عبارة عن جيوب جلدية لحيوانات تصنع منهاالأحذية تلبس في القرى والجبال، تقاوم قساوة الطبيعة.
كومندار	تسمية عسكرية، لرجل قضى حياته في الحياة العسكرية وكلفه ذلك بتر ساقيه، واتفق الناس على مناداته هكذا.
شوفي	لفظة عامية تعني أنظر وتأمل.
لالاستي	مرتفع في مدينة تلمسان أصبح اليوم معلما سياحيا، يشرف على المدينة ويزيدها عبقا.
حايك	لباس ترتديه المرأة قديما ولا تظهر إلا عيناها، يوحي بالمحافظة والتقدير وهو رمز من رموز الأصالة، وشرف المرأة الجزائرية.

أحاي	تعني الأسف والحسرة، تقال في العامية تعبير رجولي وأنوثي معا.
بووه	أي دع من هذا.. فالأمر ليس كذلك (توحى بالسخرية).
الدوار	ما يشبه الحي اليوم، قد لا يصل إلى مستوى القرية. يكثر فيه السكان من الدوران، كأن بهم لا عمل لهم، تنقصه الإمكانات المادية خاصة.
استنا شوي	لفظة عامية أي انتظر قليلا...
بزاف	لفظة عامية تعني الكثير.
فييار	معمر فرنسي في ضواحي تلمسان استولى على أراضي الفلاحين.
تسد تسغالا	أي تغلي.
العبابوش ابنين	نوع من الحشرات (الحلزون) يغلى في القدر للأكل وهو ذو نكهة.
ماركوس	معمر فرنسي استول على أراضي الفلاحين في ضواحي تلمسان.
ماكانش خلاص	ليس هناك أجرة.
الكرش خاوية	البطن فارغ.
كاراخو	لفظة إسبانية تفيد التعجب.
الزرايب	مواضع ربط الحيوانات غالبا ما تكون قريبة من الدار.
أداوهم	أي حملوهم.
مانسواوش	أي لا قيمة لنا.
هراوة	عصا.
القوربي	كلمة تركية تعني البيت القديم المصنوع من التراب والقش أو من صفائح الحديد.
هدرتك	الكلام الكثير من غير فائدة غالبا.
مهبول	أي فقد عقله.
الباندي	كلمة فرنسية (les bandes) الخارجون عن الطريق اللصوص قطاع الطرق
البيسري	صاحب الحانوت لفظة فرنسية (L'épicier).
إيسال	أي عندي ازاءه ديون.

إن استعمال هذه الألفاظ العامية، الكثيرة التداول على ألسنة الشعب، يقترب بعضها إلى اللغة الفصحى، وهي إجمالا تعكس درجة ومستوى التفكير عند الأهالي وتبين أيضا مدى تأثر المجتمع الجزائري بالقاموس اللغوي الأجنبي، فبهذا الكم من الدالات أسقط الأهالي همومهم ورغباتهم وانشغالاتهم الدفينة بطريقة بسيطة متداولة رغم أن ونفوس الجزائريين في هذه الآونة تمتلأ بروح النضال والثورة والرغة في

التحرر. « مع هذا كله لا نمتلك إلا أن نقول إن الأدب الروائي المكتوب بالفرنسية أو بالعربية في الجزائر قد حاول في معظمه وبمختلف اتجاهاته أن يكون في مستوى الثورة الوطنية.. فقد تناول هذا الأدب بتحيز قضايا الإنسان البسيط ونضالاته التي يخوضها على كافة الأصعدة من أجل تغير الأوضاع إلى ما هو أحسن »[1]. وفعلا هذا ما تترجمه هذه السياقات اللغوية التي ساقها الروائي على لسان شخصيات عمله هذا. قرويون، بسطاء، فلاحون ذوو مستوى ثقافي منعدم، لكن قلوبهم مملوءة بالوعي الوطني والثورة والنضال والتمسك بالأرض إلى درجة القداسة.

ومن جهة أخرى لا تكاد تخلو لغة "محمد ديب" من التعابير المجازية القريبة التناول. ومن المشاهد الدالة نذكر:

- اتخذت الحياة منحى ناصعا: استعارة مكنية، حيث شخص الحياة في هيئة إنسان، تتلوى وتختار المنحى، دلالة على التجدد والتغير الذين يسعى إليهما الأهالي في هذه القرية. ص105.
- كان يطفو في أجواء الطريق وهج الفرن: كناية عن شدة الحرارة التي تلفح الوجوه في هذه التضاريس الوعرة. ص105.
- جلدة العشب المحمر وهي تبدو في مظهر ذهب يذوب تشبيه رائع، إذ شبه الأعشاب المحمرة من شدة الحرارة بذهب يذوب على النار، ايحاء بموت الغطاء النباتي. ص126.
- كان عمر يتوفر على عقل سليم: مجاز مرسل علاقة جزئية إذ أطلق الجزء (العقل) وأراد القول أنه يملك جسما مرنا قويا وأبقى على العقل للدلالة على إستراتيجية هذا العضو في جسم الإنسان. ص126.

(1) واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، مرجع سابق، ص 93.

ومنها أيضا:

- استراحت أضواء تلمسان والقرى. ص23.
- يكبر التوتر. ص49.
- كان الريف يسبح في العذوبة الصباحية. ص32.

وبين التعابير الحقيقية وهذه المجازات نجد أنّ الروائي مزج بين الوصف والسرد والإخبار والحوار في عرض أحداث روايته وتقريبها إلى ذهن القارئ، وهذه عينات من هذه الأنماط التعبيرية غير أننا سنلاحظ تداخلا ومزجا بين هذه الأنماط:

- ..إنه الدرب الوعر. ص9.
- ..وحميرهم الصغيرة. ص9.
- ..جبال "ترارا" الزرقاء الخفيفة. ص9.
- هنا تنحصر حياتهم في قضاء أيام فلاحية رعوية. ص10.
- لتجد مخالب المحاريث العتيقة صعوبة في النفاذ. ص10.
- ترسل عُصب الثعالب الهائمة صيحات الموت. ص11.
- .. الحضارة كلام فارغ.
- ..أطفال أشبه بالجراد من شدة ما يبدون نحافا متوترين. ص11.
- أمّا النساء في بني بوبلان فيحملن لون شمس العسل وهن كالذهب. ص46.
- .. كان عمر ينظر إلى عينيها الغائرتين وملامحها الهزيلة في غمرة الصوت المنبعث من الحب المطحون. ص40.
- بدت الأسنان الصغيرة المنتظمة في فم الفلاح. ص84.
- كانت أشعة الشمس تتصبب كالجير. ص84.
- ..من بقعة إلى بقعة أخرى يبرز كوخ شرير.. أصواتهم رائعة بالحنين. ص45.
- تحيتهم مليئة بالحرارة.. نظراتهم خوف يائس. ص45.

هذه شواهد عن نمط الوصف عموما قربت لنا صورة المكان أو الإنسان أو الأشياء. ومن الأمثلة عن الإخبار والسرد:

- .. عند الوصول أمام «دار الضو» يشرع السائر في صعود ثنايا حجريه حفرتها الرياح إنه الدرب الوعر. ص9.
- هنا تنحصر حياتهم في قضاء أيام فلاحية رعوية. ص10.
- كثيرا ما يتعرض الفلاحون هنا للمجاعة. ص11.
- حين حلول الليل تغوص الأكواخ في الحلكة. ص11.
- ترسل عصب الثعالب صيحات الموت. ص11.
- التقى عمر بأولاد أكثر منه بؤسا. ص11.
- .. كان الظلام ينطلق من المنخفضات. ص14.
- كانت زهور تكابد في الدرب لتلتف حول المزرعة. ص14.
- .. وفي الطريق كانت السيارات تمضي .. عند مرورها كان يقوم بألاف القفزات البهلوانية ويصرخ مقلدا مزاميرها. ص15.
- سألت ماما عن ناس دار السبيطار ثم اعتذرت. ص17.
- كان الكبش يتسكع من مكان لآخر ينهش قطفة عشب. ص44.
- عندما استفاق عمر، حدثه كومندار عن بني بوبلان وسكانها. ص44.
- عند خروجه من الدار أخذ عمر معه قطعة من الخبز. ص280.
- كان يأكله خارجا، في الشارع، يقتلعه قرصة بعد قرصة. ص280.
- كان يجري عبر أنهج المدينة، ويقسم مأكله إلى اثنين. ص280.
- كان يتوقف في عين ماء بين الفينة والأخرى. ص281.
- ثم يعود للتسكع في الأنهج. ص281.

والملاحظ في السرد والأخبار تعاقب الأفعال الماضية والمضارعة مع ذكر للأمكنة وما يحدث فيها من حراك ونشاط وحيوية، إنها حياة دؤوبة لا تعرف السكون في هذه المرتفعات الجبلية.

وللحوار أيضا حضوره في ثنايا الرواية، وهو غالبا ما ينبئ عن حيرة أوهّم أو انشغال أو ينم عن حسرة على ماض فات أو حاضر مقلق أو مستقبل غامض مخيف وفي الغالب يأتي بالعامية ليلائم الشخصية والمكان « إذ ليس من المنطقي (في رأي النقاد) أن ندير حوارا باللغة الفصحى على لسان فلاح ينتمي إلى الريف »[1]:

- الله يعطيك غوما يا واحد الملعون!. ص104.
- نشا الله ينحرقو اشلاغمك. ص104.
- أنا في البلد قال الشيخ المطلع على كل شيء.
- هذا أكيد، اعترف بن سالم. ص98.
- الشيخوخة تعرف أشياء كثيرة. ص98.
- إذن اقترب ولا تبق بمفردك هناك. ص98.
- لا حاجة لذلك .. لقد أخطأتم بأن في الاعتقاد أنّ في وسعكم أن تنسونا ..
- أخطأنا وليس صوابا أن لا نخبرك مسبقا. ص98- 99.
- من هم الجناة في رأيك يا أبي؟ ص224.
- يجب البحث عنهم. ص224.
- فعلا ينبغي البحث عنهم، هذا معروف. ص224.
- منّي بصح. ص224.
- واش ميزت انتا، يا أبي؟ هل هم بيننا أم لا ؟. ص224.
- يلزم انشوفوا!. ص224.
- وهو ما سنراه... لا تكلف نفسك كل هذه المتاعب. ص224.

(1) شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة...، مرجع سابق، ص 38.

- إن مات هذا فهناك آخرون.
- توقفوا ! صاح حميد. ص 189.
- على آية حال، نحن ناس محزونون !. ص144.
- محزونون ؟ قال باددوش ملتفتا إليه بعيون الفرح واليأس. ص144.
- نحن محزونون جدا. كرر المزارع بهدوء وطيبة. ص144.
- كم تبلغ من العمر؟ واصل الرجل. ص286.
- أحد عشر سنة. ص286.
- أين تعلمت التحدث بالفرنسية. ص286.
- في المدرسة موسيو. ص286.
- آه أنت تذهب إلى المدرسة. ص286.
- أقصد كنت أذهب. ص286.

هكذا وردت مقاطع الحوار عديدة، تتقاسمها شخصيات الرواية حوار بلغة عادية عامية أحيانا، يعكس بساطة حياة القرويين، وهم يتبادلون الآراء، وبحواراتهم هذه يتنفسون عن هموم الحياة وأتعابها، بل يتقاسمونها، غير أنّ الملاحظة هو أنّ هناك تداخلا بين آليات الخطاب بين السرّد والوصف والحوار « من الطبيعي إذن أن لا يكون الحوار في هويته وما هيته لغة فحسب مع أن وسيلته هي اللغة، إذ هو كما يرى البعض جزءا من السرّد وأحيانا وسيلة تقنية تسهم في تطوير الحدث والسير بالخط الروائي إلى الأمام »[1].

ومن جهة أخرى، استوقفتنا في هذه الرواية شخصيات عديدة، على تنوع آرائها ومستواها، أدركنا بواسطتها ماهية المكان أيضا. :

- شخصية عمر (يلف هو وأنداده في البؤس الشديد) لكنه نضج مبكرا.

(1) نجم عبد الله كاظم، مشكلة الجوار في الروايات العربية، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2007، ص ص 9، 11.

- الفلاحون (يكابدون، يكدحون في خدمة الأرض، يتعرضون للمجاعة، ويكتمل نضج الشخصية تبعا للقدرة والإرادة، « وتكون هذه الشخصية قوية ذات فاعلية تتحرك وتنمو وفق قدراتها وإراداتها »[1].

ومن الشخصيات أيضا:

- أطفال (يشبهون الجراد).
- كومندار قضى جل حياته عسكريا، كلفه ذلك بتر ساقيه.
- ازهور البنت.
- عيني الأم.
- باددوش.
- سليمان.
- قارا زوج الأخت.
- موسيو فيلار، ماركوس: المعمران الفرنسيان.

ولا شك أن شخصية عمر الطفل، ظلت تتوهج في الرواية، لما تحمله من وعي وإدراك ونضج ثوري ووطني. وقد استمد وعيه من كومندار الذي قضى حياته مناضلا مكافحا. وبالمقابل نجد المعمرين الذين استولوا على أراضي الفلاحين الجزائريين يستغلون عرق جبينهم، ولابد أن نشير أيضا إلى أن معظم كتاب هذه الأعمال الروائية نوعوا في استعمالاتهم للضمائر، من ذكرها منفصلة إلى متصلة، إلى التعبير بالضمير أنا يقصد به الجمع وهكذا.

« تمثل الضمائر بؤرا أسلوبية، تتسرب من خلالها أطياف النص المتوشجة فتكشف لنا جانبا من عوالمه الخفية »[2]. ومن الأمثلة عن ذلك:

(1) شريط أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة...، مرجع سابق، ص 40.

(2) عشتار داود، الأسلوبية الشعرية قراءة في شعر محمود حسن اسماعيل، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2007، ص 248.

- إنه الدرب الوعر الذي يسلكه. ص09.
- جبال الترارار التي ترتفع لتشكل سماءً. ص09.
- هناك تنحصر حياتهم في قضاء أيام..... ص09.
- .. يبدون من البساطة بأنهم آتون من قارة منسية. ص10.
- لكن لم نغادر. ص11.
- من هم الجناة، يجب البحث عنهم. ص224.
- كان قلبه يغلي بغضب. ص104.
- انثنى الهاشمي وقد أولى ظهره للريح. ص95.
- رجل اليوم يفكر أكثر من قدرته. ص82.
- لافائدة من انعزالنا كلية في قريتنا. ص48.
- وفي المساء في الكوخ حيث يجتمعون بصغارهم. ص49.

للعلم أن الضمائر سواء المتصلة أو المنفصلة تمثل أداة مركزية في اتساق النصّ وانسجامه وربط أفكاره، ليكتمل نموّه في تسلسل منطقي ولو بمفهوم العلوم الإنسانية وقد لجأ إليها كل هؤلاء الروائيين في أعمالهم كآليات لغوية تفك الغموض وتوضح السياقات اللغوية وغالبا ما تجنبنا التكرار في الكلام.

خاتمة

في خاتمة بحثنا هذا، نقول بكل تواضع وصدق واعتراف أننا بذلنا جهدا معتبرا لاكتشاف حقيقة المكان في حياة البشر سيما القرية كمكان ظل لكنه على الدوام يتألق في نفوس ساكنيه، انطلاقا من عديد النماذج الروائية التي انتقيناها لهذا الغرض، وسعينا جاهدين للوقوف عند جماليات هذه الأمكنة التي تتموقع فوق قمم الجبال وسفوحها أو بين جنباتها، ورغم ذلك تجدنا ربما غافلين على تتبع أسرارها الدفينة ونعتبر أن بحثنا الذي ترصد حضور القرية في هذه الأعمال بمثابة نداء للباحثين والنقاد والمهتمين بشؤون الفضاءات المكانية، عساهم يبحرون في تقصي شعرية هذه الأمكنة وسر تعلق الناس بها بل وسائر المخلوقات، ولا بأس إن خصصوا القرية بالبحث والدراسة، كونه لم تنل حظا وافرا من البحث والتحري فيه، كما نعتقد أنه من الأهمية أن نوسع دائرة البحث في إبراز ماهية الأمكنة وعلاقاتها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية وحتى الفكرية، مع الإنسان خاصة أو مع سائر المخلوقات عامة، وحري بنا أن نميط اللثام أكثر على هذا الموضوع، عبر مختلف الأعمال الروائية الجزائرية باعتبارها حاضنة للقرية بكل تجلياتها.

ونعتقد أن الرواية في الأدب الجزائري لها مكانة مميزة عن باقي الأجناس الأدبية المختلفة لما تتمتع به من قدرة على رصد الواقع ونقل حيثياته وأشيائه إلى ذهن القارئ وبلغة سهلة بسيطة جذابة وإن حصل فيها كثير من التمرد من حيث الألفاظ التي أوردها أصحابها بالعامية أو بمصطلحات وتسميات شعبية تنبئ عن بساطة معيشة السكان القرويين وتعكس مستوى تفكيرهم المتواضع. فهكذا ظلت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية أو العربية تتقصى القرية كمكان خاص، مغلق لكنه منفتح الإيحاءات على مشارب متنوعة من القراء.

ورجوعا إلى بحثنا وبعد الاطلاع على مدى حضور القرية في النماذج المدروسة، خلصنا إلى استنتاجات كثيرة حول هذا المكان، قد لا يسع المقام لذكرها جميعا، بل نكتفي بإيراد بعض وترك الآخر للقارئ عساه يملأ الفراغات المتروكة وللناقد أيضا كلمته ودوره.

- إن المكان رفيق الإنسان في حياته، بل وفي حياة سائر المخلوقات، ففيه تمارس الحياة وفيه الفناء والموت.
- تمثل القرية مكانا عزيزا في نفوس الأهالي القرويين ففيها ولدوا ونشئوا وعاشوا وعانوا واستمتعوا وبين جنباتها كان رزقهم ومعاشهم، توارثوا المكان أبا عن جد.
- اعتمد السكان القرويون على الأرض بالدرجة الأولى فمارسوا فيها نشاطهم الفلاحي (الرعي والزراعة)، ورغم قلة نصيبهم من مساحة الأراضي الزراعية الخصبة كانوا يستغلون ما يملكون إلى آخر شبر ولو أن تلك البقع معلقة في قمم الجبال أو في سفوحها أو بين الهضبات والوديان، والدروب إليها شاقة المسلك ضيقة، تؤرخ لمعاناة الإنسان في هذا المكان وكثيرا ما تلحق بالمارين بها أضرارا جسدية تصل حد الموت كالسقوط أو الانزلاق في المنحدرات.

يبقى السكان حبيسي المكان في آفاق ضيقة مما يفتح المجال في كثير من الأحيان إلى الصراعات والمناوشات فيما بينهم على شيء أو على لا شيء، لكنها خلافات ظرفية سرعان ما تهدأ بفضل قلوب السكان المملوءة حنانا ورأفة فيما بينهم وإن قست أحيانا، وبفضل كبار وعقلاء القرية.

- يبني القرويون مساكنهم بالحجر والطين، مساكن متجاورة بعضها إلى بعض، بناءات أرضية عموما تتصدرها الحارات، تتسع أو تضيق، توضع فيها المؤثثات والمستلزمات كالحطب وأغراض الزرع والحرث والنسيج والفخار إلى غير ذلك.
- يقوم السكان القرويون حسب ما ورد في هذه النماذج بحرف يدوية ونشاطات مرتبطة بالأرض على الدوام كالفلاحة والرعي والحدادة والنسيج، وهذه الأخيرة حرفة المرأة القروية بدون منازع وكادت أن تكون هذه شرطا أساسيا لقبول المرأة زوجة، إذ أن القرويين ينظرون بسخرية واستخفاف بل واحتقار للمرأة التي لا تضطلع بهذه المهنة، فيلقبونها بـ "**معوجة اليدين**"، علما أن حرفة النسيج تعد هاهنا موردا إضافيا طالما ساهم في تحسين المستوى المعيشي للأسر وللساكنة القروية. إلى جانب صناعة الفخار، فهي دائما سر افتخار المرأة، تصنع منه

مختلف الأواني التي يستعملها القرويون في حياتهم المعيشية صحونا أو كؤوسا أو أطباقا أو غير ذلك.

- من الغلات المنتشرة في القرى أو الأطباق الغذائية التي تتميز بها، طبق **الكسكس** فكأن به ميثاق غليظ يؤرخ للمكان، فيه الأصالة والصدق والوفاء والإخلاص ظل يجسد دائما تلك الروح الجماعية التي تطبع الأهالي، فما من أسرة إلا وأواني هذا الطبق تتصدر رفوف البيوت كالغرابيل ومختلف أشكال القصاع والصحون.

ومن الأطباق المشهورة هنا أيضا **السفنج أو الخفاف**، الذي تظل رائحته يعبق بها المكان، غالبا ما يقدم صباحا بمعية القهوة أو الشاي، ليبقى حضوره قويا في المناسبات الدينية والأفراح أو الأقراح.

إلى جانب **البغرير والتين والكرموس والبلوط**، ليبقى **زيت الزيتون** مادة أساسية في الغذاء اليومي تتربع في حناياها معلنة دفء المكان وعزة الساكنة، فهم يقولون أنه وجود هذه المادة كفيل بطرد الفقر والحاجة.

- وقرأنا أيضا في ثنايا هذه الروايات تمسك الأهالي بعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم وطقوسهم، إذ لا يجرؤ أحد مهما علت مكانته أن ينتهكها أو يتجاوزها أو ينكرها، حتى وان بدا بعضها عائقا في حياة الناس سيما في تفكير الشباب منهم، ولقد عجز الاستعمار الفرنسي بطبعه الاستيلائي محو هذه العادات أو القضاء عليها بفضل تحدي الأهل رجلا كان أو امرأة.
- يظل الرجل القروي وفيا لأرضه وحقوله وبيته على طول الزمن، فلا يهنأ إلا وهو بين جنبات هذه الفضاءات، تجده يكد ويسعى في شقاء ومعاناة، بمعية المرأة التي تظل خادمة داخل البيت وخارجه، فما كلت لهم عزيمة أو فترت لها إرادة، ترافق الرجل في خدمة الأرض وجمع الغلات والاحتطاب أو حتى رعي المواشي عند الضرورة القصوى قناعة منها أن ذلك كله من شأنه أن ينفع أسرتها ومحيطها، فيرفع من شأنها ويعزز مكانتها في وسط رجولي، فتجدها لا

تتردد أو تتأخر في خدمة بيتها ولو على حساب أنوثتها أو جسدها المنهوك دائما.

- يولي القرويون بالغ الأهمية للجانب الروحي العقائدي، فالدين الإسلامي هو الرباط الذي يؤلف قلوبهم ويجمع كلمتهم ويشحذ هممهم، فلا يحق لأحد أن يتجرأ على انتهاك حرمة الدين. والأكيد حسب ما أطلعتنا عليه هذه النماذج الروائية فجميع القرى تتصدرها المساجد التي تضفي على المكان هيبة وجمالا بيوت الله فوقهم وسفوح الجبال تتحدى الخرافة والجهل، كما تتحدى المستعمر الفرنسي الذي عجز عن محو هذه القلاع الروحية فلقد استمسك بها الأهالي بقناعة منقطعة النظير رغم ضآلة ثقافتهم الدينية.

واستنتجنا أيضا ذلك الفقر المدقع الذي يلف القرى وهذه الأمكنة، مما أدى بكثير من الشباب خاصة للتفكير في الهجرة إلى ما وراء البحار أو حتى في الهجرة الداخلية آملين في تحسين مستواهم المعيشي، ولقد اقتنعوا في آخر المطاف، أن تلك الحقول لم تعد تفي بحاجاتهم، بل تزيدهم شقاء وحرمانا وضياعا لأيام عمرهم. فآباؤهم دوما في إقبال وإدبار في هذه الأرض القاسية لضمان قوتهم اليومي دون كلل، لكنها أرض طيبة، طالما تذكرهم بأسلافهم، فكبرت الحيرة في قلوب هؤلاء؟

تتشابه القرى الجزائرية من وسطها إلى شرقها وغربها وجنوبها في التضاريس والتموقع إلى حد كبير. غالبا ما تعلو الجبال والمرتفعات أو تنبطح في المنحدرات والأسافل تتقاسم أهلها الشقاء والتعب والخصاصة، مع نقص فادح للإمكانات المادية سيما في هذه الآونة من تاريخ الجزائر حين جثم المستعمر الفرنسي على المكان فكان التخريب والإتلاف والحرق للأرض والعباد، وحتى بعد الاستقلال لم يطرأ تغيير ملحوظ في حياة الأهالي في السنوات الأولى بالخصوص فظلت المعاناة تراوح المكان بل ازدادت حدة على كبر طموح الساكنة، ولم يكن في وسع السلطات يومذاك تغيير الواقع دفعة واحدة، فأينما يممت وجهك ترى مخلفات الاستعمار، فكان لا بد من وقت للترميم والبناء لكل المرافق الحياتية، مما جعل السكان يئنون تحت وطأة خيبة الآمال وانكسار أفق الانتظار.

-اعتماد نمط الوصف والسرد في هذه النماذج الي جانب كثافة المجاز وانزياح ملحوظ للالفاظ لغويا رغم بساطة اللغة.

ويبقى هذا البحث مفتوحا لاجتهادات أخرى، إما على مستوانا أو على مستوى باحثين آخرين.

نسأل الله تعالى أننا وفقنا إلى حد بعيد في عملنا هذا رغم ما لقيناه من صعوبات على مستوى المراجع أو المكتبات التي ظل أغلبها مغلقا أثناء بحثنا بسبب الظروف الصحية التي عرفتها بلادنا كسائر بلدان العالم.

ملحق

بعض نماذج للقرية في الجزائر

جمال الله في أرضه

المرارة الحلوة

الفطنة والبساطة في العمران

هدوء وراحة البال

مساكن في حميمية

ظل التحدي يكبر

شموع الله في أرضه

منازل تتعانق

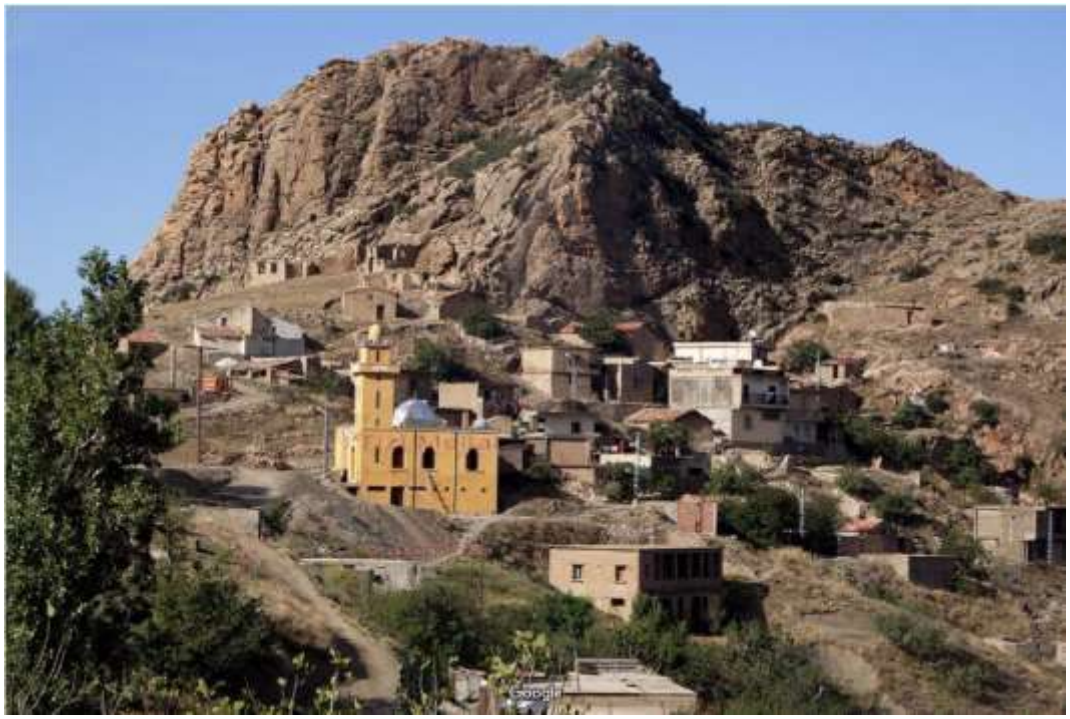

جبل يحرس القرية

إصرار العلو

هدوء وراحة البال

تضاريس تتلوى

تجمع قروي رائع

معانقة الأصالة بالحداثة

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- الحديث النبوي الشريف.

I- المصادر:

1- أبو القاسم الشابي، الديوان، دار العودة، بيروت، 1972.

2- عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط5، الجزائر 2008.

3- محفوظ خليف، أتصمت العصافير، إشراف: ربيعة جلطي، منشورات وزارة الثقافة ط1، الجزائر، 2005.

4- محمد ديب، الحريق: تر: أحمد بن محمد بكلي، دار سيديا، الجزائر، مطبعة الفنون الجميلة، 2012.

5- محمد ساري، على جبال الظهرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.

6- مولود فرعون، ابن الفقير، ترجمة سيد أحمد طرابلس، دار صالح تلاتيقيت للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.

7- مولود فرعون، الأرض والدم، تر: عبد الزاق عبيد، دار تلانتيقيت للنشر والتوزيع الجزائر، 2005.

8- مولود فرعون، يوميات بلاد القبائل، تر: عبد الرزاق عبيد، دار تلانتقيت للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.

II- المراجع:

ب- الكتب:

1- أحمد حيدوش، إغراءات المنهج وتمنع الخطاب، ط1، دار الأوطان للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2009.

2- أحمد فضل شبلول،الحياة في الرواية قراءات في الرواية العربية المترجمة 2001.

3- أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

4- أحمد منور، قراءات في القصة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.

5- الأخضر السايح، سطوة المكان وشعرية القص في رواية ذاكرة الجسد، دراسة في تقنيات السرد، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2011.

6- بشارف حفيظة، شعرية النص عند المتنبي، السّيفية الأخيرة أنموذجا، دار الحمراء الجزائر، 2004.

7- بشير بويجرة محمد،بنية الزمن في الخطاب الروائي الجزائري المؤثرات العامة في بنيتي الزمن في النص 2002.

8- بشير تاوريرث، آليات الشعرية الحداثية عند أدونيس دراسة في المنطلقات والأصول والمفاهيم، ط1، عالم الكتب، مصر، 2009.

9- جعفر الشيخ عبوش، السرد ونبوءة المكان، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، 2014.

10- حبيب مونسي،فلسفة المكان في الشعر العربي قراءة موضوعاتية جمالية،دراسة 2011.

11- حسن حنفي، من النص إلى الواقع محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، ج1 تكوين النص، دار المدارس الإسلامية، لبنان، 2005.

12- حميد لحمداني،بنية النص السردي في منظور النقد الادبي ط3، 2000

13- خالد ميهوبي، الشعر الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009.

14- رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987.

15- زتسيسلاف وواز زيناك، مدخل على علم النص مشكلات بناء النص، تر: د:حسن بحري، ط2، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، 2010.

16- شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، الخطاب الأدبي الجديد في الجزائر، وهم الواقع وعنف المتخيل، 1947-1985، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2013.

17- الشريف حبيلة، الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2010.

18- شوقي أبو خليل، أطلس القرآن، أماكن، أقوام، أعلام، ط12، دار الفكر، دمشق 2011.

19- صالح ولعة، المكان ودلالته في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010.

20- صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر مصر 1998.

21- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002.

22- الطاهر بن حسين بومزبر، أصول الشعر العربية، نظرية، حازم القرطاجتي في تأصيل الخطاب الشعري، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007.

23- عبد الجليل مرتاض، البنية السردية في الإبداع الروائي، رشيد ميموني نموذجا ديوان المطبوعات الجامعية، 2016.

24- عبد الرحيم الكردي،السرد و مناهج النقد الادبي 2004.

25- عبد الرحيم مؤذن، الرحلة في الأدب المغربي، النص، النوع، السياق، إفريقيا الشرق، المغرب، 2006،

26- عبد القادر أبو شريفة حسين لافي قزق، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، ط4 دار الفكر ناشرون وموزعون، الأردن، 2008.

27- عبد القادر عميش، شعرية الخطاب السردي، سردية الخبر، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.

28- عبد القادر نور، حوار حول الثورة، إعداد وتقديم: جنيدي خليفة، ج3، موفم للنشر، الجزائر، 2012.

29- عبد الله ابراهيم، المتخيل السردي، مقاربات نقدية في التناص، والرؤى والدلالة ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990.

30- عبد الله الركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983.

31- عبد المجيد عزي، مسيرة كفاح في جيش التحرير الوطني الولاية الثالثة، دار الجزائر للكتب، 2011.

32- عبد الملك مرتاض، نظرية النص، ط2، دار هومة، الجزائر، 2010.

33- عبد النبي ذاكر، بلاغة المحو في رحلة ابن بطوطة، ط1، مطبعة أنفو-برينت المغرب، 2013.

34- العربي دحو، اطلالات مقاربة للآداب الجزائري الحديث دار الهدى، الجزائر 2011.

35- العربي دحو، نصوص من الأدب الأمازيغي الشاوي بالشرق الجزائري، جمع وتصنيف وترجمة، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، 2006.

36- عشتار داود، الأسلوبية الشعرية قراءة في شعر محمود حسن اسماعيل، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2007.

37- عمر بن قينة، الأدب العربي الحديث، ط1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 1999.

38- غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط6، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 2006.

39- فاطمة سعدي، البراءة المسلوبة مجزرة 20 أوت 1955 بملعب سكيكدة، تر: عبد الرحمن شريط، دار النشر أنوثة،الجزائر،2007،

40- محمد زيتلي،الاعمال الأدبية الشعرية و النثرية،ط،2013.

41- محمد سعدون، تجليات النص من زوايا نقدية، ديوان المطبوعات الجامعية 2018.

42- محمد صابر عبيد،سون البياتي ،المتخيل الروائي سلطة المرجع و انفتاح الرؤيا ط،2015 .

43- مختار ملاس،تجربة الزمن في الرواية العربية،رجال في الشمس أنموذجا 2007.

44- مرشد أحمد،أنسنة المكان في روايات عبد الرحمان منيف ط2003 .

45- مصطفى درواش، تشكيل الذات واللغة في المفاهيم النقد المنهجي، الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2008.

46- مصطفى فاسي، دراسات في الرواية الجزائرية، دار القصبة للنشر، الجزائر 2000.

47- نجم عبد الله كاظم،مشكلة الحوار في الرواية العربية ط2007 .

48- نسيمة العداوي،الدروب الصاعدة،مجلة معارف العدد 15 السنة 8 2014.

49- نورة بعيو، صيغ الكرونوتوب في الرواية العربية، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ط 2015، الجزائر.

50- واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، 1986.

جـ- المجلات:

1- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مجلة عالم المعرفة، العدد 196، الكويت أبريل 1995.

2- نصيرة ريلي، «أنطولوجيا الأمثال الشعبية القبائلية» مجلة معارف، العدد 15، كلية الآداب واللغات، جامعة أكلي محند أولحاج- البويرة، 2014، ص197-212.

د- الجرائد:

1- جريدة الخبر، روبورتاج (نوارسوكو)، السنة 27، العدد 8361، الخميس 2016/12/15، الجزائر، ص12-13.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

إهداء..... /
كلمة شكر..... /
مقدمة..... 05

مدخل: مفاهيم نظرية

أولا: حقيقة المكان في حياة البشرية. 15
ثانيا: القرية في منظور القرآن الكريم..... 20
ثالثا: القرية في منظور الرواية الجزائرية عامة. 27
رابعا: مفهوم مصطلح الشعرية. 37

الفصل الأول: القرية وأبعادها في الرواية الجزائرية قبل الاستقلال

الأنموذج الأول: القرية في رواية «الأرض والدم» "لمولود فرعون"..... 48
الأنموذج الثاني: القرية في رواية «ابن الفقير» "لمولود فرعون". 63
الأنموذج الثالث: القرية في رواية «يوميات بلاد القبائل» "لمولود فرعون". 84
الأنموذج الرابع: القرية في رواية «الحريق» "لمحمد ديب". 108

الفصل الثاني: القرية وأبعادها في الرواية الجزائرية بعد الاستقلال

الأنموذج الأول: القرية في رواية «ريح الجنوب» "لعبد الحميد بن هدوقة". 123
الأنموذج الثاني: القرية في رواية «على جبال الظهرة» "لمحمد ساري". 145
الأنموذج الثالث: القرية في رواية «أتصمت العصافير» "لمحفوظ خليف". 172

الفصل الثالث: اللغة والأسلوب بين الحقيقة والمجاز (بعض الروايات أنموذجا)

أولا: رواية «الأرض والدم» لـ "مولود فرعون". 189
ثانيا: رواية «ابن الفقير» لـ "مولود فرعون". 197
ثالثا: رواية «يوميات بلاد القبائل» لـ "مولود فرعون". 208

رابعا: رواية «على جبال الظهرة» لـ "محمد ساري"..... 217
خامسا: رواية «الحريق» لـ "محمد ديب"..... 231
خاتمة..... 247
ملحق..... 253
قائمة المصادر والمراجع..... 261
فهرس المحتويات..... 267